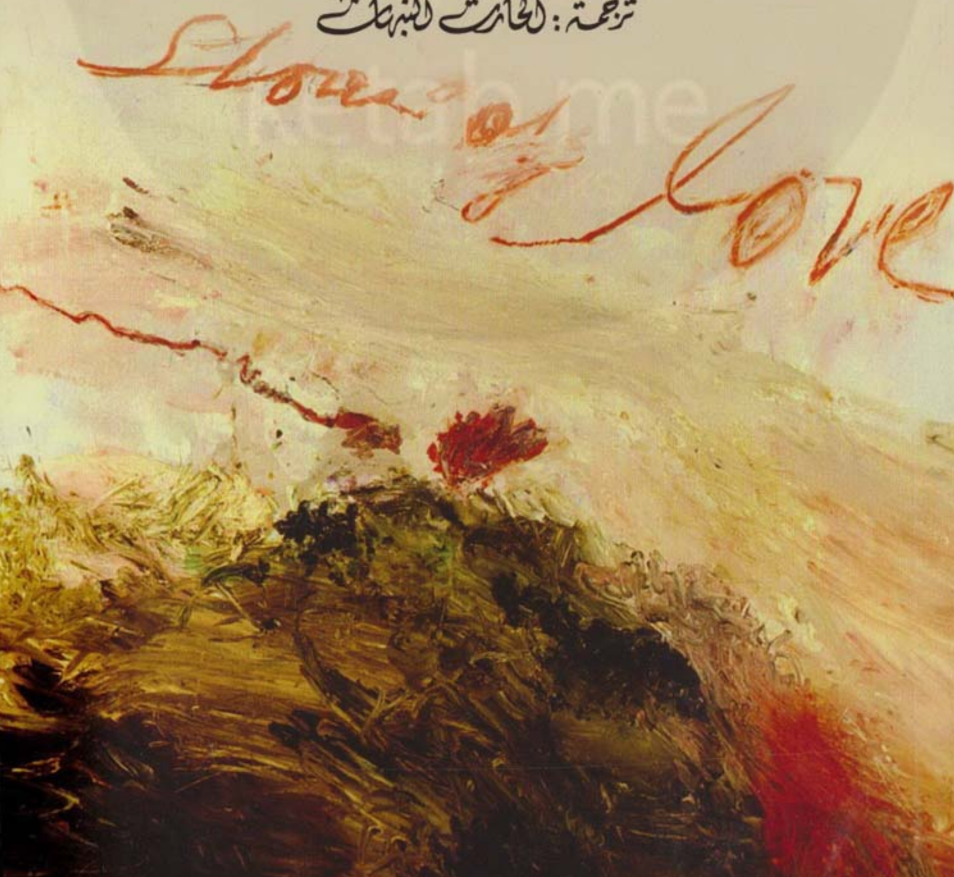
إيفان كليما

حبّ وقمامة

رواية

ترجمة: الحارث النبهان



إيفان كليما

حب وقمامة

رواية

ترجمة: الحارث النبهان

التنوير

إيفان كليما

حب وقمامة

رواية

الكتاب: حب وقمامة (رواية)
المؤلف: إيڤان كليما
المترجم: الحارث محمد النبهان
عدد الصفحات: 288
الطبعة الأولى 2012

العنوان الأصلي للرواية
LOVE AND GARBAGE
IVAN KLÍMA

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

الجناح - مقابل السلطان ابراهيم - سنتر حيدر التجاري
الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 00961 1 843 340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.altanweer.com

التنفيذ الطباعي: مؤسسة ديمو برس للطباعة والتجارة بيروت / لبنان

القسم الأول

أمرتني المرأة الجالسة في المكتب أن أذهب إلى غرفة الخزائن. كان عليَّ الانتظار في تلك الغرفة، فعبرت الباحة متجهاً صوب باب عليه لوحة تحمل كلمة واحدة: «الخزائن». كان المكتب رمادياً يبعث الكآبة في النفس. ومثله كانت الباحة التي لم أرَ فيها إلا كومة من النفايات وقطع القرميد المكسّرة في الزاوية مع كثير من عربات القمامة ذات العجلتين وكثير من حاويات القمامة، ولا شيء من الخُضرة إطلاقاً. بدت لي غرفة الخزائن أكثر كآبة حتى من تلك الباحة نفسها. جلست على مقعد قرب نافذة مطلة على الباحة الكئيبة، كنت ممسكاً بحقيبة جلدية صغيرة فيها ثلاث كعكاتٍ حلوة صغيرة مع كتاب ودفتر ملاحظات اعتدت أن أسجّل فيه كل ما يخطر لي ويتصل بما أكتبه. إنني الآن على وشك إنهاء مقالة عن كافكا.

كان في غرفة الخزائن رجلان جالسان. كان أولهما طويل الجسم في بداية الشيب، وقد ذكّرني بالطبيب الذي أجرى لي جراحة اللوزتين منذ سنوات كثيرة. أما الآخر فكان قصيراً متين البنية غير واضح العمر. وكان يرتدي بنطالاً مهلهلاً شديد القذارة لا يكاد يصل إلى منتصف ساقيه وله جيبان ضخمان مخاطان من الخارج يشبه الواحد منهما قراب مسدس رديء الصنعة. كانت على رأسه قبعة قبطان بحري مدببة عليها مرساة ذهبية

لامعة. ومن تحت تلك القبعة أطلت عينان بلون مياه الشواطئ الضحلة ترقبانني بفضول ظاهر. بدت لي هاتان العينان مألوفتين على نحو ما، بل هي نظرتهما التي بدت مألوفة لي! من الواضح أنه أدرك أنني جديد في هذا المكان لأنه نصحني بأن أضع بطاقة الهوية على الطاولة. فعلت كما قال لي. وعندما وضع هويته بدوره لاحظت أن يده اليمنى مقطوعة، كان خطاف أسود يبرز من كُمِّه.

بدأ زملائي في عملي الجديد يصلون تباعاً، إنهم الكناسون. جلس إلى جانبي شاب متين القامة غبي الملامح يُظْهر وجهه اختلاجاتٍ عصبية، وأخرج من الخزانة جزمة مطاطية قديمة قلبها من فوره فسالت من إحدى فردتيها كمية من سائل لعله ماء، ولعله غير ذلك! وسرعان ما راح هذا الشاب يزعق فينا جميعاً بلغة ما كنت قادراً على فهم كلمة واحدة منها.

لا أعرف على وجه التحديد ما الذي جعلني أختار هذه المهنة التي لا جاذبية فيها. غالب الظن أنني توقعت منها إكسابي طريقة جديدة غير متوقعة في النظر إلى العالم. كثيراً ما يظن المرء أن عقله سوف يغدو خاملاً إن هو لم يستطع النظر إلى العالم والناس من زاوية جديدة.

بينما كنت أنتظر ما سوف يحدث بعد ذلك جاءني مشهد قديم عمره خمسة عشرة عاماً. كان ذلك قُبيل عودتي من إقامتي في أمريكا، عندما أقام عميد الكلية مأدبة عشاء على شرفي. كان الرجل أستاذاً في الرياضيات، وكان ثرياً أيضاً وعنده إسطبل فيه خيول وبيت على هيئة كوخ من أكواخ الصيد. لم ألقه إلا مرة واحدة قبل ذلك. لم تكن عندي رغبة حقيقية في الذهاب إلى ذلك العشاء: إن وجودي ضمن حشد من الأشخاص الغرباء يخلق عندي قدراً من الاكتئاب. لكن، كيف لي أن أعرف أياً منهم معرفة حقيقية وفترة تدريسي في تلك الجامعة لم تتجاوز ستة أشهر؟ في الواقع أنهم كانوا لطفاء معي، كلهم، مبتسمين جميعاً كما هم الأمريكيون دائماً.

وقد سألوني، كلهم، بدرجات متفاوتة من الإلحاح، عن السبب الذي يجعلني راغباً في ترك بلدهم الغني الحر والعودة إلى موطني، إلى بلد فقير لا ينعم بالحرية، حيث من المحتمل أن أسجن أو أن يُبْعَث بي إلى سيبيريا. حاولت أن أكون منشرح النفس مثلهم. وتظاهرت أمامهم بشيء من الوطنية، أو بنوع من الإحساس بالواجب، حتى توصلت إلى تفسير مقنع. قلت لهم إن الناس في بلادي يعرفونني. فحتى لو اضطررت إلى جمع القمامة من الشوارع فسوف أكون في نظرهم كما أنا، كما أريد أن أكون، لا أي شيء آخر، سأكون كاتباً. أما هنا فسوف أظل واحداً من أولئك المهاجرين الذين أشفق عليهم هذا البلد العظيم حتى إن كنت أجوب الشوارع في سيارتي الفورد الصغيرة. هكذا كانت كلماتي المتشدّقة، أما في واقع الأمر فقد كنت راغباً في العودة إلى موطني، إلى حيث أجد الناس الذين أحبهم، إلى حيث أستطيع التكلم بطلاقة والإصغاء إلى لغتي الأم.

أما الآن فأعرف أنني إذا رحت أكنس الشوارع فسوف أكون، في أعين أكثر الناس، مجرد شخص يكنس الشوارع، شخصٌ لا يكاد يلاحظه أحد!

في تلك اللحظة ظهرت امرأة في الغرفة. كانت حسنة القوام لها ردفان رشيقان محشوران في بنطال جينز ضيّق. كان وجهها ملوَّحاً بالشمس متغضِّناً مثل وجوه الهنديات الحمر العجائز اللواتي رأيتهن في السوق في مدينة سانتافي. وكانت واحدة منهن، أكبرهن سناً وأكثرهن هنديّة كما بدت لي، تضع لافتة صغيرة على طاولتها كتب عليها أن اسمها في العمادة هو فينوس. أما فينوس التي هنا فلم تجلس مثلنا. أخرجت من حقيبة يدها علبة سجائر من نوع ستارت. وعندما أشعلت سيجارتها لاحظت أن يديها ترتجفان. انطفأ عود الكبريت قبل أن تفلح في إشعال السيجارة فشتمته فينوس. كان صوتها عميقاً أجش مثل أصوات من يكثرون الشراب. وكانت نبرات صوتها ملائمة تماماً لمظهرها العام. يمكن للسيدات الممثّلات في

أهم المسارح ممن يطلب منهن في أحيان كثيرة أن يلعبن دور امرأة من عامة الناس أن يتعلمن دروساً منها.

بعد ذلك جاء عدد من الكهول الذين ليس فيهم ما يميزهم. وفي خلفية الغرفة راح رجل قصير ممتلئ ذكي الملامح يغيّر ملابسه ليرتدي ملابس العمل. كانت له خزانته أيضاً مثلما يملك الأحمق الجالس إلى جانبي خزانة خاصة به. وقد أخرج من تلك الخزانة أوفيرولاً كاكي اللون.

عند السادسة تماماً دخلت الغرفة الموظفة التي في المكتب وقرأت أسماء الأشخاص المكلَّفين بتنظيف ذلك القطاع من المدينة في ذلك اليوم. قرأَتْ في البداية أسماء المكلَّفين بوضع اللافتات من أجل السيارات وبعدها قرأت أسماء ثلاثة أشخاص كان عليهم إفراغ سلال المهملات العامة في الشوارع. وفي النهاية أعطت الرجل الممتلئ صاحب الأوفيرول ورقة وقالت إن الأشخاص التالية أسماؤهم هم من يكنسون الشوارع: زولوفا وبينز ورادا وشتيش، وأخيراً قرأت اسمي. وفي الوقت نفسه ناولتني سترة برتقالية مما يرتديه الكناسون. أخذت السترة وأسرعت فدرت من خلف الطاولة واخترت الخزانة القريبة من الزاوية. فتحت باب الخزانة الذي كانت عليه كلمات غير مفهومة مكتوبة بالطباشير ثم أخرجت هويتي وكعكاتي وكتابي ودفتري من الحقيبة فوضعتها كلها في جيوبي وأغلقت الخزانة من جديد.

خرجنا جميعاً إلى الباحة الكئيبة فرأيت فيها عدداً من سيارات جمع القمامة صاخبة الضجيج. كان شابان يضعان في سيارة نقل صغيرة عدداً من المكانس والمجارف والعربات ذات الدولاب الواحد واللافتات المرورية وسلال القمامة العتيقة. لم تتجاوز الساعة السادسة والربع صباحاً لكنني أحسّ منذ الآن بثقل ذلك اليوم الذي لا يزال طويلاً.

سار صاحب الأوفيرول، الذي من الواضح أنه صار رئيس مجموعتنا،

إلى البوابة فتقدَّمَ خلفه أربعة أشخاص من مجموعة الكناسين كانت من بينهم تلك المرأة الوحيدة. وتقدم بعدهم شاب صغير له وجه أنثوي شاحب يحمل على كتفيه حقيبة كبيرة تشبه ما يحمله سعاة البريد. وكذلك تقدَّمَ الرجل الذي ذكَّرني بطبيب الأذن والأنف والحنجرة. ثم جاء الرجل صاحب قبعة القبطان. بدا هؤلاء الناس لي غرباء مثلما بدا لي غريباً العمل الذي كنت ذاهباً إليه. لكنني سرت معهم، مثلما ساروا، سرت بخطى متباطئة كما يسير الناس في الجنازات. سرنا بستراتنا البرتقالية في شوارع مدينة نوزل. لم تكن خطواتنا مستعجلة وسط الناس المسرعين إلى أعمالهم. لا حاجة إلى السرعة الآن، فقد بدأنا عملنا بالفعل!

ما كنت أجد نفسي في هذه الحالة العقلية إلا نادراً. لقد ألفت الاستعجال طيلة حياتي كلها، وكان يسكنني دائماً هاجس ما ينبغي لي إنجازه إذا أردت أن أكون كاتباً جيداً. أردت منذ طفولتي أن أكون كاتباً، بدت لي تلك المهنة شيئاً استثنائياً. كنت أظن أن على الكاتب أن يكون في حكمة الأنبياء وفي نقاوة القديسين وندرتهم، وأن يكون شجاعاً لا يعرف الخوف تماماً مثل لاعب السيرك الذي يطير قافزاً بين الحبال. ومع أنني أعرف الآن أن لا وجود للمهن المختارة، وأن ما قد يبدو حكمة ونقاء وشجاعة ورباطة جأش وخصائص استثنائية في شخص من الأشخاص قد يبدو ضرباً من الغرابة أو الجنون أو البلادة عند شخص آخر، رغم ذلك، ما زالت تلك الفكرة القديمة مطبوعة من دون إرادة مني في عقلي الواعي وفي اللاوعي، لعل هذا ما يجعلني أخاف من استخدام كلمة «كاتب» في الإشارة إلى نفسي. إنني أحاول التملص من الإجابة عندما يسألني أحد عن عملي. ثم، من عساه يجرؤ على القول إنه كاتب؟ ليس للمرء في أحسن الأحوال إلا أن يقول: لقد كتبت بعض الكتب! يبدو لي بين حين وآخر أنني غير قادر على التحديد الواضح لموضوع عملي، ولا الشيء الذي يميز الأدب الحقيقي

عن مجرد الكتابة، الكتابة التي يستطيعها أي إنسان حتى إذا لم يذهب يوماً ما إلى المدرسة لتعلم القراءة والكتابة.

أما الآن فإنني قادر على الاستمتاع بذلك السَّيْر المتمهِّل، على الاستمتاع بالمعرفة المريحة بأنني أدرك تماماً ما هو متوقع مني في هذا العمل. تجاوزنا مبنى اللجنة الوطنية والمحكمة العليا ووصلنا إلى صالة سوكول الرياضية حيث كانت معداتنا في انتظارنا: مكانس ومجارف وعربة واحدة كان هيكلها على هيئة نصف برميل قمامة. أمسكت بالمجرفة الأكبر حجماً حتى أُظْهِر للآخرين حُسْنَ نيتي.

عشت في طفولتي في ضواحي براغ غير بعيد عن مطار كبيلي في بيت مجاور تماماً لحانة كان أكثر روادها من أصحاب عربات النقل. وفي كل يوم، قبيل الظهيرة، كان كَنَّاس البلدية يصل إلى الحانة. كان يضع عربته في الفسحة التي وضع فيها رواد الحانة خيولهم. كان يحمل مجرفته ويجمع روث الخيل وغيره من القمامة بطريقة شبه احتفالية فيضع ذلك كله في العربة ويدفعها حتى يسندها إلى الجدار ثم ينطلق إلى الحانة. أحببت هذا الرجل: كان يعتمر قلنسوة لها قمّة مدبَّبة، لكنها ليست قلنسوة بحار. وكان له شاربان معقوفان إلى الأعلى يذكران المرء بآخر أباطرتنا. كنت أحب مهنته أيضاً وكنت أظن أنها لا بد أن تكون من أهم الأعمال التي يمكن أن يقوم بها أي رجل. وهذا ما جعلني أعتقد بأن كنَّاسي الشوارع يتمتّعون باحترام جميع الناس. لكن الأمر لم يكن هكذا في واقع الأمر. ما كان من ينظفون الشوارع من القمامة أو الجرذان يلقون أي احترام من الناس. قرأت قبل أيام قليلة عن عامل بناء منذ مائتي عام هجرته حبيبته فضربها في كنيسة سان جورج بالسوط على وجهها وفمها وكتفيها حتى ماتت فاعتُقل ثم جيء به إلى ساحة الإعدام لكنه نال عفواً وحُكم عليه بأن ينظف شوارع براغ ثلاث سنوات بدلاً من إعدامه. القاعدة هي أن الاحترام لا يناله إلا من

ينظفون العالم من القمامة البشرية: الشرطة والقضاة والمحققون.

منذ عشرين عاماً، عندما كتبت قصة قصيرة عن ذبح الخيول اخترعت مشهداً بانورامياً يصف حرق جثثها. حاولت الذهاب إلى محرقة براغ التي كنت أشاهد دخانها من بعيد عندما كنت صبياً، المحرقة التي تحيل كل شيء إلى كومة عملاقة من رماد. لكن المدير رفض السماح لي بالدخول. لعله خشي أن أكون قد جئته باحثاً عن خلل أو تقصير في عمل محرقته.

بعد سنوات كثيرة، عندما كنت عامل تنظيف في مستشفى كيرك، كان عليَّ أن أنقل القمامة إلى فرن كبير كل صباح: ضمادات مشبعة بالدم، وقطع من الشاش كلها شعر وقيح، وخرق قذرة تفوح منها رائحة البراز، وكذلك كميات من الأوراق والعلب الفارغة وقطع البلاستيك والزجاج المكسور. كنت ألقي بهذا كله في الفرن ثم أراقب مرتاحاً تلك القمامة تتلوى في النار كما لو أنها تتعذب، أراقب ذوبانها وسط اللهيب المستعر وأصغي إلى فرقعة الزجاج وانفجاره وإلى زئير النار المنتصر. وذات مرة، لم أعرف سبب ذلك أبداً، لعل النار كانت أشد مما يجب، أو لعلها كانت أقل مما يجب، أو لعل الريح هي السبب، لم تحترق القمامة بل سحبها تيار الهواء إلى أعلى المدخنة قاذفاً بها إلى السماء. رحت، بمزيج من الخوف والعجب أنظر إلى تلك القمامة كلها، الخرق والأوراق والضمادات المشبعة بالدم، تهبط إلى الأرض رويداً رويداً وتعلق في أغصان الأشجار أو تتهادى في الهواء فتدخل نوافذ أجنحة المستشفى المفتوحة. وفي تلك اللحظة خرج الحمقى الأغبياء العاملون في مؤسسة الخدمات الاجتماعية والمسؤولون عن نظافة أرض المستشفى، مندفعين صائحين فرحاً يشيرون إلى شجرة البتولا الفضية التي تدلت منها تلك الخرق مثل زينة شجرة عيد الميلاد.

خطر لي أن ما حدث في تلك اللحظة ما كان غير تمثيل واضح لما يحدث كل يوم: لا تفنى المادة أبداً. يمكن أن يتغيّر شكلها فقطَ. إن القَمامة

خالدة، وهي تغزو الهواء وتطفو في المياه وتنحلّ وتتعفّن وتتفكّك وتتحوّل إلى غاز أو دخان أو هباب. إنها ترتحل في العالم كله وتبتلعه تدريجياً.

بدأنا من شارع لومنيكيهو. كانت فينوسنا، اتضح أن اسمها زولوفا، تحمل مكنسة. وكان الرجل ذو قبعة القبطان يساعدها بمكنسة ثانية وهو يمضغ شيئاً بصمت معظم الوقت ويبصق بلغماً مزبداً مرة بعد مرة. كانا يكنسان الأوساخ إلى مجرفتي فأضعها في برميل القمامة على عربتنا. وعندما يمتلئ البرميل كنا نقلبه فنفرغ كل ما فيه على الرصيف، القمامة كلها في كومة واحدة، حتى تأتي سيارة القمامة في ما بعد فتأخذها. وهكذا كانت تلك الكومات من القمامة علامات على تقدمنا البطيء صوب فيشراد.

نظرت إلى أوراق الأشجار فرأيتها تلوّح لي من بعيد رغم أن أحداً ما كان ينتظرني تحتها، رغم أنها لم تعد تنتظرني بعد الآن. إنني لا أفكر فيها إلا باستخدام الضمير «هي»، إنني لا أطلق عليها اسماً في أكثر الأحيان. إن الأسماء تبلى مثلما تبلى الكلمات الرقيقة. كنت أدعوها في ذهني أحياناً باسم العرّافة لأنها تخبر الناس بمستقبلهم ولأنها كانت تبدو لي عارفة بما تقول. ثم إنها كانت محاطة بالغموض، وهذا ما يجعلها أكثر جمالاً. عندما عمّدوها أطلقوا عليها اسم داريا.

لا أستطيع أن أتذكر إن كنا هنا معاً ذات مرة. لقد اختلطت لقاءاتنا وذابت بعد هذه السنوات، وتكوّمت السنوات، مثلما تقول تلك الأغنية عن عامل المزرعة. لقد كان لقاؤنا نتيجة زيارة قمت بها لصديق لي كان يعيش في بيت متنقل. كان يدرس ليصير مساعد جيولوجي. أثارت اهتمامي منحوتة صغيرة كان فيها ما يميزها تماماً عن طابع التقشف الشديد في ذلك البيت المتنقل. قال لي صديقي الذي كان يكتب متابعات فنية قبل فترة قصيرة إن صاحبتها فنانة يقوم عالمها على الأحلام والأطياف والعاطفة والرقة. وقد أكد لي أن من شأن زيارة إلى محترفها أن تكون تجربة عميقة فسجلت

عنوانها عندي. وقد تذكرت ذلك العنوان ذات يوم عندما كنت أبحث عن هدية لزوجتي في عيد ميلادها.

كان محترفها في قبو متواضع الحجم تحت الأرض في منطقة «المدينة الصغيرة» في براغ. وكانت أرفف خشبية تحمل أعمالها وتشغل ثلث الغرفة تقريباً.

استقبلتني استقبالاً مهذباً، وتحدثنا بعض الوقت، بل حدثتني أيضاً عن ابنتها الصغيرة وسألتني عن عمل زوجتي. لكنني أظن بأن اهتمامها كان نابعاً من أنني جئت إليها بصفة زبون يمكن أن يشتري أحد أعمالها.

كانت تتحرك رشيقة بين الأرفف. ومع مشيها كانت تحرك تلك الأعين والشفاه التي على تنورتها الطويلة، أعين بنية وشفاه حمر لامعة. أما عيناها فكانتا زرقاوين، وكانت شفتاها شاحبتين قليلاً. ماذا يحدث إذا عانقتها وسط أرففها؟ كنت أعرف أنني لن أفعل هذا.

اشتريت من عندها طائراً له رقبة رشيقة استقر فوقها رأس صغير حاد الحواف فيه عينان صغيرتان خبيثتان بشريتان. لقد لفّت الطائر بالورق ثم رافقتني حتى الباب. وبعد ذلك لم ير أحدنا الآخر طيلة أشهر كثيرة. لكنها دقّت بابنا على نحو غير متوقع عشية يوم ميلادي السابع والأربعين: كانت تريد استعارة منحوتتها الصغيرة من أجل معرض سوف يقام في بودابست. دعوتها إلى الدخول وقدَّمتها إلى زوجتي التي كانت سعيدة بمعرفتها. جلسنا نحن الثلاثة في مكتبي. كانت ليدا تحب إسعاد الناس فتحدثت عن مدى محبتها لتلك المنحوتة الصغيرة التي عندنا.

شربنا النبيذ، شربنا أنا وزوجتي من باب التأدب. تحدثت داريا عن معرضها المقبل ثم تحدثت عن أسفارها. حدثتنا عن كمبوديا التي زارتها ذات مرة. تحدثت عن ذلك البلد كأنه جنة عدن ليس فيها إلا بشر بسطاء

بريثون. وهذا ما سحر زوجتي الشغوفة بتحرير الناس من إحساسهم بالذنب. ثم انتقل الحديث إلى ثقافتنا القائمة على معرفة الخطيئة وبالتالي على معرفة الإحساس الميتافيزيقي بالذنب. أشارت داريا إلى أن الاعتقاد بالخطيئة هو لعنتنا لأنه يحرمنا من الحرية ويقف حاجزاً بين الشخص وغيره، وبين الناس والله. أبدت زوجتي بعض الاعتراض. كانت ترى أن لا بد من تقييد الحرية بنوع من القانون الداخلي. لكن الحديث تحول بعد ذلك إلى الأطفال وتنشئتهم. أما أنا فكان تركيزي على ما يقال من كلام يتضاءل شيئاً فشيئاً، صرت أصغي إلى شيء مختلف: صوت غير منطوق صادر عن تلك المرأة. بدا لي أنه يخاطبني متوقعاً أن أسمعه وأن أفهمه.

بدأت ظلال المساء تزحف إلى الغرفة وأحسست بأن ما بقي من ضوء النهار صار مركزاً كله على جبهتها المرتفعة التي، يا للغرابة، كانت شبيهة بجبهة زوجتي. لكن الأمر الغريب هو أن ذلك الضوء لم يمت مع تلاشي ضوء النهار. بدا لي منبعثاً منها، من شعلة لا شك في أنها تتقد داخلها. أحسست بأن تلك الشعلة تمتد صوبي فتحيطني بأنفاسها الحارة.

ظللت ضمن تلك الهالة بعد مغادرتها. قالت ليدا إن النحاتة امرأة مثيرة للاهتمام، وإن علينا أن ندعوها لزيارتنا مرة أخرى، ربما مع زوجها! لكنني لم أرحِّب بتلك الفكرة إما بسبب الخوف أو بسبب توجّسي من مؤامرة محتملة فانعطفت بالحديث إلى موضوع آخر. ذهبت زوجتي إلى غرفتها أما أنا فحاولت إنجاز بعض العمل، لكن عبثاً! وهكذا فتحت المذياع الذي كان يبث موسيقى أرغن باروكية لكن الموسيقى لم تفلح في تهدئتي، ما كنت قادراً على الإصغاء إليها حقاً. كنت أسمع بدلاً من الموسيقى نتفاً من جمل غير مترابطة: ملأتني صلاة غريبة الصوت مثلما يملأ دفء الحمام الحار جسد الإنسان. كيف كان ذلك الصوت حقاً؟ رحت أفتش عن كلمة مناسبة لوصفه. لم يكن صوتاً رناناً ولا حلواً ولا منغَّماً، كما لم يكن ملوَّناً،

ولا كان من تلك الأصوات التي تقتحم سمع المرء اقتحاماً. لا أستطيع تحديد ما سحرني في ذلك الصوت!

في تلك الليلة، عندما احتضنت زوجتي التي كانت هادئة متأنية في ممارسة الحب بطيئةً مثل نهر يجري في سهل وقت الصيف، سمعت ذلك الصوت نفسه من جديد وعرفت فجأة الكلمة المناسبة لوصفه: إنه صوتٌ عاطفي. حاولت التخلّص من تأثيره في تلك اللحظة التي لا محل له فيها، لكنني فشلت!

انعطفنا عند الزاوية ورحنا نتحرك مبتعدين عن فيشراد. ما زلت أستخدم مجرفتي لوضع الأوراق والأكواب البلاستيك وعلب الثقاب المهشّمة في العربة. وجدت أيضاً رأس دمية وحذاء تنس مهترئاً وأنبوباً فارغاً ورسالة لطختها الأوساخ، إضافة إلى أعقاب السجائر التي كانت أكثر الأشياء الملقاة على الأرض عدداً. كنت ألقي بهذه القمامة كلها في البرميل الذي على العربة. وعندما يمتلئ إلى حافته كنت أمسكه مع القبطان ثم نقلبه فوق الرصيف حيث تأتي الريح التي اشتدت في ذلك الوقت فتبعثر الأوساخ من جديد. لكن هذا ما كان مهماً في حقيقة الأمر: إن القمامة عصية على الفناء على أي حال.

إن القمامة مثل الموت، فما الذي يمكن أن يكون عصياً على الفناء أكثر من الموت؟ كان لدى جيراننا أصحاب الحانة خمسة أطفال. كان اسم أصغر الصبيان مثل اسمي، وكان في مثل سني تقريباً. كنا نلعب معاً وقد سمحت لي مصاحبته بالنفاذ إلى الأجزاء الخفية في الحانة، إلى القبو مثلاً حيث كانوا يخزنون كتلاً كبيرة من الجليد تظل هناك حتى في ذروة الصيف. وكانت في القبو براميل البيرة الضخمة، أو لعلها كانت تبدو ضخمة في نظري. كنا نذهب إلى الإسطبل أيضاً حيث ما زالت جدرانه ناضحة برائحة بول الخيل رغم أن سيارة سوداء من نوع براغا حلت

محلها، وحيث استوطن عدد كبير من القطط متفاوتة الأعمار والألوان فاتخذت المكان بيتاً لها.

مرض الصبي بالدفتيريا ومات بعد أسبوع. ما كنت أفهم معنى الموت في سن الخامسة. ولم يأخذني أهلي معهم إلى الجنازة. لم أرَ إلا صاحب الحانة متشحاً بالسواد ومعه زوجته الباكية وبقية المشاركين في الجنازة. سمعت الفرقة النحاسية تعزف لحناً بطيئاً إلى حد لا يصدق.

عندما سألت أمي عن موعد عودة سميّي ترددت لحظة ثم قالت إنه لن يعود لأنه ذهب بعيداً. أردت أن أعرف مكان ذهابه لكن أمي لم تجبني. وعندما استجمعت شجاعتي كلها لأطرح سؤالي على العجوز العاملة في الحانة قالت لي إنه ذهب إلى الجنة طبعاً! إن روحه الصغيرة البريئة تنعم الآن بالبهجة في تلك الحديقة الرائعة بين الزهور وتلعب مع الملائكة. وقالت أيضاً إنني سأراه هناك ذات يوم إن كنت ولداً صالحاً.

لقد نشأت في بيئة لم أسمع فيها صلاةً، ولو مرة واحدة. وكانت الحديقة الوحيدة التي أعرفها هي الحديقة المقابلة لنافذتنا. لم يكن في تلك الحديقة ملائكة لكن القطارات كانت تمر مزمجرة خلف سياجها.

أردت أن أعرف المزيد عن تلك الحديقة في الجنة وعن الأرواح المقيمة فيها، لكن والدتي تهرَّبت من أسئلتي وطلبت مني أن أسأل والدي.

أما والدي الذي كان رجلاً عاقلاً، وكنت أعرف أنه شارك في تصميم محركات تلك القطارات السريعة التي تمر من أمام نافذتنا وكذلك محركات الطائرات التي ترعد فوق رؤوسنا، وكان يتمتع باحترام الناس بسبب ذلك، فقد أدهشه سؤالي. أمسك بيدي وخرج بي من المنزل ثم تحدث معي زمناً طويلاً. حدثني عن أصل العالم، عن تلك الغازات الحارة والمادة التي تبرّدت وعن الذرات الصغيرة غير المرئية التي تدور حول أنفسها في

كل مكان وفي كل شيء. إنها تشكل أكوام التراب وتشكل حجارة ذلك الممر الذي نسير فيه، وتشكل أيضاً أرجلنا التي تحملنا. كنا آنذاك نسير مع سكة القطار عبر غابة الضواحي ذات الأشجار المتفرقة صاعدين في اتجاه المطار. كانت القطارات تمر تحتنا الآن، وكانت طائرات عسكرية من ذات الجناحين تزمجر فوق رؤوسنا. قال لي والدي أيضاً إن الناس عانوا دائماً من ذلك القيد الذي يربطهم إلى الأرض ومن عدم قدرتهم على الانفكاك عنها. لكنهم كانوا يحلمون بمغادرتها فاخترعوا الجنة التي فيها كل ما يتوقون إليه ولا ينالونه في الحياة. وحلموا أيضاً بكائنات تشبههم لكن لها أجنحة. لكن أحلام الماضي تتحقق الآن كما قال أبي مشيراً إلى السماء. لا وجود للملائكة، لكن البشر يطيرون الآن. لا جنة تذهب إليها أرواح البشر، لكنني سأفهم يوماً أن من الأهم بالنسبة للناس أن يعيشوا عيشة هانئة سعيدة هنا على الأرض.

صحيح أنني لم أفهم جيداً ما كان أبي يشرحه لي لكن حزناً لا تفسير له في كلماته جعلني أبكي. وحتى يسعدني أبي وعدني بأن يأخذني إلى المطار يوم الأحد المقبل فيجعلني أطير فوق براغ.

عندما جاء ذلك الأحد وضعني أبي فعلاً في طائرة يزأر محركها. راحت الطائرة تدرج متقافزة على العشب ثم اندفعت مرتفعة في الجو وهي تحملني ففاجأتني وأخافتني. ومع تزايد ارتفاعها بدأت أرى الأرض تميل من تحتي وراح كل شيء عليها يصغر ثم يصغر حتى يختفي في النهاية. اختفى الأشخاص في البداية ثم اختفت السيارات والعربات التي تجرّها الخيول، ثم اختفت البيوت أيضاً. أغمضت عينيّ ووجدت نفسي في ظلمة صاخبة ابتلعتني. أفزعتني فكرة أنني لن أعود إلى الأرض من جديد مثلما فعل صاحبي الذي يحمل اسماً مثل اسمي، سميّي الذي قالوا إنه مات.

لم يحدث شيء في تلك المرة. ذهبت داريا وعدت إلى عملي. كنت

أكتب بعض القصص عن تجارب حب عشتها في صباي فغمرتني ذكريات إثارة جاءت من الماضي البعيد. وعندما التفتّ إلى زاوية معتمة في مكتبي، إلى ذلك الكرسي الذي كانت جالسة عليه، أحسست بأن تلك الإثارة القديمة عادت فتجسَّدت من جديد.

خرجت متجهاً إلى كشك الهاتف لأن هاتف منزلي كان معطلاً. طلبت رقمها. ما زلت أحس بتلك الإثارة التي لا تناسب سني إلا إذا استطعنا قبول أن هذه الحالة يمكن أن تكون مناسبة في أي سن. سألتها عن معرض بودابست. ورحت أصغي بعض الوقت إلى كلامها عن اللوحات تارة وعن أقبية الخمور تارة أخرى. ثم قلت لها شيئاً عن عملي وأشرت إلى أنني سررت بزيارتها وأنني سأكون مسروراً برؤيتها مرة أخرى. لكنني لم أقترح شيئاً محدداً. أما هي فاكتفت بابتسامة صامتة رداً على كلماتي. جعلتني تلك المكالمة الهاتفية مضطرباً. وبدلاً من العودة إلى بيتي رحت أسير في الشوارع الصغيرة القريبة مستأنفاً ذلك الحديث في عقلي. صار الحديث شخصياً حساساً على نحو متزايد. لقد فقدت في ما مضى عادة إجراء أحاديث من هذا النوع، أو عادة إجراء الأحاديث كلها. لقد فقدت عادة التحدث مع أي شخص.

إنني أعيش نوعاً غريباً من النفي منذ عشرة سنوات فأنا محاط بالممنوعات والمحظورات، ويراقبني أشخاص مرئيون أحياناً وغير مرئيين أحياناً أخرى، ومتخيلين أحياناً. ما كان دخول الحياة مسموحاً لي إلا بصفة زائر أو ضيف أو بصفة عامل مياوم في بعض الأعمال المُحدَّدة. وعبر تلك السنوات كلها نما في داخلي توق إلى حدوث شيء، شيء يغير حياتي. لكن وجلي الذي ورثته عن أمي راح يتزايد فجعلني أبتعد عن أي تغيير وعن جميع الناس الغرباء. وهكذا صار بيتي ملجأي وقفصي في وقت واحد. كنت أحب البقاء فيه وأحب الهرب منه أيضاً. كنت أحب

يقيني من أن أحداً لن يطردني منه وأحب أيضاً أملي في الهرب منه ذات يوم. تعلّقت بأطفالي، أو لعلّني على الأقل كنت محتاجاً إليهم أكثر مما يكون الآباء محتاجين إلى أطفالهم عادة. وكنت محتاجاً إلى زوجتي على نحو مماثل. كان العالم الخارجي يأتيني عبر هؤلاء الذين هم أقرب الناس وأعزّهم؛ ومن خلالهم نفذت إلى ذلك العالم الذي كنت منفيّاً عنه.

لا أظن أن حياة أي منهم كانت أسهل من حياتي. كان أطفالي يحملون وصمة الأصل غير المناسب مثلما حملتها في طفولتي. أما زوجتي فظلت سنوات طويلة تبحث عن عمل، ولو نصف مقبول. وبعد أن أرهقها الوقوف في الدور في الدوائر المكلفة بحماية أماكن العمل من الأشخاص غير المقبولين سياسياً قبلت وظيفة باحثة في أحد الاستطلاعات الاجتماعية. وفي مقابل أجر بعيد كل البعد عن أن يكون شيئاً محفّزاً، بل كان أجراً مهيناً في واقع الأمر، كان عليها التنقل من مكان إلى آخر وإقناع الناس بالإجابة عن أسئلة الاستطلاع على الرغم من تمنّعهم أو خوفهم. لم تكن تتذمر أبداً لكن الإحباط كان يطغى عليها أحياناً. عند ذلك كانت تمطر الأطفال، وتمطرني، باللوم والتقريع بسبب سلوكيات أو أفعال تتغاضى عنها في الأحوال العادية. ما كان عندي عمل أذهب إليه فكنت أجلس إلى طاولتي بعد خروج الجميع في الصباح. وكانت أمامي أكداس من الورق الأبيض وامتداد النهار الذي لا حدود له، وعمق الصمت. ما كان الهاتف قادراً على الرنين. وأما صوت وقع الأقدام الذي يتردد أحياناً في المبنى فكان يجعلني أفكّر حذراً متوفزاً: إن كانت هذه الأقدام آتية إليّ فمن المستبعد أن تكون أقدام زوّار مرحَّب بهم.

كنت أكتب. أكتب طيلة ساعات وأيام وأسابيع. أكتب مسرحيات أعرف أنها لن تقدَّم على المسارح. وأكتب قصصاً أعرف أنها لن تنشر بلغتها التي كتبت بها. كنت أعمل، لكنني كنت في الوقت نفسه أخشى أن يغزوني

الصمت المحيط بي. أن يشلّ مخيلتي ويقتل قصصي. كنت أجلس إلى مكتبي فأحس بثقل السقف من فوقي، بثقل الجدران والأشياء التي يمكن أن تطغى عليَّ لا مبالاتها في أي لحظة.

وهكذا كنت أنتظر عودة زوجتي وأطفالي. وعندما تكسر الصمت خطواتهم على السلم كنت أشعر بالسكينة تعود إلى نفسي من جديد، لا أقصد سكينة الصمت بل سكينة الحياة.

كنت أعرف طبعاً أن أطفالي سيكبرون سريعاً ويتركون البيت. وأدركت أيضاً أن وقع أقدامهم أمر موقت أكثر من كل شيء موقت عندي. كنت أحدِّثهم وأشاركهم مسرّاتهم وأفراحهم لكنني كنت أحسهم ينزلقون بعيداً عني وأعرف أن عليَّ عدم مقاومة تلك الحركة إن كنت لا أريد مقاومة الحياة.

كنت أيضاً أراقب زوجتي في بحثها عن فضاء تتحرك فيه محاولةً الفرار من الرتابة القاتلة في عملها الذي لا بد لها منه وفي محاولةً أن تدرس مستفيدة من الوقت الفائض لديها. لقد قررت زوجتي أن تحاول فهم كنه النفس البشرية، وأن تخترق سرّها أملاً في العثور على سبيل لتخفيف ما فيها من معاناة. أما في نظري فقد بدا هذا المشروع مفرط الجرأة والطموح، كما أنني كنت أرى زوجتي دائماً مثلما كانت عندما لقيتها أول مرة، طفولية كثيراً، وقليلة التجربة في الحياة إلى حد لا يسمح لها أن تضطلع بهذا العمل. لكنني شجعتها: يسير كل امرئ في الاتجاه الذي يسمع منه نداءً يدعوه إليه، أثرٌ من نداء على أقل تقدير!

وقد سرت في اتجاهي الخاص أنا أيضاً. كنت الآن أقل حرصاً على أشياء كانت تجذبني في ما مضى. كفت هذه الأشياء عن إثارتي! حتى وقت غير بعيد كنت أجمع الكتب والخرائط القديمة، أما الآن فقد علاها الغبار كلها. ما عدت أحاول معرفة ما يحدث في أي مكان، ما عدت أحاول اكتشاف وقت تغيّر الظروف التي أستطيع وصفها بأنها غير مؤاتية لي حتى

أعرف إن كانت تتحسن بعض الشيء. كنت أريد معرفة ما إن كان هناك أي شيء خلف تلك الظروف، إن كان هناك أي شيء يمكن أن يرتفع بحياتنا فوق الخواء وانعدام المعنى، لكنني كنت أود اكتشاف ذلك من أجل نفسي. وما كنت لأقبل أي شيء جرى اكتشافه وإعطاؤه شكلاً من جانب آخرين. كنت أريد إنجاز هذا، لا لشدة اعتدادي بنفسي، بل لأنني أدركت أن أهم الأشياء في الحياة غير قابلة للتناقل بين الناس، غير قابلة للتعبير عنها بالكلمات، حتى رغم محاولة من يعتقدون بأنهم استطاعوا معرفتها ونقل ما اكتشفوه إلى الآخرين، ورغم أنني أنا نفسي أحاول أن أفعل مثلهم أيضاً. لكن كل من يرى أنه قد عثر على ما هو دائم حقاً، وأنه يستطيع أن ينقل إلى الآخرين جوهر الله، وأنه اكتشف الإيمان الحق من أجل هؤلاء الآخرين، وأنه فاز أخيراً بنظرةٍ إلى سر الوجود، ليس في الحقيقة إلا واحداً من الحمقى أو الواهمين، بل هو مصدر خطر أيضاً في معظم الأحيان.

قفلت إلى بيتي في ساعة متأخرة، وفور دخولي أحسست بتوتر في جو البيت. كانت ابنتي جالسة إلى الطاولة تحدق في النافذة على نحو متمرد غاضب. وكانت زوجتي تغسل الأطباق بضجيج زائد بعض الشيء. وكانت آلة التسجيل في يد ابني تصدح عالياً بأغانٍ احتجاجية. لم أشعر برغبة في السؤال عن السبب، وسرعان ما أمطرتني ليدا بوابل من الشكاوى التي تتعلّق بالأولاد وقالت إنهم كسالى غير مرتبين ثم طالبتني بفعل شيء في هذا الشأن.

كان واضحاً لي أنني لا يمكن أن أقول شيئاً لم تقله هي لهم بالفعل. وما كنت في مزاج يسمح لي بمحاولة الإصلاح بينهم. مضيت إلى غرفتي وحاولت أن أعمل، لكن المنزل (بل ربما أنا نفسي) كان شديد الامتلاء بضجيج يشتت التركيز.

خطر في بالي أن زمناً طويلاً قد مر عليَّ الآن ما كنت أفعل فيه إلا الانتقال من يوم إلى اليوم الذي يليه، من النهوض من الفراش إلى العودة

إليه في المساء، كنت أبني حبكات ما أكتبه، لكن حبكة حياتي أنا كانت جامدة في مكانها، لم تكن تتحرك أو تتطور، بل شرعت في التفكك أيضاً. لا بد أنني كنت أرغب في التحدث مع أحد في هذا الأمر، لكنني كنت أشعر بالانزعاج عندما نكون وحدنا، وهذا ما كان يخلق عازلاً بيني وبينها على الفور. تساءلت إن كنت قد فعلت شيئاً جرحها، أي شيء! أجابتني أنني أؤذي الأطفال من خلال رفضي تنشئتهم على نحو سليم ومن خلال ضعفي ولا مبالاتي نحوهم. احتججت قائلاً إن كلامها غير منصف. لكنها اندفعت في واحد من مونولوجاتها المؤلفة من الانتقادات والنصائح والتعليمات الصادقة. كانت تلقي بذلك كله فوقي وفوق الأطفال من وقت لآخر. وسواء كان ما تقوله مبرراً أو غير مبرر، فقد كان يأتي دائماً في لحظة يكون فيها من تخاطبه بهذه الأشياء رافضاً الإصغاء، أو يكون في حاجة هو نفسه إلى الحديث إلى من يصغي إليه.

قاربت الساعة التاسعة. وكان موكبنا البرتقالي يسير في شارع سينكولوفا متجهاً صوب خزان المياه المرتفع. كان الشارع مرصوفاً بالحجارة، وقد نبتت في الشقوق عند حافة الرصيف الهندباء البرية ولسان الحمل وأنواع كثيرة من الأعشاب. وكان الشاب ذو الوجه الطفولي يقتلع هذه النباتات بيده أو بمجرفته. ظل وجهه محافظاً على شحوبه المرضي حتى عند انحنائه نحو الأرض.

رأيت عدة سيارات واقفة تحت أشجار الرصيف. توقفت مجموعتنا قرب حطام سيارة فولغا عتيقة. رفع رئيسنا غطاء المحرك وأعلن بصوت راض أن أحداً قد أزال مشع التبريد من السيارة.

السيارات قمامة أيضاً!، مجموعة كبيرة من النفايات، وفي كل خطوة نصادف واحدة منها.

عندما ذهبت قبل خمس عشرة سنة لرؤية الممثلة الأولى في إحدى

مسرحياتي في مكان غير بعيد عن ديترويت، دعاني رئيس شركة فورد إلى الغداء. وأثناء جلوسنا في شرفته في الطابق الأخير من البناء، أو على سطح ناطحة السحاب المدعوة باسم فورد إن شئت مزيداً من الدقة، انبسط أمامنا مشهد المدينة الهائلة المخيفة التي تسرح في شوارعها أعداد لا تنتهي من السيارات. وبدلاً من سؤاله عن أحدث طرازات السيارات لديهم (سؤال لعله كان يسعد أبي) وددت أن أعرف كيف يزيل كل تلك السيارات من العالم عندما تصل إلى نهاية أعمارها. أجابني الرجل أن هذه ليست مشكلة. كل ما هو مُصنَّع يمكن أن يختفي من غير أثر، إنها مشكلة تقنية لا أكثر! ابتسم الرجل لفكرة عالم فارغ نظيف تماماً. وبعد الغداء أعارني رئيس الشركة سيارته مع سائقها فأخذتني إلى حافة المدينة حيث يقبع عدد لا حصر له من السيارات المحطمة الصدئة على مساحة شاسعة من الأرض. كان زنوج بملابس فاقعة الألوان يستخرجون أحشاء تلك السيارات بأدوات ضخمة، كانوا يجردونها من إطاراتها وزجاجها ومقاعدها. ثم يدفعون بها إلى مكابس ضخمة تحولها إلى ما يشبه صناديق معدنية ذات أبعاد يسهل التعامل معها. لكن تلك الصناديق المعدنية لم تكن تختفي من العالم مثلما لم يكن زجاج السيارات وإطاراتها وزيتها يختفي أيضاً حتى إن حُرقت هذه الأشياء كلها في المحارق، ولم تكن أنهار البترول المستخدمة من أجل كل رحلات السيارات اللازمة وغير اللازمة لتختفي أيضاً. لعلهم كانوا يذيبون تلك الصناديق المعدنية المضغوطة لصنع فولاذ وحديد جديدين من أجل سيارات جديدة! هكذا تتحول القمامة إلى قمامة جديدة، ويزداد مقدارها بعض الشيء. لو قيض لي أن ألقى ذلك الرئيس الواثق من نفسه مرة أخرى لقلت له: لا، ليس الأمر مشكلة تقنية فحسب! هذا لأن روح الأشياء الميتة تعلو فوق الأرض وفوق المياه، وتنذر أنفاسها بشرٍّ مستطير.

أثناء الحرب كانت القذارة تهبط فوقنا: كانت تجتاحنا حرفياً وعلى نحو

مجازي مثلما يفعل الموت؛ وكان من الصعب التفريق بين الاثنين أحياناً. من المؤكد أنهما اختلطا في ذهن والدتي، الموت والقمامة. كانت مؤمنة بأن الحياة على صلة لا تنفصم بالتنظيف: حرفياً، وعلى نحو مجازي أيضاً!

انتهت الحرب وكنا نتطلع إلى عيشة الحب والسلام، لكن أمي كانت تصارع من أجل النظافة. كانت تريد أن تعرف أفكارنا، وكان الخوف يملأها بسبب أحذيتنا وأيدينا وكلماتنا. كانت تفتش مكتبتنا لتنزع منها كتباً قد تجعل عقولنا غير نظيفة. اشترت قِدْراً كبيرة لتغلي فيها ملابسنا الداخلية كل يوم. لكنها، رغم ذلك كله، كانت تشعر بأننا متمردون عليها فكانت تجعلنا نعود لغسل أيدينا مجدداً من غير نهاية. لم تكن تلمس أشياء الآخرين أو مقابض الأبواب إلا عندما تضع قفازات في يديها.

كنت أسمع صوت زفيرها وتَحَسّرها في بعض الليالي. كانت تعيش حزناً وحداداً على أقربائها الذين فقدتهم في الحرب، لكنها كانت تتحسّر بالتأكيد على قذارة العالم الذي لا بد لها من العيش فيه! وهكذا كانت السيادة للنظافة والوحدة في بيتنا. ما كان أبي يأتي إلى البيت إلا نادراً فقد وجد لنفسه وظيفة في بلزن حيث يستطيع التنفس بحرية أكبر. وعندما كان يعود أيام الآحاد كان يسير إلى مكتبه عاري القدمين فوق ممر من أوراق الجرائد. لكن لحظة اجتيازه الصالة كانت كافية وحدها لملء الجو برائحة تتعرف والدتي فيها على أثر لقذارة غير معروفة. عبثاً كان والدي يحاول غسل تلك القذارة عنه، وعبثاً كانت تذهب محاولاته لتغطية السجادة بصفحات جرائد جديدة.

كنت على استعداد تام لاحتمال عدم عودة أبي ذات يوم، لاحتمال بقائه مع تلك المرأة الغريبة سيئة الرائحة! وما كنت لألومه على ذلك أبداً. لكنه كان يعود من جديد كل نهاية أسبوع، بل كان يحثني أحياناً على عدم إطلاق الأحكام على والدتي: إنها امرأة صالحة، لكنها مريضة فقط! ليس لدى كل

إنسان قدرة على الخروج من غير أثر في نفسه بعد كل ما مررنا به!

ثم حبسوا والدي من جديد! وأدى الألم الذي ألحقه الآخرون بأمي إلى إشغالها عن الألم الذي تلحقه هي بنفسها، جزئياً على الأقل!

تجاوزتنا شاحنة تابعة لخدمات الصرف الصحي وتوقفت على مسافة قريبة أمامنا. تبادل ركابها التحيات مع رئيسنا وراحوا يفحصون فتحة التصريف القريبة.

سألت السيدة فينوس: «عن أي شيء يبحثون؟».

أجابت موضحة: «إنهم يتأكدون فقط من أن المجاري غير مسدودة. ليس مسموحاً لنا إسقاط أي شيء في المجاري. في ذات يوم قام جاردا هذا»، وأشارت إلى الشاب ذي الوجه النسائي الطفولي، «برمي بعض الزهور في المجاري وتصادف في تلك اللحظة مرور مفتشهم بسيارته فأصر على تغريمه خمسين كروناً في المركز. إنهم يأتون للتفتيش دائماً مثلما تفعل الكلاب صائدة الجرذان».

انضم رئيس المجموعة إلى حديثنا: «لا تحدثوني عن الكلاب صائدة الجرذان! في بلزن، تحت المسلخ، جُنّت الجرذان وخرجت من فتحات الصرف في الشارع أثناء الليل وراحت تجري في الشوارع مثل السناجب. بدأت السلطات تبحث يائسة عن صائد جرذان. كانوا مستعدين لأن يدفعوا له عشرين ألفاً في الشهر! لكن أحداً لم يتقدم لهذا العمل فقد كان من الواضح أن عضة واحدة من جرذ مسعور تعني النهاية. كان لي صديق في بلزن، صديق من أيام الوحدات شبه العسكرية. وقد انزعج من الأمر فقال: لن أسمح لبضعة جرذان بإخافتي! أتى هذا الرجل ببدلة غوص وبقطعة كبيرة من مطاط الأسبستوس حتى يلقيها فوق جسمه إن هاجمته الجرذان».

قلت مندهشاً: «أيمكنْ أن تهاجمه؟».

«بالتأكيد! قلت لك إنها كانت مسعورة. عندما تمضي لمطاردتها فتفر أمامك ثم تشعر أن لا مهرب لديها فإنها تستدير وتهاجمك. إذا حدث هذا فعليك أن تنبطح أرضاً وأن تلقي بالنسيج المطاطي فوقك لتغطي جسمك به، وعند ذلك تجري الجرذان من فوقك. هذا ما فعله صديقي. لا يمكن أن يصيبه شيء طالما بقي تحت النسيج المطاطي. لكنه تبوّل في ثيابه عندما راحت الجرذان تجري فوقه».

بعد أيام قليلة أرسلت لي بطاقة تقول إنها سوف تأتي لتراني. وحدّدت اليوم والساعة قائلة إنها تأمل أن تجدني. جاءت في موعدها. كانت غيوم الخريف تبدو من النافذة، وكان في الغرفة ما يشبه الغسق. ما كنت أدري إن كان ألق مماثل يشع مني أنا أيضاً! لا يرى المرء أبداً ألقه الذي تراه عيون الآخر، أو لعله لا يراه إلا في لحظاتٍ مباركةٍ خاصة. لكن لعلها رأت شيئاً وإلا لما رغبت في رؤيتي من جديد. لم تكن لتذهب طوعاً في هذا الحج الذي زعمت في ما بعد، في لحظات غضب، أنه لم يجلب لها غير الألم. أحار أنا نفسي أحياناً كيف أنها اقتربت مني إلى هذا الحد!

خلال الأسابيع القليلة الأولى كنا نتمشى في المناطق الريفية وفي الغابات والحدائق. كانت تعرف أسماء النباتات، حتى الغريبة منها. وكانت تعرف الأماكن التي أتت منها. قادتني عبر تلك الأماكن كما لو أنها تقودني في أرض الخمير الكمبوديين، وكما لو أنها تقودني على امتداد نهر الغانج الجليل، وخلال الحشود في الشوارع المزدحمة. بل قادتني أيضاً عبر الأدغال وصوامع النسّاك لأصبح قادراً على الإصغاء إلى ما يقوله شيخ حكيم عن الطريقة الصحيحة في الحياة. حدثتني عن أسرتها التي كان فيها صناعيون ومدرِّسون من جماعة الإحياء القومي. كانت أسرة من الجوالة الذين استقروا على سفوح جبال الأنديز الغربية. وحدثتني عن عمتها الرومانسية التي قررت تجويع نفسها حتى الموت عندما فشلت في الإبقاء

على حبيب صَبَت نفسها إليه. وكان في تلك الأسرة أيضاً طالبُ حقوق موهوب كان قادراً على حفظ كتب القانون كلها لكنه ملَّ القانون فانعطف إلى الفلسفة. وعندما توصل إلى إثبات عقم المغامرة البشرية إثباتاً لا يدحض عكف على كتابة رسالته الفلسفية التي تمثّلت خلاصتها في أن السعادة ليست إلا حلماً وفي أن الحياة ليست إلا سلسلة من المعاناة، ثم أطلق النار على رأسه فوق تلك الرسالة الفلسفية فوضعت نقاط الدم المتقطرة من جرحه عدداً من النقاط الختامية عند آخر النص.

كان كل واحد من أقاربها من ناحية أبيها، كما شرحت لي، يملك لمسة من عبقرية وإرادة لا تنثني ووضوح بصيرة، وكان والدها أبرزهم في ذلك كله. كثيراً ما حدثتني عنه، ومع أنني لم أره قط فقد ذكّرني بوالدي أنا، لا لأنه كان مهندساً مثله فحسب، بل لأنه ما كان يعرف سعادة أكثر من تلك التي يجدها في عمله وفي حساباته التي لا يجوز لأحد أن يزعجه أثناء إجرائها. وقد ذكّرني بوالدي أيضاً لأنه كان قوياً موفور الصحة قادراً على البهجة عندما يقرر تنحية عمله جانباً.

وددت لو أستطيع أن أقص عليها شيئاً مماثلاً عن أسلافي، لكنني ما كنت أعرف قصصهم! أعرف أن بعضهم جاء من أماكن بعيدة، لكنني ما كنت أعرف إن كان ذلك قبل مائتي عام أو قبل ألف عام مضت. أعتقد بأنهم كانوا يعرفون القراءة، حتى في ذلك الوقت، وأنهم كانوا يتلون صلواتهم بلغة لا أعرف الآن كلمة منها. ما كنت أعرف أعمالهم التي يكسبون منها عيشهم. جاءت جدتاي كلتاهما إلى براغ وحاولتا ممارسة التجارة فيها، لكنهما فشلتا. جاء جداي من الريف أيضاً. لقد درس والد أبي الكيمياء وعمل مهندساً في مصنع لتكرير السكر في الجزء الهنغاري من المملكة. وعندما كان أبي في الحادية عشرة من عمره سقطت على جدي عارضة يجرُّها حبل فأصابته جروح قاتلة. أما والد أمي فقد بلغ من العمر عتياً: كان

كاتباً في محكمة. وصادفته الحرب العالمية الثانية في سن الثمانين فمنحته نجمة صفراء وسَوْقاً إجبارياً إلى أحد المعازل. لكنني ما كنت قادراً على رواية أي شيء مهم حتى عن هذا الرجل العجوز بشاربه الرمادي المبقع قليلاً من أثر التبغ اللهم إلا أنه كان، مثل أسلافه، صاحب إيمان عنيد بعودة المسيح. لكن هذا كان يعني عنده سراب الثورة الاشتراكية. لقد ساعده هذا السراب على العيش رغم ضربات القدر ورغم وفاة زوجته وخسارة بيته، رغم ما أصابه من إذلال وجوع ومشقة في سجنه. كثيراً ما كان يلقي المواعظ على من يرضى أن يستمع إليه، وكان أكثر ذلك في السجن. وكثيراً ما كنت المستمع الوحيد الباقي لديه. كان يحثني أيضاً على عدم الإيمان بإله اخترعه البشر، بإله خدع السادة الفقراء به حتى يصيروا أكثر قبولاً لتحمّل أقدارهم. ومع تقدمه في السن صارت أقاصيصه مثل صلاة لا تتغير وصرت أعرفها عن ظهر قلب من غير حاجة إلى الإصغاء. وعندما، استيقظت ذات ليلة، كان الجميع نياماً، ومن الزاوية التي يرقد فيها جدي سمعت تمتمة غريبة. عرفت صوت الرجل العجوز وعرفت تلك النغمة المألوفة لصلاة يتلوها بلغة ما زال يعرفها لكنني ما عدت أعرف منها شيئاً، صلاة موجهة إلى الله. لم أتحرك أبداً بل رحت أصغي مدهوشاً إلى الصوت الذي بدا مثل صوت آتٍ من مسافةٍ بعيدة، من زمن بعيد مضى وانقضى. كانت تلك هي المرة الأولى التي أُدرك فيها أن لروح الإنسان أعماقاً لا سبيل إلى سبر أغوارها.

كان والدها يترك لوح الرسم الهندسي أحياناً ليتجول في الجبال ويتسلّق السفوح الصخرية. كان يأخذها معه؛ وقد علّمها عدم الخوف من المرتفعات. كان والدي يكتفي بالتجول في عالم الأرقام الذي تتجلى فيه رؤى آلاته أمام عينيه. بل كان يأخذ حساباته معه عندما نذهب في عطلة، وعندما تستحوذ عليه فكرة (هذا ما كان يحدث على نحو شبه مستمر)

كان ينسى كل ما يتعلّق بنا جميعاً. وعندما كان يجدنا بعد ذلك على طاولة العشاء أو قرب نافذته كان يستغرب ويعجب من ظهورنا! لكنهم أخرجوه قسراً من عالمه هذا وألبسوه ثياب المساجين واحتجزوه خلف أسلاك مكهربة كان حساب تعرّجاتها شديد السهولة، أسهل مما يجب! راح والدي يركز قوته وإرادته كلها على البقاء، على البقاء بكرامة حتى يعود إلى عالمه المحبوب مرة أخرى. وإلى جانب الأرقام والآلات كان والدي يحب الجميلات أيضاً، هذا ما فهمته لاحقاً! وكان يحب الرؤية الاشتراكية لعالم أفضل. ومثلما يفعل كل عاشق، أفرط والدي في استثمار موضوع افتتانه فوضع فيه آمالاً مفرطة خداعة.

سألتني ذات مرة: «أتظن أن كل حب يغرق في آمال زائفة؟».

أدركت أنها تسألني عنا نحن الاثنين فلم أجرؤ على الإجابة بنعم رغم أني ما كنت قادراً على رؤية سبب يجعلني استثناء من هذه القاعدة.

قالت السيدة فينوس: «مثلما حدث في المقابر التي اعترضت الطريق السريع، عندما هدموها كان عليهم نبش رفات الموتى وعرضوا مئة كرون في الساعة إضافة إلى زجاجة من الروم كل يوم. لكن الجميع قالوا لهم أن يضعوا هذا كله في مؤخراتهم. لقد اضطروا إلى إرسال السجناء المحكومين لأداء هذا العمل، وطبيعي أنهم لم يدفعوا لهم إلا شيئاً زهيداً». توقفت ثم تمطت وأسندت مجرفتها إلى الجدار ثم أشعلت سيجارة وتابعت تقول: «ليست جثث الموتى نكتة! إن فيها سماً يسري إلى الجسم عبر القفازات المطاطية وما أن يصل إلى دمك حتى تصاب به». كانت تدخن وتبدو كأنها تحدق في البعيد، إلى حيث لا يستطيع الرؤية أحد غيرها. لو أني صادفتها قبل سنوات لكنت رددت كلماتها لنفسي بكل تأكيد، لكنت استعجلت تسجيل كلماتها -حتى أحفظ ما قالته حفظاً أميناً قدر ما أستطيع. في ذلك الوقت كنت أظن أن أي شيء أسمعه أو أراه يمكن أن يصبح مفيداً في

قصة من القصص. لكنني صرت أعرف منذ وقت بعيد أن من المستبعد تماماً أن أعثر على أي أحداث غير تلك التي عشتها بنفسي. لا يستطيع الإنسان اكتساب سيطرة على حياة إنسان غيره، وحتى إن استطاع فهو لن يستطيع اختراع قصة جديدة! يعيش في هذا العالم قرابة خمسة آلاف مليون إنسان يظن كل واحد منهم أن حياته تصلح لقصة واحدة على الأقل. إن هذه الفكرة كافية لبعث الدوار في الرأس. إذا ظهر كاتب، أو من الأفضل أن نقول إذا تم إنتاج كاتب، لديه من الاهتمام ما يكفي لتسجيل خمسة آلاف مليون قصة ثم للخروج بما هو مشترك بينها كلها، فكم هو مقدار ما يبقى بعد ذلك؟ لن يعدو ذلك أن يكون جملة من كل قصة، من كل قَدَرٍ بشري، لحظة مثل قطرة في محيط، تجربة لا تتكرّر للحظة فهم أو لقاء، لمحة من ألم أو من بصيرة، لكن، من عساه يقدر على تحديد هوية تلك القطرة، من عساه يقدر على فصلها عن ذلك المحيط؟ ولماذا يتعيّن على القصص الجديدة أن تكون مخترعة؟

ذات مرة، اتهمتني داريا باكية بأنني أعتبرها حشرة أثبّتها بدبّوس حتى أستطيع وصفها بشكل أفضل. لكنها كانت مخطئة: في حضورها كنت أنسى أنني أحاول اختراع القصص أحياناً. وكنت أراقبها مراقبة لصيقة إلى تلك الدرجة لسبب وحيد، لأنني كنت أتمنى أن أفهم اللغة التي تحدثني بها عندما نكون معاً صامتين!

أشارت السيدة فينوس صوب أسوار فيشراد: «لكنني أمضيت وقتاً عظيماً مع تلك الجثث. حصلت لنفسي على عمل هناك. عملت في المشرحة. إنها المكان الذي يأتون إليه بجميع الجثث التي قطعت حناجرها أو غُرست فيها السكاكين. حصلت على العمل عبر إحدى صديقاتي التي وصفته بأنه عمل خطر غير مضمون لكن فيه نقوداً أكثر. لكنهم لم يعطوني إلا القليل آخر الأمر! لم أشتغل هناك إلا بسبب ذلك الشاب الذي يقوم

باستخراج أحشاء الجثث، كان مخبولاً، مجنوناً بتلك الجثث. كان يقول لي: زولوفا، إن لك ذراعين رائعتين. أحب أن أرى بقية ما فيك من أشياء رائعة ذات يوم». فتحت السيدة فينوس ذراعيها، كانتا ذراعين طويلتين رشيقتين حقاً!

أحسست بأن رائحة التحلل الممرِضة تكتنفنا كلنا. عندما اشتغلت عامل تنظيف في مستشفى ذات مرة كان زَميلي عاجزاً عن حرمان نفسه من متعة اصطحابي إلى المشرحة منذ اليوم الأول حتى يجعلني أرى الجثث فوق الطاولات وعلى الأرض وفي البراد. وأثناء ذلك كان يراقبني من زاوية عينه ليرى إن كان وجهي قد شحب خوفاً أو إن كنت قد فررت قاصداً باب الخروج. لكنني كنت معتاداً على رؤية الموتى منذ طفولتي، كنت معتاداً على رؤية كميات كبيرة من الجثث فلم تكن هذه الجثث القليلة المرتدية ثياباً وقورة قادرةً على إخافتي أو على جعلي أتقيأ ما في أحشائي.

والآن، لا أذكر تلك الغرفة ذات الأرضية المبلطة فقط، لكنني أذكر أكثر الطاولة العريضة التي رأيتها واضحة كما في حلمي، وعليها يرقد والدي.

كان مرض والدي شديداً، وكان المرض يدمره من الداخل شيئاً بعد شيء. صار هذا الرجل لا يكاد يقدر على إمساك القلم بين أصابعه بعد أن كان قوياً معافى على الدوام. وعندما نظرت في أوراقه التي لا تزال تعج بالأرقام والمعادلات لم أفهم منها شيئاً، كانت الأرقام مهتزة لا تكاد تبين. كان الحزن يطبق على نفسي كلما نظرت إلى هذه الأرقام والمعادلات. كنت أعرف أنه لم ينشر شيئاً من حساباته منذ سنين مع أن ذلك كان يُطْلَبُ منه، وكنت أعرف أيضاً أن في هذه الأرقام طريقاً يقود إلى معرفة جديدة وأن هذه المعرفة كانت تعني الحياة نفسها في نظره. لكنني عرفت منها أن حياة أبي صارت مهتزة الآن وأن هذه الأرقام صارت جاهزة لمرافقته إلى حيث لا أرقام!

كنت أود أن أبدد هذه الصور التعيسة، لكن شدة تركيز نظري على عربتي لم تفلح في جعل قسمات والدي الهامدة تغيب عني. ما المغزى من حياة كلها معاناة؟ لعلها تعلّم المرء أن ينحني تواضعاً أمام ما لا محيد عنه، لكن هذا لن يعفيه من الانسحاق تحت وطأة موت يقترب من شخص عزيز عليه.

لكنني ظللت أحاول طمأنة نفسي إلى أن والدي الذي اجتاز محناً كثيرة في حياته سوف لن يتهاوى هذه المرة أيضاً.

في ذلك اليوم، منذ وقت بعيد، كان على والدي أن يحملني خارج الطائرة بعد أن حطت على الأرض. كنت أرتعد وأسكب دموعاً غزيرة رافضاً رفع رأسي إلى السماء حيث كان طيارون بهلوانيون شجعان ينفذون شقلبات دائرية بطائراتهم فيشقون طريقهم إلى الأعلى صوب الغيوم ثم ينقضّون انقضاضاً حاداً فوق الأسقف على الأرض. رفعني والدي فوق كتفيه. لم يقل لي حتى: لا تخف يا صغيري! لم يؤنبني، بل اكتفى بحملي وراح يريني القطارات التي تندفع ماضية من تحتنا ذاكراً أسماءها واحداً بعد واحد كما لو أنها من أصدقائه أو من أطفاله. مضى بي بعيداً حتى الجسر الخشبي فوق سكة القطار وقال لي إنني أستطيع أن أبصق في مدخنة القاطرة عندما تمر من تحتنا. وعندما جاءت قاطرة بعد حين مطلقة الشرر والدخان انحنى هو نفسه من فوق الحاجز ليريني كيف أبصق، فنزع الدخان والبخار المنطلقان من القاطرة قبعته عن رأسه. ما كنا قادرين على فعل شيء إلا مراقبة القبعة تهبط فتستقر فوق كومة من الفحم في عربة مفتوحة لم تلبث أن اختفت في البعيد. ضحك أبي قائلاً إن قبعته بهلوانية أيضاً. رحت أحدق مسروراً في إثر القبعة التي اختفت ونسيت الرعب الذي أصابني في الطائرة.

وفي الليلة نفسها أعاد والدي قبعته من مكان ما. كانت سوداء كلها

بسبب هباب الفحم. أفرحني أنه حولها إلى ما يشبه قبعة المهرج ثم وضعها على رأسه وراح لبعض الوقت يؤدي دوراً تهريجياً محاولاً تقليد تشارلي شابلن. كان يحب تسلية الناس. وعندما يضحك، كان يضحك من غير حدود، بكيانه كله. كان يستطيع الضحك مما يُضحك الناس عادةً، لكنه كان يستطيع أيضاً أن يضحك مما يغضبهم ومما يثير قنوطهم. طالما تمنيت أن أعرف كيف أكون مرحاً مستبشراً مثله، لكنني ما كنت أملك قوة والدي ولا خفة روحه ولا تركيزه.

ألقت السيدة فينوس بعض القمامة في عربتي وسألت: «هل تعرف كم شخصاً مر لديه على تلك الطاولة؟» .

ما كنت أعرف ذلك، فقالت بنبرة انتصار: «خمسون ألفاً».

جاء صوت الشاب الصغير من خلفي: «كلام فارغ! أنت تختلقين هذا. هذا الرقم يعادل عدة كتائب».

«لكنها الحقيقة يا عزيزي جاردا. وقد ماتوا جميعاً». ضحكت فينوس كما لو أنها قالت شيئاً يثير الضحك فعلاً.

بعد ذلك، ذات يوم قبل عيد الميلاد، مارسنا الحب أول مرة في غرفة علّية لها شبابيك صغيرة وجدران سميكة تحت سقف مبنى باروكي الطراز. وقبالة هذا المبنى كان ينتصب منزل من منازل نبلاء البلدة له نوافذ ضخمة وقفت على حوافها حمامات متجمدة. كانت في الغرفة رائحة زيت، إضافة إلى نفحة بسيطة من رائحة الغاز. كانت الغرفة مظلمة تماماً رغم أننا في وقت الظهيرة. كانت النوافذ الصغيرة شبه محجوبة بتمثال للقديس ستيفان الشهيد. لقد شارفت عملية استصلاح التمثال وترميمه على الانتهاء، لكن حبيبتي توقفت عن العمل فيه، لم تكن تحب أن تقيَّد يداها بتعليمات فنان غيرها.

أردتها أن تستمتع بممارسة الحب معي. كنت أفكر في هذا الأمر كثيراً إلى درجة جعلتني أرتعد من فرط الإثارة، وكانت هي ترتعد أيضاً. إن لها زوجاً في المنزل بعد كل حساب، ولها طفلة صغيرة! لكنها الآن تكورت في أحضاني وتركت نفسها تنجرف إلى مكان لا رجوع منه. وهكذا حملتها ورحت أشعر بثقلها يزداد مع كل خطوة أخطوها حتى صرت لا أكاد أستطيع جرجرتها. كنت خائفاً!، كان كل منا خائفاً من الآخر، لكن كلاً منا كان يريد الآخر، يريده كثيراً. كان السرير الضخم الذي فوجئ بنا يَصر عند كل حركة فحاولنا حجب ذلك الصوت بكلمات رقيقة هامسة. تبادلنا نظرات مباشرة فحيرتني طريقة تحولها، كانت تزداد رقة ونعومة وتتخذ هيئة قديمة، شديدة القدم! لعل ذلك كان شكل أمي المنسيّ، أو لعله تذكُّر لصوري وأحلامي الأولى عن المرأة التي سأحبها ذات يوم.

عدت إلى المنزل متأخراً تلك الليلة ومضيت لأرقد في السرير إلى جانب زوجتي. لم يخامرها أي شك فقد انحشرت بي كعادتها. ما زالت مفرطة الثقة مثل طفل صغير! عندما أغمضت عينيّ أدركت أنني لن أعرف نوماً. جاء صوت طائر من الحديقة، وكانت القطارات تنطلق مندفعة في البعيد، ومن الظلمة أمامي انبثق وجه المرأة الأخرى مثل قمر مكتمل: وجه هادئ جميل كأنه كان مختبئاً في داخلي على الدوام، لكنه ساكن مثل وجوه تماثيلها. راحت تحدق في وجهي معلَّقةً في الفراغ فوق الأشياء وفوق الزمن كله. أحسست بشيء يشبه الحنين والانزعاج والتوق والحزن.

هطل في ذلك الشتاء ثلج كثير. كانت تأخذ طفلتها الصغيرة إلى دروس البيانو. وكنت أسير خلفهما من غير أن تشعر الطفلة بوجودي. كان سهلاً أن أسقط فأغرق في الثلج المتساقط حديثاً لأنني ما كنت أنظر إلى موطئ قدميّ، كنت أنظر إليها: كان في مشيتها شيء من التعجل لا تجيد إخفاءه، أو لعله اندفاع التوق إلى الحياة. كانت تمسك يد ابنتها ولا تلتفت خلفها

إلا لماماً. أستطيع الإحساس بحبها حتى من تلك المسافة.

في أوقات أخرى، كنا نجلس في الخارج في تلك الحقول المغطاة بالثلج غير بعيد عن المدينة. ومن تحتنا تمتد غابة ومزرعة مهجورة. أما من فوقنا فكانت السماء صقيعية ملفعة بحجاب من ضباب رقيق. توقفنا، مالت بظهرها صوبي فعانقتها، امتلاء بسيط تحت معطفها الشتوي، وسرعان ما صرنا في خضم الأبدية، صرنا خارج الزمن، خارج المخاوف والمسرات، خارج البرد والريح العاصفة. قالت بصوت ناعم: «أيمكن أن نكون عاشقين إلى هذا الحد؟».

كان بعض الأطفال يتزلجون على البركة المتجمدة، تماماً مثلما في لوحة لبروغل. كان النزل شبه مهجور، وكانت النار تفرقع في الموقد الضخم، ولوحة فيها منزل ريفي يحترق ويحيط به عدد من رجال الإطفاء يحاولون إخماد الحريق. أحضرت لنا زوجة صاحب النزل شيئاً من الويسكي الحار ثم أدارت مفتاحاً فأضيئت ألسنة اللهب الحمراء في اللوحة.

كانت داريا مسرورة مثل طفل: «ما أكثر النيران! إضافة إلى نارينا».

أحسست حقاً بدفء يكتنفني، أحسست به في داخلي، أحسست بأنني مثل بذرة في تربة ربيعية، تتفجّر وتجاهد للوصول إلى الضوء.

قرأت أفكاري وقالت: «أترى الآن؟ أخيراً سوف تنجز شيئاً».

«ما الذي يجعلك تظنين هذا؟».

«لأنك لم تبدأ العيش إلا الآن».

تظن أنني لم أعش إلا الآن! تظن أن الصقيع هزّني وحطّمني وأن ربيعاً بعد ربيع في داخلي لم ينتج إلا قطرات باردة قليلة.

أضافت تقول: «أنت لم تعش إلا برأسك فقط، لكن ما تفعله لا يمكنك فعله برأسك وحده. هل تستطيع السيطرة على محرّك باستخدام رأسك

فقط؟»، وعدتني أن تعلمني الإصغاء إلى الأصوات الخفية.

أود أن أعرف ماذا أعلّمها!

مؤكد أنها سوف تصغي إلى تلك الأصوات معي. ثم تقول: «سوف أستمع إليك، لستُ أحتاج معرفة أي شيء الآن، أريد أن أكون معك».

أطفأت زوجة صاحب النزل إنارة اللوحة من جديد. أما نحن فسرنا خارجين إلى الغسق البارد. تبادلنا القبل عند افتراقنا، تبادلنا القبل كما لو أن ليس لدينا شيء أمامنا أو خلفنا، كأننا أردنا أن نعتصر خلاصة حياتنا كلها في تلك القبل. ثم سألتني: «هل سبق أن أحببت أحداً حباً حقيقياً؟».

أعرف طبعاً أنها لا تريد أن تسمع شيئاً عن زوجتي أو أطفالي أو عن أبي، هي لا تريد أن تسمع شيئاً عن أحد حي، تريد أن تسمع مني أنها الشخص الوحيد الذي أحببته حقاً. لكن، لعلي مخطئ في هذا! لعلها تسأل بسبب قنوطها، بسبب دهشتها من أنني أتركها الآن، لماذا لم آخذها معي إلى مكان ما، إنها تخاف الخديعة وتشك في أن عندي مساحات تخيفها.

كانت زوجتي ترتاب في هذه المساحات أيضاً. وخلال نوبات رثاء الذات كانت تصرّ على أنني غير قادر على الاقتراب منها وتقول إن روحي أصيبت في طفولتي، عندما كان الموت لا يكف عن الدوران حولي، وتقول إنني لم أشف من تلك الإصابة.

ما المشاعر التي يحسها المرء حيث يفرد الموت جناحيه أكثر مما تفرد العصافير أجنحتها؟ كان في ذلك المعزل في القلعة عدد كبير من البنات. وكنت أتحدث إليهن، وأسير ماراً بهن؛ كان عمري اثني عشرة عاماً فقط! كيف يمكن أن يخطر لي أن يحدث شيء مما قد يثير ذعرها في خضم ذلك الرعب كله ورغم وجود الحرس المسلحين والجوع والترحيل مرة بعد مرة؟

لم يأتوا بها إلا أوائل عام 1943. صادفتها مذعورة في أحد ممرات ثكنتنا: كانت تائهة! سألتني عن الطريق فقدتها من غير عناء، إني مقيم هنا منذ زمان، قدتها حتى باب الغرفة التي حددوها لها.

أفلحت في طريقنا أن تخبرني عن المكان الذي جاءت منه. أخبرتني أن ليس لها أب، وأنها كانت خائفة هناك.

طمأنتها قائلاً إن لا داعي للخوف وإن من الممكن أن تعيش هنا. وقلت إنني سأحميها، إن أرادت.

قالت إنها لن تنسى لطفي أبداً!

وفي اليوم التالي أخذتها لتتعرف على أصدقائي. لن يجرحها أحد منهم، ولا حاجة لأن أحميها منهم. لكنني أدركت أنها كانت ترى الأشياء على نحو مختلف وأنها كانت في حاجة إلى وجودي وأنها تشعر بأمان أكبر معي.

كانت في مثل سني. وكانت مختلفة عن بقية البنات جميعاً لأن لها شعراً أشقر بلون القمح. لم نكن وحدنا أبداً، بعيداً عن رفاق اللعب، لكنني كنت أحاول دائماً أن أكون قريباً منها قدر استطاعتي. أعار كل منا الآخر الكتب القليلة التي عنده لكننا لم نجرؤ على المضي أبعد من هذا أبداً، لم أجرؤ أنا على المضي أبعد من هذا أبداً. لكن كل شيء تغير من دون سابق إنذار. كانت الحياة تجري بين مفصلين مختلفين، لم تعد تجري من الصباح إلى المساء، أو من وجبة إلى أخرى، بل من لقاء إلى لقاء. نفذ الملح في القلعة، وكانت البطاطا سوداء متعفنة، والخبز متعجناً، لكن هذا لم يزعجني. أخذوا جدي إلى مستشفى المعسكر، وكان ظننا أنه لن يعود، لكنني لم أكد أهتم بالأمر حقاً. كانت ممرات القلعة مزدحمة دائماً لكنها بدت خالية عندما تسير بجانبي. أما المكان الصغير المخصص لنا فقد كبر

واتسع، أو لعله كان متضمناً في ذاته فصار لا نهائي الامتداد.

كان عندي عدد من أقلام التلوين وأوراق بيض، وحاولت في المساء أن أرسم وجهها من ذاكرتي لكنني لم أنجح! ثم خطر لي أن أنظم قصيدة لها، وأنشأت في الواقع بضعة أبيات أعترف بأنها تناولت الظواهر الجوية أكثر مما تناولت مشاعري، وأخذت تلك الأبيات إليها. قالت إن القصيدة أعجبتها وصنعت لي دمية صغيرة لها وجه ضاحك. علقت الدمية على عمود عند سريري قرب رأسي تماماً حتى أستطيع النظر إليها قبل أن أغفو. كان وقت النوم هو الوقت الذي أمضي أكثره معها كل يوم لأنني كنت أحميها من الخطر آنذاك. كنت أحملها بين ذراعيَّ من الزنزانة التي تلقى فيها عارية لتعذيبها، الزنزانة التي كنت أقتحمها متنكراً لإنقاذها. وهكذا، رحت ليلة بعد ليلة أقوم بمآثري البطولية المخلصة، حتى أسقط نائماً.

كانت قد أحضرت معها من البيت فنجاناً خزفياً صغيراً. وكان خزف الفنجان متألقاً شبه شفاف ومزيناً بأزهار وتنينات صينية. وكثيراً ما جعلتني أشرب منقوع الأعشاب من هذا الفنجان. كنا نشرب من الفنجان نفسه، وكانت تقوم بذلك على نحو مهيب ووقور. وذات يوم، وهذا ما كان تجنبه متعذراً في عالم الاضطراب والاستعجال ذاك، أوقع أحدهم فنجانها الصغير فتحطم. وعندما راحت تبكي عليه طلبت منها أن تأتيني بشظاياه ثم قذفتها بحذر في الموقد الحار وراقبت ما يحدث لها. أحسست بأن النار كانت تهضم تلك الشظايا التي راحت تتألق بطريقتها الخاصة. لكنني، عندما أفرغت الموقد من الرماد في وقتٍ لاحق، وجدت الشظايا كما هي، لم تتغير! لعلها كانت ملطخة بالسخام بعض الشيء، لكنها لم تصب بشيء غير ذلك. أخرجت الشظايا من الرماد ثم غسلتها حتى صارت نظيفة واحتفظت بواحدة منها. أعدت بقية الشظايا إليها. أحسست بشيء من التعلّق بتلك الشظايا، أو بشيء من الإعجاب لأنها صمدت للنار

وحرارتها. لعل هذه الشظايا تفيدنا، لعل الرماد يُنبش من فوقنا ذات يوم فنخرج سالمين كما خرجت!

في خيالاتي، كنت أدافع عنها في وجه كل الشرور، لكنني لم أستطع إنقاذها في الحياة الواقعية. لقد تقرر ترحيلها مثلما تقرر ترحيل سكان ذلك المعزل كلهم تقريباً.

خرجت راكضة من الغرفة التي ملأها الاضطراب والدموع، الغرفة التي كان يجري فيها جمع حاجيات المقيمين البائسة وتصنيفها في عجالة يائسة. ما كان لديها إلا لحظات قليلة. وقد أرادت أن تكون مع أمها التي استبد بها اليأس والقنوط. كنا نعرف بقعة صغيرة في منطقة بعيدة في آخر المعزل حيث يوجد منحدر صغير مغطى بالأعشاب تظلله بضع شجيرات ليمون عتيقة. كان ذلك المكان أكثر أماكن القلعة هدوءاً. غالباً ما كنا نتواجد هناك بصحبة آخرين، أما الآن فما كان هنا أحد غيرنا. راح كل منا يخبر الآخر بأسماء الأصدقاء الذين تقرر ترحيلهم ويطمئنهم إلى أن الحرب في طريقها إلى الانتهاء قريباً جداً وإلى أن التحرير بات قاب قوسين أو أدنى مما يجعلنا غير خائفين من أي شيء، ونقول إننا سنلتقي عما قريب، سنلتقي كلنا. ما كنا نعرف مكان هذا اللقاء لكننا لم نعر الأمر اهتماماً. بعد ذلك صمتنا. ما الذي يمكن أن نتحدث عنه في تلك اللحظة؟ سرنا حول تلك البقعة ثم قالت إن عليها العودة. ظلت واقفة في مكانها لحظة قصيرة ثم اقتربت مني على نحو مفاجئ فأحسست بملمس شفتيها على شفتي. كانت أنفاسها فوق وجهي، فتجمدت. وبعد ذلك استدارت وجرت مبتعدة. وعندما استطعت اللحاق بها طلبت مني عدم التقدم معها أكثر من ذلك، فقد جرى الوداع بيننا!

رحلتْ بعد ظهر ذلك اليوم. وقفت قرب نافذتي، ما كان مسموحاً لي أن أخرج. حاولت تحديدها في ذلك الحشد الذي انحدر مبتعداً في الشارع،

لكنني لم أرها. خطر لي فجأة أنها لم تذهب، أنه من غير الممكن أن تكون قد اختفت، أن لا تكون هنا بعد الآن.

انتزعت نفسي من النافذة انتزاعاً وقرعت باب الغرفة المجاورة، وعندما لم أسمع جواباً فتحت الباب. الغرفة التي كانت منذ وقت قصير تضج بالناس والأصوات والأشياء، تثاءب الخواء فيها الآن. بدا لي أنني واقف فوق صخرة، فوق جرف شديد الارتفاع، شديد الانحدار، حتى صارت الأرض التي تحتي غير مرئية. أصابني الدوار وأدركت أنني أسقط أيضاً، أدركت أن لا مخرج لي أيضاً، إنها مسألة وقت، لا أكثر! ما بدا صلباً مكيناً انهار الآن في لحظة واحدة، وما بدا متصلاً بالأرض اتصالاً لا ينفصم ذاب الآن واختفى.

هربت من تلك الغرفة الخاوية واستلقيت في فراشي مغمضاً عينيّ. في تلك اللحظة ظهر وجهها وارتفع فوقي مثل قمر في سماء، راح ينظر صوبي من سماء الليل، هادئاً بعيداً لا يُطال. أما أنا فغمرتني سعادة، مع ألم وقنوط.

عند الساعة التاسعة تماماً جلسنا في حانة بوزينكا. كانت مكاناً خالياً من أي شيء مميز. وما كان فيها شيء ينعش تلك الجدران الضاربة إلى السواد سوى بعض اللوحات التي تحمل شعارات وتعليمات. كانت على مفرش الطاولة بقع من طعام الأمس. وكانت طاولة بلياردو ممدّدة عند الزاوية وقد أصاب البلى قماشها الأخضر منذ زمن بعيد فصار رمادي اللون بفعل رماد السجائر والدخان.

كانت حانة عربات النقل في طفولتي تضج بالألوان. لكنني لم أعد أذهب إليها بعد موت صديقي إلا نادراً. ما كنت أذهب إلا حين يرسلني أبي لأجلب له البيرة. وما كان أبي يشرب إلا نحو مرة واحدة في الشهر. خلف الباب تماماً كان في الحانة طائر دراج قرمزي اللون فارداً جناحيه الملوّنين، وعلى جدران الحانة صور ملونة فيها خيول وعربات نقل، كانت

من صنع رسام محلي يحترف كتابة لافتات المحلات ولوحات التسديد في لعبة الرماية. أما صاحب الحانة فكان يرتدي مريلة نظيفة مرتبة. وعندما كان يناولني البيرة كان يخرج من خلف البار ليضعها في يدي مباشرة. في حانة طفولتي تلك، كانت روح الحرية لا تزال موجودة.

لم يحاول والدي تنشئتي أبداً! وما كان يأمرني أن أفعل شيئاً أو يمنعني من فعل شيء. بدلاً من ذلك، كان يأخذني أحياناً في نزهة على الأقدام بصحبة والدتي أيضاً. وكان أكثر هذه النزهات يتجه صوب المطار لأن والدي، رغم حبه للغابات والحدائق وجميع أشكال المياه، كان مفتوناً بالآلات قبل أي شيء آخر. وكانت الآلات القادرة على الطيران أكثر ما يأسر لُبَّهُ على الإطلاق. وعندما نصل إلى المطار، كان أبي ينظر إلى الطائرات الصغيرة الخفيفة وإلى الطائرات الضخمة مزدوجة الجناح وإلى الطائرات الشراعية خفيفة الوزن، ثم ينسى في تلك اللحظة عينها أننا موجودون معه، بل كان ينطلق أحياناً في إثر الرجال المرتدين ثياب العمل للحديث معهم بينما نبقى نحن منتظرين في الحقل الذي تتناهبه الريح.

كان أبي مهتماً بكل شيء يطير. علَّمني صنع الصواريخ انطلاقاً من أوراقٍ ملفوفة. لم تكن صواريخ من النوع الذي ينطلق في غرفة الصف ما أن يديِر المعلم ظهره بل كانت آلات طائرة حقيقية تنطلق في الهواء انطلاقاً جميلاً سلساً. وكان بعضها يرتفع عالياً بعض الأحيان قبل أن يستدير عائداً صوب الأرض.

كنا نصنع الطائرات الورقية أيضاً. وقبل أن تنتهي أيام لعبنا معاً بوقت قصير بنينا نموذج طائرة كبيرة باستخدام بعض الأضلاع الخشبية ورقائق الخشب الخفيف إضافة إلى ورق صقيل متين. وشددنا داخل جسم الطائرة شريطاً مطاطياً حتى نقرنه فيقوم بإدارة المروحة. وعدني أبي أن هذه الطائرة سوف ترتفع عالياً إلى حد يجعلها تطير فوق برج الكننيسة في بروسيك.

عندما حملنا الطائرة فعلاً إلى حافة المطار صباح الأحد وقمنا بقرن الشريط المطاطي، قفزت الطائرة الصغيرة واندفعت إلى الأمام، وبعد لحظات ارتفعت صوب السماء وراحت ترسم دائرة واسعة. لكنها لم تكمل المشوار، لا بد أن شيئاً حدث، اهتزت الطائرة ثم تعطلت على نحو مفاجئ وسقطت على الأرض وتحطمت.

اندفعنا صوبها فلم نجد إلا كومة من الأضلاع والرقائق الخشبية وقطعة واحدة من الورق.

حزنت كثيراً لهذه الخسارة. عندها قال لي أبي: «تذكّر أن الرجل لا يبكي!». كان ذلك أحد الدروس القليلة التي تلقيتها منه في حياتي كلها. ضحك أمام تلك الكومة من الحطام ثم حملها قائلاً إن تلك هي مقادير الأشياء وإن من يقلق وينزعج لهذا الأمر لا يفعل إلا أن يؤذي نفسه.

طلبت شاياً لنفسي، أما الآخرون فقد قدموا إليهم، من غير سؤال، كؤوساً ضخمة من البيرة. وحده ذلك الشاب الصغير كان يشرب المياه المعدنية. أخرجت فينوس سجائرها ومدت العلبة صوب الشخص الجالس قبالتها عبر الطاولة ثم مدتها صوبي. شكرتها قائلاً إنني لا أدخن.

قالت: «أنت شخص مثالي، ألست كذلك؟ لا بد أن زوجتك سعيدة معك».

قال رئيسنا: «لو لم أكن سكران لما تزوجت على الأرجح لأن لدي فكرة ثابتة تقول إن الزواج هو نهاية الحياة».

لم أتعرف على ليدا إلا بعد انتهائي من الجامعة. ما كان في لقائنا شيء استثنائي، ولم تصاحبه أي أحداث أو أمارات خاصة. التقينا فقط ووجد كل منا أن الآخر يعجبه. كانت أصغر مني بست سنوات فقط، لكنني كنت أشعر بأن عمراً كاملاً يمتد بيننا.

بالتأكيد، لم يكن ما يزعجني شكوكاً في ما يخص صحة اختياري، بل معرفتي أنني اتخذت قراراً أبدياً. وكنت أظن أن أفضل آمالي ما كان وجود الشخص الذي أحبه بجانبي دائماً وأبداً باعتباره حاجة لي، بل أن أمد يدي صوب الخواء من وقت لآخر، أن أترك التوق يتكثف في داخلي حتى اللوعة، أن يتناوب ألم الفراق وراحة اللقاء المتجدد، فرصة الهرب وفرصة العودة، فرصة أن ألمح أمامي احتمالاً، أو أملاً، بأن اللقاء الحقيقي ما زال ينتظرني.

لا يحب الرجل أن يقبل فكرة وصول حياته إلى خاتمة في ما يخص أهم جوانب هذه الحياة، حيث تتحقق آماله! يتردد الرجل إزاء النظر في وجه الموت. ما من شيء أقرب إلى الموت من حب يتحقق!

طرنا إلى جبال تاترا لقضاء شهر العسل.

كان الوقت بداية طقس خريفي فيه بعض الريح. بدأ لون الصنوبرات الجبلية يتحول إلى الذهبي، وكان عبير العشب الطازج يعطر المروج. تسلقنا الجبل حتى الأشجار، حتى نهاية الغابات، ومن فوقنا ارتفعت الحواف الحادة في تلك القمة العارية. استلقيت على العشب وكانت ليدا تغني لنفسها. أحسست بأن غناءها يملأ الفضاء كله من السماء حتى قاعدة تلك القمة الصخرية ويرسم حدود الحيز الذي سوف تبقى حركتي محصورة فيه إلى الأبد.

قالت فينوس: «لا بد أنك سكير فعلاً يا سيد ماريك! عندما كان زوجي السابق يأتي إلى البيت ثملاً كنت أجعله ينام مع الخيول أو في المرأب».

سألها الرجل بفضول ظاهر: «كنت تملكين سيارة إذاً! متى كان ذلك؟».

«كنا في سلوفاكيا طبعاً. لقد حصل ميلا على سيارة وارتبورغ عتيقة. وعندما خرجنا مع أطفالنا أول مرة، تعطل عادم السيارة بعد أن تجاوزنا

توبولسيانكي فراحت تصدر أصواتاً مرتفعة مثل دبابة لعينة. كان عليه أن يشرب كأسين مزدوجتين وجد نفسه في أشد الحاجة إليهما، ثم استلقى تحت السيارة حتى يتمكن من ربط أنبوب العادم بسلك معدني. وعندما انتهى عدنا أدراجنا في ذلك الطريق المنحدر فأطفأ المحرك حتى لا تصدر السيارة تلك الأصوات الفظيعة. راحت سرعة السيارة تزداد شيئاً فشيئاً، وكان الأولاد مسرورين بمرورنا السريع على المنعطفات. أما أنا فكنت أزعق فيه: «ميلا! أتريد أن نصبح كلنا لحماً مفروماً؟ هل فقدت عقلك؟». فيجيبني: «لم أفقد عقلي، فقدت المكابح!».

أدركت أن السيدة فينوس تحكي هذه القصة من أجلي أنا أولاً، فأنا هو الجديد بينهم! وهكذا سألتها: «كيف انتهت الرحلة؟».

«لقد استخدم المحرك لتخفيض سرعة السيارة. كان وقتها لا يزال قادراً على ترويض أي فرس».

قال الرئيس: «إلا أنت!». ضحك الرجل فأعطى بذلك إشارة لبهجة عامة. أما من كان مستمتعاً أكثر من الجميع فهو القبطان الذي ما زال وجهه المألوف على نحو غائم يعذبني. كان يوحي لي بشيء، يشير لي رجوعاً إلى شيء ما، لكنني لم أعرف هذا الشيء. وأما الفتى ذو الوجه الشبيه بوجوه البنات فما كاد يبتسم: خطر لي فجأة أن الموت كان يحوم من فوقه. ينتابني هذا الإحساس من وقت لآخر، وكان ينتابني أكثر أيام طفولتي. كنت أنظر إلى أحد الأشخاص ثم يصيبني الذعر فجأة من أن ذلك الشخص موشك على الرحيل. لست أحاول الإيحاء بأن عندي بصيرة من نوع خاص. كان إحساسي خاطئاً في حالات كثيرة. ثمة أشخاص تفوح رائحة الموت منهم سنوات طويلة لكنهم يظلون أحياء وفي أحسن حال..

أثناء الحرب، كان والدي يعيش في قلعة المعزل نفسها، بل ضمن الكتلة نفسها. لكنني ما كنت أستطيع رؤيته فقد فصلت بيننا جدران وتعليمات

كثيرة. استمر ذلك حتى انفتح باب ذات يوم، وهناك وقف والدي على نحو ما كنت أتوقعه أبداً. كان شعره الذي لم يعد كثيفاً قد حُلق منذ فترة قصيرة، وكان يرتدي شيئاً يشبه ملابس عمال المراجل. ظهر عند ذلك الباب وراحت عيناه تجوبان زوايا المهجع الكبير. صرخت فرآني وقال: «إهدأ، إهدأ! إنني هنا من أجل إصلاح الكهرباء فقط». ثم ضحك لي. ثم احتضنني بين ذراعيه رغم أنني كنت صبياً كبيراً في ذلك الوقت. ضمني وقال: «يا ولدي الصغير!». كان يبتسم طيلة الوقت، لكن على نحو غريب بعض الشيء. كانت عيناه نديتين وعندما رفعت رأسي لأنظر إلى وجهه أدهشني أن أرى أبي الكبير القوي باكياً.

عندما عرفت بعد الحرب أن جميع الأشخاص الذين كنت مولعاً بهم، جميع من أعرفهم، قد ماتوا، سمموا بالغاز ثم أحرقوا مثلما تحرق النفايات، استبد بي اليأس. كنت أسير معهم كل يوم تقريباً وأدخل معهم أماكن مغلقة. كنا عراة كلنا، وفجأة يبدأ اختناقنا. كنت أحاول الصراخ لكنني أعجز عن ذلك، أسمع الحشرجة في حناجر الآخرين وأرى وجوههم تكشِّر ثم تفقد أشكالها الأصلية. كنت أستيقظ مذعوراً، أخاف أن أعود إلى النوم. وكانت عيناي تجوسان الظلمة الخاوية على نحو محموم. كنت في ذلك الوقت أنام في المطبخ، قرب الطباخ الغازي. وكنت أنهض من نومي مرة بعد مرة لأتأكد من عدم تسرب الغاز. كان واضحاً لي أنني لم أبق حياً إلا بسبب سهو ما، أو بسبب غلطة يمكن أن تُصحح في أي لحظة. وفي النهاية سحقني الخوف والذعر فسقطت مريضاً. هز الأطباء رؤوسهم أمام مرضي. لم يعرفوا الجرثومة التي دخلت قلبي. لكن المَخرج الحقيقي لم يخطر في بالهم أبداً.

نصحوني بالراحة المطلقة في السرير. لكنني، وسط ذلك الهدوء، كنت أستطيع إحاطة نفسي بأصدقائي الذين صاروا أشباحاً، أستطيع أن أمضي

معهم ذلك الزمن البطيء كله، أن أنجرف إلى عالمهم الذي لم يكن قد صار ماضياً على الإطلاق في ذلك الوقت. لم أخبر أحداً عنهم، لكنني كنت معهم. وقد دعوني إليهم وكرروا دعواتهم بإصرار شديد جعلني أفهم أنني سأموت أيضاً.

لكنني كنت لا أزال خائفاً من الموت، خائفاً من الموت إلى درجة جعلتني لا أجرؤ على النظر في المرآة. وهكذا أمضيت أسابيع كثيرة في سكون تام إلى أن جلبت لي أمي ذات يوم كتاب «الحرب والسلم» في ثلاثة أجزاء وضعتها قرب فراشي وطلبت مني ألا أحملها بنفسي لأنها ثقيلة جداً. كنت ضعيف الجسم فعلاً، وكنت لا أكاد أستطيع رفع أي جزء من تلك الأجزاء رغم أنها كانت مجرد كتب عادية. لكن، عندما ناولتني أمي واحداً منها، أسندته إلى ركبتيّ ورحت أقرأ فيه مستلقياً على ظهري. ومع القراءة رحت أنتقل تدريجاً إلى مجتمع آخر. كان يخطر في بالي أحياناً أن الناس الذين أقرأ عنهم كانوا أمواتاً أيضاً، لا بد أن يكونوا قد ماتوا حتى إن لم يأخذهم الموت على صفحات الكتاب. يومها أدركت تلك القوة المحيرة في الأدب وفي الخيال البشري عامة: جعل الموتى أحياء ومنع الأحياء من الموت. استولى عليَّ العجب أمام هذه المعجزة، أمام قوة الكاتب العجيبة. وهنا بزغ في داخلي توق إلى تحقيق شيء مماثل.

طلبت من والدتي أن تشتري لي بعض الدفاتر. وعندما صرت وحدي رحت أخطّ على الورق ما أستجمعه من تجاربي الخاصة وأعيد الحياة إلى بعض من لم يعودوا أحياء. في تلك اللحظة، بعجيبة من العجائب، راحت قسماتهم المتصلبة الباردة الميتة تضمحل شيئاً بعد شيء. عندما سمح لي الطبيب بالنهوض من الفراش بعد ستة أشهر كانت تلك الوجوه قد اختفت وذابت كما لو أنها تفسح الطريق أمامي. ما عدت قادراً على التحكم بها. ولو أراني شخص في ذلك الوقت صورة لأحد أصدقائي الموتى لقلت:

لا أعرفه! لكن ذلك لم يكن هو النسيان الناجم عن الموت، ولا هو أيضاً ذلك النسيان الشائع كثيراً في أيامنا هذه عندما يتم إخفاء الأموات، بل بعض الأحياء أيضاً، بستار من الصمت قادر على ابتلاع الكلمات نفسها. كانت علاقتي بتلك الوجوه نوعاً مختلفاً من التذكّر، تذكّر يحمل الأجساد المحروقة من رمادها ويحاول رفعها نحو حياة جديدة.

هكذا، عشت من جديد. وكان الطبيب مسروراً بالمعجزة التي تحققت بفعل حبوب جديدة وصفها لي قبل فترة. لكنني كنت أعرف سبب بقائي حياً! سأظل قادراً على العيش طالما ظللت قادراً على الكتابة، وسأظل حراً من أشباحي. أعرف ذلك حتى هذا اليوم، وأعرف أيضاً أن لا شيء على الأرض يمكن أن يختفي، حتى صورة فتاة قتلت منذ زمن طويل تبقى كامنة في مكان ما، لعله عقلي! وسوف تنهض من أعماق الأرض حالما ترتفع روحها فوق الأرض وفوق المياه. أحسست عندما كنت أنظر إلى وجه المرأة التي هي معي الآن، التي لقيتها على مقربة من نهاية عمري، التي تبدو مألوفة لي من أعماق وجودي، أحسست بأن أعجوبة حدثت فجعلت تلك التي كانت تقف عند بداية حياتي تعود إليّ الآن. وأحسست بأنني بعد هذه السنوات كلها عدت أرى ذلك الوجه الساكن الحبيب الذي يشبه الحلم، عدت أراه أمامي في الليل فتغمرني موجة من الفرحة يخالطها الحزن رغم معرفتي الآن، معرفة تبعث الراحة في نفسي، أن داريا ظلت حية ثلاث سنوات بعد مقتل الآخرين.

استدار رئيسنا صوب السيدة فينوس قائلاً: «طيّب! كنتم منحدرين بسرعة الريح. لكن ماذا كنت تقولين لو كنتم منطلقين بالسرعة نفسها إلى الأعلى؟». قال هذا وأشار بيده إلى السقف إشارة آمرة جعلتنا ننظر إليه جميعاً.

منذ خمسة وثلاثين عاماً جرى له ما يلي. كان قد عُيّن في مطار قرب

ستريبرو في بوهيميا الغربية. وهناك، كانوا قد ورثوا من الألمان منطاد تدريب مثلما ورثوا طائرات س199 الرائعة. وقد أمره الرقيب بتجهيز المنطاد مما كان يعني تزويده بمظلة للهبوط وبأكياس التوازن. راح الرقيب يساعده أيضاً. لكن الحبل الذي كان يربط المنطاد أفلت عندما كانوا يضعون أول أكياس الرمل فانطلق المنطاد في السماء بسرعة جعلتهم فوق الغيوم في لحظات قليلة. «أستطيع القول إنه كان أسرع من صاروخ. كنا نرتدي قمصاناً صيفية،». استولت الذكريات على الرئيس، «لأن الوقت كان منتصف الصيف هناك في الأسفل ثم وجدنا نفسينا في القطب الشمالي الرهيب فجأة. قلت له: أيها الرفيق الرقيب، الجندي ماريك يبلغك أننا نطير إلى وجهة غير معروفة، لكننا سنجد أنفسنا في الجحيم على الأرجح! كان الرقيب رجلاً طيباً فقال: ماريك! لقد كان الأمر الذي وجهته إليك سخيفاً تماماً، فكيف آمرك بالتواجد في المنطاد من غير مظلة؟ حاول أن تخرج من هذا الأمر حياً، أما أنا فسوف أتدبر أمري. قال هذا وناولني المظلة، المظلة الوحيدة في المنطاد! قلت له: إن لديك زوجة وأطفالاً أيها الرقيب، ويمكنك أن تقفز إذا ساء الأمر. قال لي: أنت رجل طيب يا ماريك. إما أن تسوء الأمور علينا معاً وإما أن نصبح أبطالاً. كان الصقيع قد تشكل على وجهه في ذلك الوقت».

قال الشاب متعجباً: «لماذا لم تحاولوا إفراغ الغاز من المنطاد؟».

«أتظن أننا لم نفكر في هذا؟ لقد تجمد الصمام اللعين فلم نستطع فعل شيء». مضى الرئيس حيناً من الزمن يشرح تفاصيل الوضع المرعب على ذلك الارتفاع الشاهق المتجمد قبل أن يتمكنوا من الهبوط على الأرض عند بلدة ليسا بعد ثلاث ساعات.

انضم إلى الحديث الرجل الذي ذكّرني بطبيب الأذن والأنف والحنجرة: «قبل خمسة وثلاثين عاماً كنت في معسكر تأديبي قرب ماريانسكا التي لا

تبعد عن الحدود كثيراً. وفي ذلك الوقت كان الأمريكيون قد راحوا يرسلون مناطيد صغيرة فيها منشورات. هبط واحد منها في مكان قريب، لكن أي شخص يلتقط منشوراً كان يخاطر بنفسه عبر وضعه في الحبس الانفرادي».

«ماذا قالت المنشورات؟»، كان الشاب يريد معرفة ذلك.

«لا شيء يستحق الحبس الانفرادي! ثم، ما الذي يمكن أن تتوقعه من قطعة من الورق؟».

أعاد القبطان الحديث إلى حدوده الملائمة: «قد يكون هناك مستقبل للمناطيد والسفن، لكنني لا أحب أن أكون في واحد من تلك المناطيد، أو في طائرة. عندما تغرق السفينة فإن لك فرصة في النجاة، أما عندما تهوي الطائرة،!!».

قال الرئيس شاعراً بالاستياء: «لا حاجة لأن تخبرني! لقد ماتوا ولم يبق منهم بهذا القدر». نقر عقب السيجارة بإصبعه، «وحتى لو تمكن أحدهم من الإفلات من الموت بأعجوبة، من الواضح أنه لا يعود نافعاً لشيء أبداً».

مع داريا، كنت أطوف متحركاً فوق الأرض وفوق المياه. يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر. وحتى في الليل، عندما تفرّق المسافة بيننا، كانت أحلام واحدنا أو رؤاه تماثل أحلام الآخر.

وهذا، كما شرحت لي داريا، لأن روحينا تلتقيان ليلاً.

«أتظنين أن الروح تستطيع مغادرة الجسد أثناء حياته؟».

عند ذلك حكت لي قصة ساحر يبلغ عمره أربعمائة عام ويخفي مظهره الحقيقي بوسائله السحرية. إنه يعيش في بيت حجري وسط الغابات الممتدة حتى المحيط المتجمد الشمالي. وهو يمضي وقته وحيداً. وعندما تعب من العيش وحيداً ألقى سحره على صبية جميلة وحاول اتخاذها زوجة له. لكنها رأت ما في داخله وأدركت طبيعته الحقيقية. ذعرت الفتاة

ورجته أن يتركها: كان الساحر رجلاً عجوزاً شارف على نهاية عمره، أما هي فالحياة كلها أمامها. أجابها الساحر: «قد أبدو عجوزاً، لكنني لن أموت لأن روحي لا تقيم داخل جسدي». وعندما أرادت الفتاة معرفة مكان روحه قال لها إنها في مكان بعيد.. بعيد. ثمة بحيرة خلف الجبال وخلف الأنهار. وفي وسط البحيرة جزيرة. وفي الجزيرة معبد. ليس للمعبد نوافذ لكن له باباً واحداً لا يمكن فتحه. وفي الداخل، ثمة عصفور يطير. وإذا لم يقتل العصفور أحد فهو لن يموت أبداً. إن روح الساحر موجودة في هذا العصفور. وما دام العصفور حياً فهو حي أيضاً.

كان للفتاة حبيب استطاعت أن تخبره بما أصابها. انطلق الشاب للعثور على الجزيرة والمعبد. وبمساعدة من أرواح طيبة استطاع أن يفتح الباب الذي لا يمكن فتحه وأمسك العصفور الذي لا يمكن أن يموت من تلقاء نفسه. ثم عاد بالعصفور إلى حبيبته. خبأت الفتاة الشاب والعصفور تحت سرير الساحر وقالت لحبيبها أن يضغط على العصفور ضغطاً شديداً. نفذ الشاب ما طلبته، وعلى الفور شعر الساحر بالمرض ثم تزايد وضعه سوءاً مع استمرار ضغط الشاب على العصفور. عند ذلك شك الساحر في الأمر وراح ينظر في الغرفة فصاحت الفتاة: «اقتله، اقتله!». سحق الشاب العصفور في يده فلفظ الساحر آخر أنفاسه في اللحظة عينها.

فهمت أنها روت لي هذه القصة لتقول لي إن عليَّ ألا أنسى أن روحها عصفور أمسكه في يدي.

تترك الروح الجسد بعد الموت وتدخل جسداً آخر، جسد حيوان أو شجرة! وهذا ما كان يجعلها تفضل العمل على الحجر أو الصلصال، لا على الخشب. كانت تستطيع سماع أنين الشجرة عند قطعها. وعند ارتحال الروح إلى جسد جديد تكون قادرة على اجتياز أي مسافة. فلماذا لا تستطيع الروح أن تفعل الأمر عينه أثناء الحياة؟ إنها ليست شيئاً مادياً، أي أن ما من

قوة على الأرض تستطيع إمساكها أو حبسها عندما تريد الفرار أو الارتفاع أو الذهاب إلى شخص آخر.

أخبرتني في وقت آخر أنها رأت في وضح النهار ذات مرة كرة ذهبية تتحرك بين أحواض الزهور. كانت صور الزهرات تنعكس على تلك الكرة وكان كل شيء متحركاً حراً منتشياً. وبعد وقت قصير، عندلم تكن عائدة في المساء، أو لعل ذلك كان في الليل، لمحتني في الناحية الأخرى من الشارع. كنت مستنداً إلى عمود كهربائي. كانت تود أن تندفع صوبي لكنني اختفيت من أمام عينيها. أكان هذا وهماً أرسلته إليها قوة شريرة أم كانت إشارة حب؟

كان لا بد لكل شيء يحدث من سبب عُلوي، وهذا ما جعلها تبحث عن التفسير في أوضاع الكواكب! وقد قررت أن الشمس هي أقوى نجومي، نجم الحظ. وكانت شمسي في برج العذراء، في المنزلة العاشرة. لقد نجوت مما مررت به بفضل شمسي هذه، وبفضلها أيضاً سأعيش حياة سعيدة حتى اللحظة التي يكون عليَّ مغادرة هذه الحياة. لن أخرج من جسدي حتى أنجز مهمتي وأؤدي العمل الذي لا بد لي أن أؤديه. أيوجد قدر أسعد من هذا؟

في الليلة الثانية عشرة قمنا بصب تماثيل الرصاص معاً. كان تمثالي امرأة تغطي وجهها ووحشاً كاسراً أو جنياً مجنحاً. لقد رأت نفسها في تلك المرأة ورأتني أنا في ذلك المخلوق المجنح، كنت أنقضّ صوبها محاولاً حملها عن الأرض أو محاولاً أن أوصل إليها رسالة من السماء.

«ولماذا تغطي المرأة وجهها؟».

«لعلها خائفة مني!».

كانت لديها رزمة من ورق الحظ من صنع الآنسة لينورماند الشهيرة.

وقد قامت مرات كثيرة بقراءة ماضيها وماضيّ، وحاضرها وحاضري، ومستقبلها ومستقبلي، القريب والبعيد. ومن المدهش أن ذلك الورق كان ينبئ بمستقبل مشجع، أو حتى رائع، بالنسبة لي.

كنت أعتبر قراءة الحظ هذه نوعاً من ألعاب العشاق، لكنني كنت أقول لها إن كل شيء لا بد أن يسير على نحو جيد لأن حياتي مسحورة مثل حياة ذلك الرجل الذي نجا وحده من حادثة تحطم الطائرة التي اصطدمت منذ أعوام ببرج الكنيسة في ميونيخ، أو مثل حياة تلك الفتاة التي نجت من تحطم الطائرة في جبال الأنديز ثم شقت طريقها وحدها طيلة أيام وليالٍ كثيرة عبر الغابة حتى وصلت إلى حيث يقيم البشر بعد أن شارفت قواها على النفاد. تصادف لي أن التقيت ذلك الرجل منذ زمن غير بعيد، وقد انسجمنا فعلاً! صحيح أنني لم أر تلك الفتاة أبداً، لكن من المؤكد أن ما يحطم الآخرين ليس بالنسبة لنا أكثر من عثرة لا أهمية لها.

ما كان أيُّ شيء لعبةً في نظرها في واقع الأمر. كل شيء حياة بالنسبة لها، وكل ثانية نمضيها معاً يجب أن تمتلئ حباً. أما عندما لا نكون معاً فإن الأشباح تزحف إليها من كل ناحية كما في حلم مزعج، وتلتف أفاع متعددة الرؤوس حول ساقيها. كانت تقاوم وتطلب مساعدتي، تطلب ألاّ أتركها، أن أبقى معها إن كنت أحبها، أن أكون معها حيناً من الزمن على الأقل. لكنني كنت قد بدأت الهرب، كنت أسرع إلى البيت، في عقلي،، أحاول اللحاق بالقطار الذي يغادر الآن حتى أضمن الوصول إلى البيت قبل زوجتي التي لا تشك في شيء، زوجتي التي تبتسم أو تتجهم بحسب تقلبات مزاجها لا بحسب ما أفعله أنا. هكذا كنا نفترق ونتبادل قبلة أخيرة عند ناصية الشارع، ثم نستدير ونلوح بأيدينا مرة أخرى. كنت أستطيع رؤية الابتسامة تتجمد على شفتيها والدموع تغسل الرقة التي في عينيها.

لقد كنت متفانياً في عملي على الدوام! وكنت أكافح دائماً لكسب

أي دقيقة إضافية للكتابة. أما الآن فكنت أختصر عملي دقيقة بعد دقيقة. وكانت هذه الدقائق تصبح ساعات وأياماً. ما زلت مصراً على التمرد، على أن أطلب لحظة واحدة من إرجاء موتي، فالكتابة هي حياتي بعد كل حساب!

قالت: «كيف تستطيع أن تقول هذا الكلام؟ ماذا يكون الفن مقارنة مع الحياة؟».

«عندما أعجز عن الكتابة فسوف أموت. لكنني سأموت عاشقاً».

كنت أعاود الرجوع إلى ذكريات زمن الحرب مع أنها كانت تزداد ضبابية. كان الأمر كما لو أنني أحس واجباً تجاه من ماتوا ولم أمت معهم، وأن عليَّ أن أرد الجميل إلى تلك القوى الخيرة التي انتشلتني من ذلك القدر المعمم وسمحت لي بالعيش.

دخلت الحياة حاملاً هذا العبء. ما كان عمري قد بلغ الثامنة عشرة عندما بدأت كتابة مسرحية عن ثورة في معسكر اعتقال للنساء، عن قرار يائس بالحياة الحرة أو الموت. بدا لي وقتها أن فكرة المعاناة الناجمة عن حياة معدومة الحرية أهم الأفكار إطلاقاً، أهم ما يمكن أن أفكر فيه وأكتب عنه. ومثلما كان الأمر في تلك القلعة، مثلما هو الآن بعد الحرب، كنت أحس بأن وجودي كله متعلق بالحرية. كنت قادراً على الاستشهاد عن ظهر قلب بأفكار السجين بيير بيزوخوف عن الحرية والمعاناة، أمران متقاربان كثيراً إلى حد يجعل إنساناً في لجة المعاناة يُمكن أن يعثر على الحرية.

ما كنت أفهم تولستوي، مثلما لم ألاحظ أن معسكرات جديدة كانت تقام على مسافة غير بعيدة عن بيتي، حيث كان على البشر من جديد أن يلتمسوا تلك الفرصة الأخيرة في البحث عن الحرية في خضم المعاناة. ما كنت أعرف إلا تلك المعسكرات من أيام طفولتي.

سرنا منحدرين في شارع اسمه شارع دوليناش، وكان نظيفاً تماماً! كانت سيارة تنظيف الشوارع الأوتوماتيكية قد تجاوزتنا قبل قليل، وكان يقودها اليوم السيد كرومهولز. إن تلك السيارة تعمل على نحو ممتاز حتى لا تكاد تبدو منتمية إلى زماننا على الإطلاق. وهكذا اقتربنا من المبنى الرهيب الذي أقاموه على هضبة بانكراك. كانوا في الأصل يريدون تسميته قصر المؤتمرات لأن تلك هي الغاية المقصودة من بنائه: إقامة مبنى ضخم على نحو يناسب مختلف أنواع المؤتمرات التي تقيمها المؤسسات المفيدة والمؤسسات غير المفيدة، وأهمها المؤسسة التي تهيمن على كل شيء وعلى كل شخص. لكنهم أطلقوا عليه اسم قصر الثقافة، أليس هذا سخفاً؟

قال رئيسنا ملاحظاً أنني أنظر إلى المبنى: «نعم! لديهم نوع مختلف من الآلات هناك. لديهم آلات تنظيف أوتوماتيكية صغيرة تسير في الممرات. ولديهم آلات لتنظيف الأرضيات الخشبية وتلميعها، آلات مستوردة كلها، من أجل استخدامهم هم فقط! هل تعرف كم من الناس لديهم هناك؟».

قال القبطان: «إنها وحشية، تأكلنا جميعاً وتجردنا من منازلنا».

انضمت السيدة فينوس إلى الحديث: «في الأسبوع الماضي دخل إلى هناك طفل صغير. ظنوا أنه تاه في فيشراد لكنه كان في المبنى طيلة الوقت. لقد دخل إلى واحدة من غرف الاستقبال الصغيرة ثم نام. وعندما استيقظ ظل يجري ثم يجري في الممرات فوصل أخيراً إلى غرفة التدفئة، وهناك ضل طريقه تماماً وراح يتجول بين تلك الأنابيب والعنفات الملونة. وعندما وجدوه في الصباح كان منهاراً».

كان رجلا شرطة قادمين في اتجاهنا في هيئة تجمع بين اللامبالاة الخرقاء وبين الإحساس المفرط بأهمية الذات. كان أحدهما حسن البنية له شارب صغير يزين وجهه البهيج. أما الآخر فكان أكثر ميلاً إلى الطول، لكنه يشبه طفلاً مريضاً أشقر الشعر بعينين زرقاوين. تصلب شيء في

داخلي عند رؤيتهما. صحيح أنني لم أفعل شيئاً، لكن تجربتي مع رجال الشرطة بصفتي شخصاً بريئاً، سواء كانوا ممن يرتدون اللباس الرسمي أو من غيرهم، لم تكن تجربة سارة على الإطلاق! لم يخطر في بالي أبداً أنني أقف الآن على حافة ارتداء لباس رسمي، هذا بفضل سترتي البرتقالية التي ألبسها الآن!

خاطبنا الشرطي الأكثر تأنقاً: «مرحباً أيها الكناسون! هل الشارع شديد الاتساخ؟».

أجاب الرئيس: «ليس الأمر شديد السوء! لم ننظف منطقة الإسكان اليوم. هناك يعيشون مثل الخنازير».

«أما نحن فلدينا بعض التسلية والألعاب هنا، صدقوني». قال المتأنق هذا وهو يربت على كتف رئيسنا بحركة ودية. ثم قال مشيراً إلى فيشراد، «في المنزل القريب عند ذلك المنحرف الذي يقوم بخنق النساء. ظنت امرأة عجوز أنه يلاحقها وصرخت طالبة النجدة. حصل هرج ومرج! قمنا بتمشيط الحديقة كلها وكانت لدينا خمس سيارات دورية هناك جابت المنطقة من فرسوفيس حتى هنا، لكننا لم نظفر إلا بشخص واحد. استطعت أن أرى على الفور أنه ليس الشخص المقصود لأن المنحرف الذي نبحث عنه يقارب الخمسين عاماً، وهو صغير الجسم أيضاً، لكنه لا يملك حتى تذكرة قطار، فلماذا نهتم بالأمر؟».

أضاف زميله قائلاً: «لقد كان ذلك الرجل محرراً في صحيفة، أو شيئاً من هذا القبيل. وكان يمارس رياضة المشي بعد أن أصابته نوبة قلبية».

سألت السيدة فينوس: «أصحيح أنه خنق سبع نساء حتى الآن؟».

قال المتأنق حانقاً: «من الذي أخبرك بهذه الترهات يا آنسة؟ ليس لدينا بلاغات إلا عن جريمتي قتل وأربع محاولات اغتصاب، هذا كل شيء!»

سألت فينوس: «ومتى تمسكون به؟».

قال المتأنق وهو يربّت على قراب مسدسه: «لا تقلقي. نعرف ما علينا فعله. عرفنا حتى الآن أنه أشقر الشعر وأن طوله يتجاوز ست أقدام. وهو نحيل أزرق العينين». نظر الرجل إلى زميله الذي تنطبق تلك المواصفات عليه إلى حد مفاجئ، وقال: «إذا رأيت رجلاً بهذه الصفات، أخبرينا».

قال الرئيس واعداً: «بالتأكيد».

عند ذلك استدار المتأنق إلى القبطان مازحاً: «ماذا عن بنطالك أنت؟ متى تكبر وترتدي بنطالاً طويلاً؟».

أجابه القبطان: «في التابوت! لدي بنطال طويل جاهز في المنزل».

ضحك المتأنق ضحكة قصيرة ثم رفع يده اليمنى إلى حافة قبعته: «كل شيء واضح إذاً. كلما كانت لدينا أعين أكثر كلما رأينا أكثر».

قالت فينوس عندما استدار الرجل مبتعداً: «علينا أن ننتبه حتى لا نكنس أدلّتكم مع القمامة. ليست هذه جنحة بسيطة!»

انتهينا من التنظيف حول قصر الثقافة بحلول الحادية عشرة وعشرين دقيقة. وهكذا انتهت مهمتنا لهذا اليوم. حملنا معداتنا عائدين إلى صالة سوكول الرياضية سابقاً. لم يبق أمامنا إلا مهمة واحدة: الانتظار ثلاث ساعات حتى ينتهي وقت يوم العمل ونحصل على أجورنا. كان رفاقي قد حددوا الحانة التي يعتزمون الذهاب إليها. كنت أستطيع الذهاب معهم لكنني ما كنت راغباً في هذا. الذهاب إلى الحانة مرة واحدة كل حين من الزمن يكفيني تماماً.

كانت أول قصة قرأتها لفرانز كافكا، قصة تضم المقطوعات الشعرية الطويلة القليلة التي أنجزها. وكانت القصة تتحدث عن رحالة أراد ضابط في إحدى الجزر أن يريه آلة الإعدام الغريبة التي صنعها بمحبة وتفانٍ. لكن

الآلة تعطلت أثناء العرض وشعر الضابط بخزي كبير جراء هذا فوضع نفسه على كرسي الإعدام. يصف الكاتب تفاصيل الآلة الفظيعة بلغة تقريرية باردة كأنه يستطيع بهذا أن يحجب الغموض والمفارقة غير المفهومة في الأحداث التي قام بتسجيلها.

فتنني وفاجأني كثيراً سر الحدث الذي يبدو مستغلقاً في الظاهر، الحدث الذي أحبطني وأحزنني في الوقت عينه.

لكنني ما كنت قادراً على فهم القصة إلا على المستوى الأكثر سطحية. بدا لي الضابط القاسي المتحذلق المتحمس لمهمات الإعدام صورة إشكالية للضباط الذين قابلتهم، صورة أولية للضابط هوس في معسكر أوشفيتس. وعجبت كيف يستطيع الأدب لا أن يعيد إلى الحياة من ماتوا فحسب بل أن يتنبأ بملامح أولئك الذين لم يولدوا بعد!

وفجأة وجدت نفسي قد عدت إلى تلة فيشراد. سرت عبر الحديقة حتى وصلت إلى المقبرة وإلى الكنيسة المستديرة القديمة التي كانت محاطة بسقالات البناء. لم أدخل هذه الكنيسة من قبل رغم أنني أستطيع رؤيتها في البعيد عندما أقف على الجرف خلف بنائنا. بل إن عندي في الحقيقة لوحة قديمة نافرة تمثّلها كتب عليها: «قدس قدوس. مدير ومتصرف وواعظ كنيسة بطرس وبولس على الملة الفاتيكانية الرومانية في براتسلافا، بوهيميا، المنطقة آ، عام 1086. أقيمت ثم هدمها الهسيّون ودمروها وسووها بالأرض ثم بنيت من جديد في الثاني من نوفمبر العام 1420».

كان المبنى على اللوحة يبدو مختلفاً عن المبنى المنتصب أمامي الآن. وما كان هذا لأنه قد هُدم ودمر وسوي بالأرض على أيدي الهسيين من أتباع جون هاس فحسب بل لأن الكنيسة بنيت من جديد عدة مرات منذ زمن صناعة تلك اللوحة. وفي كل مرة كان البناء يجري على نحو أسوأ قليلاً من المرة السابقة. كل شيء يعاد صنعه في بلادنا الآن: المعتقدات،

والمباني، وأسماء الشوارع! وفي بعض الأحيان يجري إخفاء مُضيِّ الزمن، أما في أحيان أخرى فهو يلفق تلفيقاً طالما أن لا شيء يبقى ليكون شاهداً حقيقياً جديراً بالثقة.

أثناء سيري حول الكنيسة الصغيرة لاحظت أن بابها نصف مغلق. استرقت نظرة إلى الداخل فرأيت كومة فوضوية من أدوات البنائين والدلاء وألواح السقالات. وكان فيها عدد من المقاعد المغطاة بقماش مشمع. ولمحت عند طرف المذبح واحداً من رفاقي في هذا الصباح، ذلك الذي ذكّرني بالطبيب الذي أجرى لي جراحة استئصال اللوزتين. من الواضح الآن أنه غارق في التأمل، من غير سترته البرتقالية.

آثرت عدم الدخول فما كنت أريد إزعاجه، وما كنت أود الدخول في حديث معه أيضاً.

لحق بي في الحديقة وقال متذمراً: «كلام فارغ! يجعلونك تتسكّع كل هذا الوقت في انتظار استلام نقودك».

أومأت برأسي. قال لي إن اسمه رادا! لقد انتبه إلى اسمي منذ رآني في الصباح. قال إنه تشارك غرفة واحدة منذ أربعين عاماً مع شخص اسمه مثل اسمي في ندوة ليتوميريس.

قلت له إن أقاربي كلهم ماتوا أثناء الحرب وإن القريب الوحيد الباقي هو أخي، وهو يصغرني بكثير!

كان له شقيقان أصغر منه. يعيش الشقيق الأوسط في تورنتو. أما الأصغر فهو طبيب أشعة، لا بد أنه طبيب جيد! لكنه أراد أن يكون رحالة، لا تدب فيه الحياة حقاً إلا عندما يرى مكاناً جديداً. والحقيقة أنه كان طيلة الوقت في مكان ما خارج البلاد. لقد كان في كمبوديا في الآونة الأخيرة!

«هل تصدق هذا؟ لقد تعلم لغة الخمير حقاً! ليس الأمر عنده إلا نوعاً

من التسلية فهو قادر على تعلم لغة جديدة في بضعة أسابيع!».

اجتزنا بوابة قرميدية واقتربنا من المناطق التي نظفناها ذلك الصباح. كنت سعيداً لأن نوبة عملي صارت ورائي الآن ولأنني صرت أستطيع أن أسير في ذلك الشارع الهادئ الصغير الذي اكتست أرضه الآن بمزيد من أوراق الأشجار المصفرّة المتساقطة من الحدائق المجاورة، أستطيع أن أمر بأعين المنازل المظلمة التي تحدق بي متعبةً، لكن راضيةً أيضاً!

تجمدت على نحو مفاجئ! لمحت رجلاً مشنوقاً في إحدى النوافذ. كان وجهه مضغوطاً على إطار النافذة وقد خرج لسانه الطويل من فمه. وكان وهج بلون الدم يغمر الرجل من الأسفل.

لاحظ رادا ما كنت أنظر إليه فقال: «فلنر ما وضعه فناننا في واجهة العرض اليوم».

أدركت أن ما رأيته في النافذة ما كان إلا دمية متقنة الصنع. وعندما نظرت بتدقيق أكبر رأيت في النافذة رأساً آخر، نصفه رأس أنثى ونصفه رأس كلب انغرست أسنانه في فخذ الرجل المشنوق.

ما كان صاحبي فرحاً بهذا: «يا لطيف! لا بد أنه قد استيقظ معكر المزاج هذا الصباح. إنه يضع عادةً أشياء أكثر إثارة للبهجة في نافذته. منذ فترة بسيطة وضع فيها بهلوانات متشقلبة ملونة. أجيء خصيصاً إلى هنا أحياناً لأرى ما ابتدعته أفكاره. أما أخي الذي جاء معي ذات مرة فقد قال إن هذه أعمال رجل مجنون». عاد السيد رادا إلى حديثه عن أخيه الذي بدا لي أنه يلعب دوراً مهماً في حياته، «كل من لا ينسجم مع قالب محدد ليس إلا مجنوناً في نظره. وهو في الواقع يرى أن العالم كله مجنون. إنه يقول إن العالم في حاجة إلى هز عنيف، إلى نوع من ثورة عظمى تزيل الفوارق بين الجياع والشبعى. نحن نتجادل كثيراً، حتى وقت غير بعيد على الأقل،

عندلم يعد ذات مرة وحدثني عن ثورة لا أستطيع قبولها أنا نفسي! بالقرب من إحدى المستشفيات رأى بئراً ممتلئة إلى حافتها بأشخاص قتلى. جثث في كل مكان، ما كان يستطيع أن يتخيل ذلك حتى تخيلاً! لعله رأى ما تجلبه أي ثورة للناس». توقف رادا ناظراً من حوله، لكننا كنا وحيدين في ذلك الشارع المكنوس، «إنه يوم القيامة! تلك كانت الكلمة التي استخدمها رغم أنه لم يكن قد قرر أن يؤمن بيوم الحساب ورغم أنه كان يرى في الثورة نوعاً من رؤيا شعرية على الأكثر».

لم تكن عيادة زوجتي بعيدة عن مكان وجودنا. كانت غرفة الانتظار خاوية لحسن الحظ. قرعت الباب. وبعد برهة وجيزة أطلت ممرضة شابة برأسها من خلف الباب مبتلعة كلمات استياء كانت على طرف لسانها، دعتني إلى الدخول!

رأيت ليدا جالسة خلف مكتب تشغل نصفه تقريباً باقة كبيرة من الجربيرا. كانت تفحص شيئاً بين يديها.

«لقد توقفت لرؤيتي! هذا لطف منك».

«كنت ماراً من هنا».

«هل أنت ذاهب إلى البيت رأساً؟».

«فكرت في المرور على أبي أولاً».

«لطيف أنك عرّجت. أتريد بعض القهوة؟».

«لا! شكراً». إن زوجتي تعرض عليَّ القهوة منذ خمسة وعشرين عاماً! ألم تلاحظ أنني لا أشرب القهوة؟

اختفت الممرضة الصبية في مكان ما، سمعت صوب باب ينغلق بهدوء. جلست على تلك الكنبة التي عادة ما يجلس عليها أشخاص مصابون بالاكتئاب أو القلق أو الإحباط، أو بعقدة أوديب، أو حتى بميول انتحارية. أوجعتني قدماي!

أشارت إلى الأزهار قائلة: «هل رأيت هذه الباقة التي جاءتني؟».

قلت إنها جميلة جداً وسألتها عمن جلبها. كانت زوجتي محبوبة عند مرضاها. كانت تبعث السرور في أنفسهم وكانت تمنحهم من الوقت أكثر مما هي مضطرة لفعله. وكانوا يجلبون لها الزهور تعبيراً عن امتنانهم. متى جلبتُ لها زهوراً آخر مرة؟

كنت أقدم الزهور للمرأة الأخرى وأقول لها مراراً إنني أحبها كثيراً! إنها تثير في نفسي مشاعر الرقة مرة بعد مرة.

كان عندي بعض مشاعر الرقة تجاه زوجتي، لكنني كنت أخشى إظهارها لأن من المرجح أن يجعلها ذلك تبدأ بالحديث عن المشاعر، بل تطلبها مني طلباً!

جاءتها الزهور من مريضة كانت قلقة عليها في الواقع. إنها فتاة في التاسعة عشرة تقريباً لكنها لا تزال عاجزة عن القبول بأن أبويها منفصلان. لقد كفت عن الدراسة وكفت عن الاهتمام بنفسها. لا أصدق مقدار تدهور حالتها في الأسابيع الأخيرة!

واصلت زوجتي الحديث عن الفتاة فقد كانت قلقة على مستقبلها! إنها تحمل عبء مرضاها دائماً. إنها تحاول مساعدتهم وتعذّب نفسها إن هي فشلت في ذلك. لعلها كانت تحدّثني عن تلك الفتاة لتجعلني أدرك حجم الآثار المدمرة التي يمكن أن تنتج عن انفصام عرى الزواج. من المؤكد أن حالات من هذا النوع تؤثر فيها تأثيراً شديداً.

حدّثتها الفتاة اليوم عن أحلام تراها: كانت تمشي عند الغسق في طريق بين الحقول. وفجأة، رأت أمامها ألقاً. كان هذا الألق يقترب منها ورأت الأرض تنشق أمامها فتندفع ألسنة اللهب من الأعماق. أدركت أنها لن تستطيع الهرب من النار لكنها لم تخف! لم تحاول الهرب بل وقفت تنظر إلى الأرض تنفتح أمام عينيها.

إنني أنظر إلى زوجتي، إلى قسمات وجهها الحية. ما زالت جميلة! لا غضون في وجهها حتى الآن، أو لعلّي لا أراها. إن مظهرها الآن يختلط في نظري بمظهرها منذ زمن بعيد، أعجبني هذا أم لم يعجبني.

«أخشى أن تفعل شيئاً بنفسها».

نهضت ورحت أمسّد شعرها.

فتحت الباب نصف فتحة ناظرة صوب غرفة الانتظار: «أتريد أن تذهب الآن؟ لا أحد ينتظر! لست مضطراً إلى الذهاب. لكنك لم تقل لي،». انتبهت زوجتي للأمر فجأة، «كيف كان الأمر، ذلك،». كانت تفتش عبثاً عن كلمة تصف بها كنّاسي الشوارع.

«سأحدثك عن ذلك في المساء».

«لا بأس! فلتكن أمسية دافئة». رافقتني حتى الباب وقالت إنها مسرورة لمجيئي. إنها تسر دائماً عندما تراني على نحو غير متوقع.

وددت أن أقول لها شيئاً مثل ذلك، شيئاً من قبيل إنني أحس بالانتعاش دائماً في حضورها، أو إنني أشعر بالدفء معها. لكنني لم أستطع جعل نفسي أقول شيئاً من هذا.

عادت من جديد وسحبت أكبر زهرة من الباقة ثم قدمتها لي حتى آخذها إلى والدي. كانت الزهرة في أوج تفتحها، صفراء داكنة مع لمسة من لون كهرماني عند حوافها.

لم تكن تعرف، من الواضح أنها لم تلاحظ أبداً، أن والدي ما كان يحب الأشياء غير اللازمة، أو غير المفيدة، من قبيل الأزهار!

قبّلتها سريعاً ثم افترقنا.

في البيت، قرأت في سفر الرؤيا: «ثم بوّق الملاك الرابع فضرب ثلث الشمس وثلث القمر وثلث النجوم حتى يظلم ثلثهن والنهار لا يضيء ثلثه

والليل كذلك، ثم بوّق الملاك الخامس فرأيت كوكباً قد سقط من السماء إلى الأرض وأعطي مفتاح بئر الهاوية ففتح بئر الهاوية فصعد دخان من البئر كدخان آتون عظيم فأظلمت الشمس والجو من دخان البئر». وقرأت في موضع آخر: «ثم متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض، ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر، فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم، وإبليس الذي كان يُضلهم طُرح في بحيرة النار والكبريت، ثم رأيت عرشاً عظيماً أبيض والجالس عليه الذي من وجهه هربت الأرض والسماء ولم يوجد لهما موضع».

افترض الناس على مرّ العصور، والأرجح أنهم افترضوا ذلك منذ بدأ تفكيرهم في الزمان، أي في ماضيهم نفسه، أن الفردوس كان في بداية كل شيء. وكان الناس يعيشون فيه سعداء على هذه الأرض حيث...

لا خوذات ولا حِراب: الناس آمنون

من غير جنود لإخضاع الأمم.

لكنهم، في الوقت عينه، تنبأوا بالخراب. كان هذا أمراً لا مهرب منه لأنه سيحدث بقرار من السماء!

عند المساء، جاءت صحافية فرنسية إلى بيتنا على نحو غير متوقع. كانت شابة، وكانت تشع عطراً فرنسياً وثقة بالنفس! ابتسمت لي بفم شهواني متسع كما لو أننا كنا صديقين منذ زمن بعيد. أرادت أن تعرف كيف يمكن أن يتطور النضال من أجل حقوق الإنسان في بلادي، وما هو موقف بني جلدتي من بني جلدتها. هل يرحبون بهم إن جاؤوهم محررين؟ كانت مهتمة بأن تعرف أيضاً إن كنت أعتبر الحرب مشكلة وإن كنت أرى حركة السلام أمراً مفيداً، وإن كانت الاشتراكية شيئاً قابلاً للتطبيق!

لعلها كانت تظن حقاً أن كل سؤال من أسئلتها يقبل الإجابة في صورة صالحة لعمود في صحيفة! راحت تسألني كما لو أنني كنت أمثل حركة من الحركات، أو كأنني أمثل نوعاً من مصير مشترك على الأقل. لم تدرك أنني لو كنت ممثلاً لأي شيء لكففت عن كوني كاتباً، عندها أكون متحدثاً باسم ذلك الشيء فحسب! لكن هذا لم يزعجها البتة. لم تكن في حاجة لي باعتباري كاتباً، ولم تكن لتقرأ أي كتاب من كتبي أصلاً!

قرأت منذ فترة وجيزة مقالة في صحيفة أسبوعية أمريكية تتحدث عن أربعة عشرة شخصاً حمقى تماماً إلى درجة عدم القدرة على الكلام، لكنهم تعلموا «لغة الحمقى». هذا اسم لغة فيها 225 كلمة! وقد جرى تطويرها في مدينة أتلانتا بغرض التواصل بين البشر والشامبانزي. ما من شك في أن كاتب تلك المقالة كان يرى أن تلك المخلوقات البشرية البائسة سوف تتمكّن شيئاً فشيئاً من التواصل بهذه اللغة. خطر في بالي على الفور أنه قد تمّ العثور أخيراً على لغة تستطيع روح عصرنا التحدث بها. ولأن تلك اللغة سوف تنتشر سريعاً من قطب الكرة الأرضية إلى قطبها الآخر ومن شرقها إلى غربها فإنها ستكون لغة المستقبل.

لست أفهم، ولست أحاول أن أجعل نفسي مفهوماً عند من لا يعترفون إلا بالأدب الذي يستطيعون السيطرة عليه، الأدب المكتوب بلغة الحمقى تلك، بفضل هؤلاء الناس. وأخشى أنني لا أستطيع التواصل حتى مع تلك الصحافية الجميلة مهما أكدت لي أنها تريد الحرية الكاملة لي ولأمتي مثلما تريدها لنفسها ولأمتها. أخشى أننا صرنا نتحدث بلغتين تباعدتا كثيراً!

عندما همّت الفرنسية بالرحيل سألتني عمّا كنت أكتبه في ذلك الوقت، من باب اللياقة وليس لأي سبب آخر! دهشت عندما سمعت أنني أريد الكتابة عن كافكا. من الواضح أنها تظن أن أناساً في مثل وضعي يجب أن يكتبوا عن أشياء أكثر وزناً، عن الاضطهاد، والسجون، وحالة انعدام

القانون التي تمارسها الدولة. لكن، لم يفتها أن تسألني إن كان اهتمامي بأعمال كافكا نابعاً من أنها ممنوعة!

لكنني كنت أكتب عن كافكا لأنني أحبه! أحس بأنه يحدثني على نحو مباشر وشخصي من ماض بعيد. وحتى أكون دقيقاً قلت لها إن أعماله لم تكن ممنوعة. كل ما في الأمر هو أنهم يحاولون إبعادها عن المكتبات العامة وعن أذهان الناس.

أرادت الصحافية أن تعرف ما الذي يجعلهم يفعلون ذلك بأعمال كافكا خاصةً! هل هو هدّام من الناحية السياسية إلى هذا الحد؟ أم لعل ذلك لأن كافكا يهودي؟

أظن أنه يصعب العثور في بلادنا على كثير من الكتاب أقل اهتماماً من كافكا بالسياسة أو بالشؤون العامة. لا ذكر في أعماله للحرب أو للثورة، أو للأفكار التي قد تسهم في حدوث أي منهما، وليس فيها أيضاً أي شيء يحمل إشارة مباشرة إلى يهوديته. كان سبب محاربة كتابات كافكا في بلادنا مختلفاً عن ذلك كل الاختلاف. لا أعرف إن كان يمكن تحديد السبب تحديداً بسيطاً، لكنني أفضل القول إن لم يكن موضع اعتراض في شخصية كافكا أكثر من أي شيء آخر هو صدقه.

ضحكت الصحافية. من عساه لا يضحك لسبب مثل هذا؟

غادرتنا قبل منتصف الليل. أسرعت إلى السرير فقد كنت متعباً بعد انقضاء يومي الذي بدأ في الخامسة صباحاً.

تكوّرت زوجتي بجانبي أثناء نومها، لكنني ما كنت قادراً على جعل تفكيري يرتاح قليلاً. جثمت مخالب ثقيلة خانقة فوق صدري.

منذ زمن بعيد، بعد أن تحسَّنت أحوالي من جديد، كنت في كل مساء لا أطيق انتظار الصباح التالي. كان الليل يشبه كلباً غاضباً يعترض طريقي. وفور نهوضي من السرير في الصباح التالي كنت أمر بنوافذ الشقة كلها،

النوافذ التي تطل من ثلاث جهات، لأستمتع بمشهد الفسحة الواسعة الخضراء أو البيضاء بفعل الثلج. كنت أستمتع بعملي وبالناس العاملين في مكتب الجريدة. وكنت أتوق إلى رؤيتهم، وإلى مقابلات غير متوقعة يمكن أن تحدث. وكنت أفتح رسائلي والأمل يملأني: كنت أتوقع دائماً ورود أخبار طيبة، بوحاً مثيراً أو اعترافاً بالحب. وكنت أتوق إلى قراءة كتب لم أقرأها. كنت أقرأ في كل لحظة أستطيع توفيرها، في القطار، وفي غرفة الانتظار عند الطبيب، وفي الترام، بل حتى في أوقات الوجبات. كنت أمتص عدداً هائلاً من الأحداث والحبكات التي راحت تتداخل وتتشابك في عقلي حتى لم أعد أعرف أصل كل واحدة منها. كنت أستمتع بالحياة فرحت أندفع من تجربة إلى تجربة حتى صرت مثل شخص شره مهووس بالأكل يمنعه طمعه الشديد في الوجبة القادمة من الاستمتاع بما يأكله الآن. ما كنت أشرب أو أدخن، لا لسبب ديني بل لخوفي من أن أثلم حدة التلقي عندي فأحرم نفسي من تجربة مثيرة أو من لقاء محتمل. كنت أعرف مذ كنت طفلاً أيام الحرب أننا كلنا نعيش على حافة هاوية، على شفا حفرة مظلمة لا بد أن نقع فيها ذات يوم. لكنني كنت أشعر بأن فكيّ تلك الحفرة قد ابتعدا عني قليلاً وأشعر بأنني مربوط إلى الحياة بعدد لا يحصى من الخيوط التي تشكّل كلها شبكة محكمة متينة أتأرجح فيها، في الوقت الحاضر، على ذلك الارتفاع الذي يبعث الدوار.

لكن تلك الخيوط كانت تتقطع في صمت. اهترأ بعضها مع العمر، وانقطع بعضها بفعل خراقتي أنا، وقام أشخاص آخرون ببتر بعضها الآخر، أو لعل الزمن الذي نعيش هو من بترها!

وهكذا، صرت أحس بتلك المخالب الثقيلة على صدري كلما استلقيت للنوم! وعندما أستيقظ في الصباح أرغب في إغماض عينيّ من جديد وفي مواصلة النوم.

منذ بعض الوقت جاءني أحد زملاء ابنتي في المدرسة. جاء حتى يراني بعد أن جرح معصمه. سألني: لماذا يجب أن يعيش الإنسان؟

ماذا يمكن أن أقول له؟ إننا نعيش لأن هذا هو قانون الوجود. نعيش لأن علينا إيصال رسالة لا نستطيع سبر غورها لأنها غامضة سرية لا يمكن كشفها. كان أبي مثلاً يعيش من أجل عمله: كلما أفلح في بعث الحركة في شيء ساكن كلما سر سروراً يجعله لا يفكر في شيء آخر. وكان مستعداً للتضحية بكل المسرات الأخرى وبنومه أيضاً من أجل هذا الهدف. لكن، لعل هذا هو السبب الذي كان يجعله يجفل عندما يرى شروق الشمس أو عندما يسمع مقطوعة لشوبرت. خطر في بالي أيضاً أننا نعيش لأن أمامنا عدداً من اللقاءات التي تستحق أن نعيش من أجلها. مقابلات مع أشخاص يظهرون عندما لا نتوقع ظهورهم. أو مقابلات مع كائنات أخرى تلمس حياتها حياتنا بلمحة خجولة واحدة. ماذا يمكن أن أقول له أكثر من هذا؟

لكنه جرح معصميه مرة أخرى ذات مساء. ثم تمكن، رغم نزيفهما، من شنق نفسه على شجرة عند الطرف الشمالي لجزيرة زوفين في منطقة فلتافا بينما كان أصدقاؤه يمضون وقتاً طيباً في قاعة الرقص القديمة هناك. ذرفت ابنتي دموعاً مُرّة عندما أخبرتني بما حدث، لكنها انتهت بالقول عن زميلها الذي مات: «لكنه كان عادياً تماماً من جميع النواحي الأخرى!».

أثناء زيارتي لوالدي بعد الظهر بدأت حرارته ترتفع تدريجاً على نحو مفاجئ. راحت أسنانه تصطك وخبت عيناه. بللت قطعة قماش بالماء وحاولت أن أمسح بها جسده المحموم لكنه قاوم ذلك وانتزع القماشة من يدي صائحاً مرة بعد مرة: خذها واحرقها!

لقد حبسوا أبي مرتين في حياته. وقام بتفتيش بيتنا اثنان من أجهزة الشرطة السرية. لعله تحدث عن بعض الرسائل أو الأوراق! لكنني كنت أسأل نفسي: ما الذي يجب أن آخذه فأحرقه؟

حدق والدي فيّ بنظرة لا حياة فيها من عينيه الزرقاوين الضاربتين إلى الرمادي، بعينيه اللتين كانتا لا تزالان زاهيتين عندما كنت طفلاً، وقال: «عليك أن تحرق الحُمى، طبعاً!».

وهكذا أخذت الحمى وأشعلت ناراً صغيرة على أرض الغرفة ببعض أوراق الجرائد وببعض أوراق لي كتبت عليها ثم ظلت راقدة من غير فائدة في الخزانة نحو ثلاثين عاماً. وعندما رحت أحرق تلك الحمى رأيت وجهها في ألسنة اللهب. بدا مثل وجه شاحب لدمية من الخزف الصيني، وكنت أنتظر أن يذوب هذا الوجه أو أن يتشقق ويتحطم. لكنه صمد للنار، كان يتلوى ألماً فحسب. لاحظت أن الدمية تبكي، كانت الدموع تلمع على وجنتيها الشاحبتين في لهيب النار.

خبت ألسنة اللهب. مضيت إلى أبي ولمست جبهته. كانت باردة مبللة بالعرق. فتح عينيه النفاذتين وحاول رسم ابتسامة جاءت شبه مذنبة. كان قادراً على الابتسام على نحو رقيق أصيل يجعل أي شخص يراه للمرة الأولى يدرك بالتأكيد أنه أمام شخص متميز.

نظرت من حولي. كانت الحمّى راقدة وسط الرماد! وكان وجه الدمية الخزفي جافاً من جديد، متحفزاً شرهاً!

أردت النوم لكنني كنت أستطيع الإحساس بالليل يزحف ناعماً من حولي مثل قطة ماضية إلى الصيد، لا يهمها شيء إلا فريستها الموعودة. رحت أتفحّص الخيوط التي ما زالت الحياة تربطني بها، ما زالت تحملني فوق تلك الحفرة المظلمة التي صار فكاها قريبين مني إلى حد أستطيع معه أحياناً أن ألمس أسنانها الحادة الصقيلة.

كانت كتابتي هي ما يربطني أشد من أي شيء آخر: كل ما أعيشه يصير صوراً بالنسبة لي. وفي بعض الأوقات تحيط هذه الصور بي إحاطة تامة

حتى أشعر بأنني في عالم آخر. وكان وجودي في ذلك العالم يملأني سعادة، أو إحساساً بالانفراج والراحة على الأقل. منذ سنوات مضت، أقنعت نفسي أنني سأتمكن من إيصال هذه الصور إلى أحد ما، بل أقنعت نفسي أيضاً أن ثمة أشخاصاً ينتظرون هذه الصور حتى يشاطروني فرحتي وأحزاني. فعلت كل ما استطعت فعله حتى أفي بالآمال المفترضة لدى هؤلاء الناس: ما كنت أفعل هذا انطلاقاً من أي اعتداد بالنفس أو من أي إحساس بالتفوق بل لأنني أردت أن يشاركني أحد عالمي.

أدركت في ما بعد أنه، في عصر يعتنق كثير من أهله روح «لغة الحمقى» اعتناقاً طائعاً مخلصاً، وإن كان لمجرد تجنب مواجهة فرسان سفر الرؤيا، لا تهتم إلا قلة صغيرة من الناس بصور شخص آخر أو بكلماته.

ما زلت أكتب، أضع الكلمات والجمل معاً لأصنع أحداثاً ورؤى. وكثيراً ما أكافح أياماً من أجل فقرة واحدة، أملأ صفحات بالكتابة ثم أرميها بعيداً، أواصل محاولة إعطاء ما في رأسي أكثر التعابير كمالاً ودقة، وأحاول تفادي أي سوء فهم، أحاول ضمان ألا يشعر أي امرئ ممن أخاطبهم أنني قد خدعته.

كلما أنهيت كتاباً أو مسرحية يثور جسدي ويعاقبني بالألم. وأعرف دائماً عندما أرسل المخطوط إلى الناشر أنني سوف أتلقى رداً من جملة واحدة: نعيد إليكم المخطوط لأنه لا ينسجم مع خطة النشر لدينا! عند ذلك أعير النص إلى بعض الأصدقاء وإلى عدد ممن لم يخضعوا لروح «لغة الحمقى» حتى الآن فلعلّهم يعيرون بعض أصدقائهم نسخاً منه. وأقوم أيضاً بإرساله إلى الخارج فسوف يُنشر هناك إذا لم يضِع في الطريق. لعل هذا بعد كل حساب هو الخيط الذي به أتعلق: قد يكون في هذا العالم حفنة من الناس أتواصل معهم رغم منغصاتي كلها.

واظبت على الكتابة طيلة هذه السنوات التي ما كان مسموحاً فيها

بنشر أي سطر يحمل اسمي في هذه البلاد، حين كان بعض أصدقائي يتجنبني بسبب احتمال أن تلقي صلتهم بي شيئاً من الظل على صورتهم. كنت أكتب معانداً رغم أن وحدتي كانت تلقي على روحي ثقلاً باهظاً في بعض الأحيان. كنت أجلس إلى طاولتي وأصغي إلى الصمت يبتلعني. ما كنت أسمع شيئاً إلا صوت نقرة طفيف لا يكاد يبين كلما انقطع واحد من تلك الخيوط. كنت أتوق إلى أمل ما أستطيع أن أتعلّق به. كان ذلك وقت ظهورها! ولو تلاقينا في وقت آخر فلعل واحدنا كان يمكن أن يمر بالآخر مرور الكرام؛ أما في تلك اللحظة فقد تبعتها مثلما يفعل رجل مخدَّر. ثم اقتضى الأمر عدداً من السنين حتى أعود إلى نفسي من جديد. وفي الوقت عينه، لم أتوقف أبداً عن إجراء حوار صامت معها. وحتى في أشد ساعات توقي إليها كانت كلماتي تموت في حنجرتي لحظة تنظر صوبي، كلما فصلني الليل عن لفتتها المعانقة الحانية كنت أصوغ إجابات على أسئلة وعلى عبارات لوم وأمنيات وتوق كنت قد تركتها من غير إجابة حتى ذلك الوقت.

والآن، عندما يستند الليل بظهره عليَّ كسولاً متراخياً كنت، بفعل العادة وحدها، أواصل تلك الرسالة الصامتة التي أدافع بها عن نفسي وأحاول إثبات أنني ما كنت أريد إيلامها. وقبل رمي تلك الرسالة في العلبة الكبيرة المملوءة برسائل وأمنيات لم تُرسل، بوعود وطلبات وآمال نصف مهموسة، كنت أحاول مرة أخرى أن أرسم صورة لما كانت تفعله في تلك اللحظة، أن أحاول تصور غرفتها على الأقل. من يدري، حتى إن كانت هناك؟ ما عدت أعرف كيف تمضي لياليها! لعلها تعود إلى بيتها الآن، تغلق خطواتها السريعة تلك الدائرة. إذا نهضتُ الآن وأسرعت خلفها فقد أتمكن من فتح تلك الدائرة، من ربطها إلى نفسي من جديد فننسى في تلك الدائرة كل ما يقع خارجها، كل ما كان وما، لا محالة، سيكون! لكنني كنت أعرف

أنني لن أفعل هذا. سوف أنهض في الصباح فقط لأنطلق إلى الشوارع التي قررت تنظيفها. خطر لي فجأة أن هذا هو السبب الذي جعلني أجد نفسي في الشارع أدفع العربة صباح الأمس. كنت في حاجة إلى الذهاب إلى مكان ما في الصباح فعلى الأقل سيكون لدي الآن دافع طبيعي لفترة من الزمن: أن أنطلق إلى مكان ما وأقوم بنوع من أنواع النشاط وأصغي إلى بعض الكلام، فقط حتى لا أضطر إلى الجلوس في وسط الصمت مصغياً إلى أصوات انقطاع الخيوط.

خطر لي أنني قد أكون في مكان جديد، أنني دخلت ذلك المكان حيث يولد النسيان. أو لعله القنوط! والفهم أيضاً! بل لعله الحب نفسه، لا سراباً، بل فضاء تتحرك فيه الروح.

القسم الثاني

بعد أربعة أسابيع، عند التاسعة صباحاً من جديد، جلسنا مرة أخرى، الفريق نفسه، في تلك الحانة حيث ذهبنا في يومنا الأول.

عندما ارتديت سترتي البرتقالية أول مرة ما كنت أعرف على وجه التحديد مدى استعدادي لتكرار التجربة لكنني، على سبيل البداية، كنت أعتزم المجيء مرة كل يومين على الأقل. كنت أتساءل عن مناطق براغ التي سيأخذني هذا العمل إليها، ما هي الشوارع الصغيرة الضيقة التي ما كان يحتمل أن أسير فيها في أحوال أخرى؟

إنني مولع بمدينتي! ليس بالجزء الذي تسير إليه جموع السائحين، بل بأطراف المدينة أيضاً، حيث ظل عدد من المنازل الريفية منتصباً بين مبانٍ تعود إلى زمن التقسيم. لعلها بيوت منسية، بل الأرجح أنها محكومة بالموت منذ الآن بموجب خطط التطوير في المنطقة، فقد ظلت باقية على نحو غير متوقع جادةٌ تزينها أشجار الحور أو تلة حرجية صغيرة، أو أسيجة تحمل لافتات وإعلانات قديمة لفتت نظري بألوانها الزاهية لكنني لم أقرأ ما كتب فيها. حدث أكثر من مرة، عندما كنت أدفع عربتي التي تحمل سلة القمامة، أن اكتشفت لوحة باهتة على جدار مألوف المظهر، وسخ عادة.

وحدث أيضاً أن اكتشفت تمثالاً نصفياً أو حتى نصباً تذكارياً عتيقاً في زاوية قصيّة. إن هذه الأشياء موجودة لتذكرنا بأن فناناً أو مفكراً أو عالماً أو شخصية وطنية قد ولد أو عاش أو مات هنا منذ أعوام طويلة مضت. بكلمات أخرى، روح من قد يفترض أنه أسمى من الآخرين، أسمى منا! لكن، كان يحدث كثيراً في واحد من تلك الشوارع الصغيرة أو بين الحدائق الذاوية أن أتذكر شخصاً أعرفه عاش هنا، فناناً أو مفكراً أو عالماً أو شخصية وطنية، شخص لم يعد هنا الآن، شخص صار خلف التلال وخلف الأنهار، لكن ليس خلف نهر ستايكس على الغالب، هذا محزن لكنه نصيب الإنسان المألوف، شخص لاجئ الآن، أو شخص أقصي إلى دائرة الخزي في بلادنا! لا حاجة للقول إن جدران هذه المنازل لم تكن تحمل لوحات ولا تماثيل نصفية ولا حتى بطاقات تذكرنا أن أرواحاً بشرية عاشت هنا وغامرت بالصعود إلى أشياء أكثر سمواً. كنت أسترق النظر إلى زملائي في هذه اللحظات، لكنهم لم يكونوا يلاحظون شيئاً، اللهم باستثناء السيد رادا الذي قد يومئ لي برأسه إن كان معنا.

وهكذا رحت، مرتدياً سترتي البرتقالية، أجول في الشوارع والأزقة الصغيرة في مدينتي التي كانت تتخلى عن روحها شيئاً بعد شيء. وكان زملائي معي، كأنهم شهود! كنا ننظف المدينة التي تساقطت فيها القمامة وتساقط الرماد وهباب الفحم والمطر المسموم والنسيان. كنا نسير في ستراتنا البرتقالية مثل طيور الفلامنكو، مثل ملائكة اليوم الماضي إلى الموت، وكنا نكنس القمامة والنفايات، ملائكة تجاوزوا الحياة وتجاوزوا الموت وتجاوزوا زماننا وكل زمان، لا تكاد «لغة الحمقى» تلمسهم. كان حديثنا يشبه مكانسنا العتيقة، وكان يأتي من مسافة بعيدة في الماضي ثم يمضي في دروب عتيقة عتيقة. لكن آخرين كانوا يتحركون من خلفنا: كان كناسو «لغة الحمقى» يصلون في مركباتهم المزينة بالأعلام، متظاهرين

بأنهم يكملون ذلك التنظيف الكبير، يكنسون ذكريات الماضي كلها، كل ما كان عظيماً في الماضي! وعندما يتوقفون فرحين في مكان يبدو لهم أنه قد صار نظيفاً تماماً يأتون بواحد من فناني «لغة الحمقى»، بواحد منهم، فيقيم هنا نصباً للنسيان، تمثالاً مؤلفاً من جزمة طويلة ومعطف وبنطال وحقيبة، وفوقها كلها وجه خالد لا نشعر أن وراءه روحاً أو حياة لكنهم يعلنونه، وفق العقيدة الرسمية، وجه فنان أو مفكر أو عالم أو شخصية وطنية.

يهطل رذاذ مطر خفيف منذ الصباح الباكر. لعله ليس مطراً حقيقياً بل مجرد تكاثف للضباب الذي يلفّع المدينة بالسخام ويساعد على غرقها في النسيان.

في أيام مثل هذا اليوم تختنق داريا فعلاً وتبدو الحياة غير محتملة في نظرها، يصبح الحجر أو الخشب غير قابل للعمل عليه، وعندما تتساقط القطيرات التي لا تنتهي من السحب تتساقط الدموع من عينيها أيضاً فلا تفلح مواساتي في إيقافها.

زملائي ليسوا في مزاج طيب أيضاً! كدت لا أعرف السيدة فينوس اليوم. كانت عينها اليمنى متورمة ومن تحتها كدمة زرقاء اللون. اختفى اللون الأسمر من وجه القبطان في الأيام القليلة الماضية، صار رمادياً! حتى رئيسنا نفسه راح يسير صامتاً في بدلة العمل المغسولة والمكوية.

طلبت لنفسي شاياً ساخناً، وطلب القبطان شراباً قوياً بدلاً من بيرته المعتادة. استدار صوب السيدة فينوس قائلاً: «أخبريني، من فعل بك هذا؟».

قالت بحدة: «رجل أفضل منك! لو كان مثلك لمزقته إرباً حتى قبل أن يرفع يده».

كانت السيدة فينوس تحب إظهار مقدار قوتها، لكنني أعتقد بأنها طيبة القلب، وأنها دفعت ثمن طيبة قلبها طوال عمرها. من الواضح أنها أحبت

رجالاً كثيرين، أو عاشت معهم على الأقل، لكنهم تركوها جميعاً أو هربت هي منهم. لقد ربت ثلاثة أبناء رغم أنها لم تكن تملك وقتاً لتربية أحد على الأرجح. عندما كنا صغار السن، كان نظام الأشياء يقوم على أن من واجب النساء تكريس أنفسهن لأشياء أكثر أهمية من رعاية الأطفال. تعيش فينوس وحدها الآن. كان الوصول إلى شقتها، كما فهمت، يتم عبر ممر فوق الدرج. وتعني كلمة «شقة» هنا غرفة واحدة فيها موقد للطبخ. وقد أعطاها ابنها الأكبر، وهو عامل في مصنع الحديد في فيتكوفيس، جهاز تلفزيون تستطيع بواسطته متابعة برامج «لغة الحمقى» بالألوان! وهكذا كان لديها رفيق تستطيع الاعتماد عليه في الأمسيات إن فضلت الذهاب إلى البيت على الجلوس في الحانة مع المجموعة. وكان يعيش في نهاية ذلك الممر، أو يموت موتاً بطيئاً، أرملٌ وحيد أقعدته أزمة قلبية قبل سنوات كثيرة. كانت فينوس تذهب من وقت لآخر فتنظف غرفته وتصنع له طعاماً، لا يجوز أن يبقى الرجل وحيداً مثل كلب مهجور.

تنهد القبطان قائلاً: «نعم، قد تفعلين ذلك إن أمسك بي رجلان لمنعي من الحركة».

لم يكن يظهر شيء شاذ في حديثه عادة. وكان في معظم الأحيان يستطيع إخفاء غرابة أفكاره. ما كان الرجل قبطاناً في الحقيقة، لكنه عمل في حوض للسفن قبل أن يفقد يده. كانت الاختراعات هي ميدان اهتمامه الحقيقي، لا السفن! هذا ما أخبرني به همساً في اليوم الثاني لعملنا في كناسة القمامة معاً: لقد فكر في آلات تستطيع تحسين حياة البشر. لكن من المؤسف أنه لم يصادف أي تفهم حتى الآن. وحيثما اتجه حاملاً اختراعاته كان يصادف أشخاصاً عمياً يجلسون خلف المكاتب ولديهم أوامر بالحيلولة دون أي تقدم ورخاء حقيقيين. وقد عرض عليَّ أن يريني بعض اختراعاته.

ما كنت مخطئاً عندما أحسست بأن وجهه مألوف بالنسبة لي!

كان ذلك أيام عملي في الصحف. في ذات يوم تلقى محرّر الصحيفة رسالة من مخترع رُفضت أفكاره. لقد ابتكر الرجل طريقة للاستفادة من الفضلات والقمامة، السخام خاصة، من أجل إزالة الجليد من القطبين الشمالي والجنوبي. كتبت يومها أننا لا نستطيع مساعدته في هذه المسألة. وبعد أيام قليلة جاء صاحب الرسالة إلى مكتب التحرير. كان رجلاً لطيفاً مسلياً! لم أر شيئاً غير طبيعي في مظهره، لم أر شيئاً يمكن أن يجعلني أشك في صدقه. كان وجهه أكثر اسمراراً مما هو مألوف في ذلك الوقت من العام، لكنه أخبرني أنه قد عاد من شواطئ أفريقيا منذ فترة وجيزة. هناك، حتى أثناء الليل هناك، عندما يعجز عن النوم لشدة الحرارة، كان يفكر في عدم التوازن الغريب الخطير في كوكبنا. إن فيه دفئاً في بعض الأماكن ورطوبة في أماكن أخرى، ولا شيء إلا الرمال أو الجليد في أماكن غيرها! وقد فكر طويلاً أثناء تلك الليالي في كيفية إزالة عدم التوازن هذا، لكن رأسه كان يضج بأفكار أكثر جنوناً من الأفكار التي نجدها في الجامعات. وقد اكتشف في النهاية غلطة أساسية ارتكبتها الطبيعة وارتكبها البشر. إنها كراهية اللون الأسود! أيوجد في الطبيعة شيء أسود اللون تماماً؟ وأما البشر فهم، عدا الصينيين، يعتبرون اللون الأسود لون حداد! لكن الأسود هو في الواقع اللون الذي يمتزج أكمل امتزاج مع قوة الحياة الأساسية، الدفء! أما الأبيض الذي يزعمون أنه لون البراءة، لون فساتين الزفاف، فهو يصد الدفء ولا يقبله. إنه لون الثلج، ولون معظم أنواع السموم. لا بد من إزالة مساحات البياض الشاسعة من على وجه الأرض. وعندها سوف تظهر الحياة حيث كانت الصحارى، وسوف يغزو الدفء المناطق التي لا تزال باردة حتى الآن. لقد تطلب الأمر زمناً طويلاً حتى يكتشف الرجل الوسيلة المناسبة والطريقة المناسبة. كانت الوسيلة المناسبة مزيجاً اخترعه بنفسه، محلولاً من السخام المذاب في سبعة أنواع من المواد المذابة باستخدام

ثلاث مواد وسيطة. وأما الطريقة المناسبة فهي إذابة الجليد في القطبين. ما إن يجري رش جليد القطبين بهذا المزيج حتى يفقد لونه الأبيض القاتل ويبدأ بامتصاص الحرارة ثم يذوب!

أدركت طبعاً أنني كنت أتحدث مع شخص مجنون أو مع شخص ظريف يقص عليَّ نكته العجيبة شديدة التفصيل. أو لعله هذا وذاك، معاً! لعله مخترع مجنون يقص عليَّ جنونه! لكنني وجدت وضعه مسلياً إلى حد جعلني أواصل الاستماع إلى رؤيته عن عالم المستقبل الذي يسمح بزراعة الأرز والبرتقال خلف الدائرتين القطبيتين وحيث يجري الحصاد مرتين سنوياً في بلادنا وتزدهر أشجار النخيل.

سمعته حتى النهاية، لكنني قلت له إنني لا أملك الوقت الكافي للذهاب معه حتى أرى كيفية عمل الآلة التي ترش ذلك المزيج. رفع الرجل كتفيه ثم ذهب بعد أن ناولني على سبيل الهدية بضع صور ملونة تظهر فيها مجموعة من أجسام غريبة الشكل مرتبة فوق العشب. ليست لدي ذاكرة تقنية وهذا ما يجعلني غير قادر الآن بعد هذه السنين كلها على تذكر أشكال تلك الأجسام. وقد ضاعت الصور عندما أجبرت على ترك الجريدة.

عاد الرجل بعد أيام قليلة. هل لاحظت أن ثلجاً جديداً قد هطل؟ لقد استعار سيارة جاره من أجل إقناعي بالذهاب لرؤية آلته. ما أن أراها حتى أدرك أهميتها الثورية فأكتب مقالة عنها في الجريدة!

حملتنا سيارة التاترا العجوز حتى كرالوبي. وهناك، عند أطراف المدينة، خلف تقاطع السكة الحديد مباشرة، توقفنا! كان بيتاً صغيراً، من الواضح أنه بيت شخص عازب. وعلى الجدار المواجه للباب الأمامي رأيت صورة ضمن إطار، صورة رجل شائب: إنها صورة أديسون إن ما كنت مخطئاً. ومن تحتها كتبت بأحرف كبيرة عبارة ذلك المخترع: «عملي عمل سلام». وكان عند النافذة مكتب مغطى بأوراق تحمل رسوماً وبمخططات ملفوفة.

وعلى الرفوف انتصبت نماذج سفن جيدة الصنعة. خرجنا من الباب الخلفي المفضي إلى فناء المنزل.

لاحظت أن الثلج الذي هطل في ذلك الصباح ما كان فيه شيء من البياض القاتل المعتاد، كان لونه رمادياً وسخاً! لم يلتفت دليلي حوله بل أسرع إلى سقيفة خلف المنزل وفتح بابها المزدوج العريض ثم دفع بآلته إلى الخارج. كان منظر الآلة يلفت النظر، عكس مظهر البيت نفسه. ذكرتني بمحرك بخاري عتيق: النحاس والعناصر المعدنية اللامعة! لعلها تصلح تماماً لأن تكون قطعة فنية في متحف. كان لها خرطوم طويل مزود بفوهة قاذفة.

دفع الرجل الآلة إلى الحديقة وفك الخرطوم ثم راح يدير بعض المقابض. خرج من الفوهة ضباب قاتم ذو رائحة نفّاذة. ورأيت ذلك الضباب يهبط فيستقر على الثلج، لكن الثلج الرمادي صار أخف لوناً بدلاً من أن يزداد اسوداداً. لا بد أن ثمة تفاعلاً كيماوياً يجري بين الضباب الصناعي وبين الغمامة الكيميائية التي هبطت من السماء. وهكذا وجدنا نفسينا وسط جزيرة شبه بيضاء في حين ظل كل ما حولنا قاتم اللون. لم أقل شيئاً، وظل الرجل صامتاً أيضاً. لم أر في عينيه خيبة أمل ولا سروراً أمام هذا المقلب المنفَّذ على نحو بارع. وبعد هنيهة أوقف الرجل الآلة وأعاد لف الخرطوم ثم دفع باختراعه اللامع فأعاده إلى السقيفة. اغتنمت لحظة وجوده داخل السقيفة وسرت سريعاً فوق السكة الحديد متجهاً إلى المحطة. وأثناء سيري قلت في نفسي إن هذا الرجل، حتى إن كان مجنوناً، ليس أكثر جنوناً من بقية بني البشر الذين كانوا، في توقهم واندفاعهم إلى مزيد من رغد العيش، يرشون العالم كله بضباب أسود ظانين أن هذا هو طريقهم المباشر إلى جنة عدن.

سيكون الأمر محرجاً إن تذكرني هو أيضاً! لكن الظاهر أنه لم يتذكّرني.

كان شديد الانشغال بمهمته في ذلك الوقت إلى حد جعله لا يملك وقتاً لملاحظة وجه شخص كان يمكن أن يفيده، بصفة وسيط على الأقل.

وعدته بالذهاب لرؤية اختراعه عندما أجد وقتاً لذلك، فلم يواصل الإلحاح.

قالت السيدة فينوس: «لعلك لا تعرف أن صديقك هاري ربما كان معي». بدا وجهها أكثر تورماً مما كان في الصباح. كانت تحدق فينا بعينها اليمنى مثل حدأة، «إنه ليس مثلك، فهو ليس مولعاً بالآلات قط!».

«إنه أفضل منك أيتها الجنية العجوز!» أخرج القبطان بعض التبغ ثم أخرج غليونه وراح يملأه بيده السليمة.

يوم الاثنين الماضي كان المطر أشد من مطر هذا اليوم. كان علينا أن نتوقف عن العمل قبل أن يحين الوقت. وبما أننا كنا قريبين من حيث يسكن القبطان، فقد بدت اللحظة مناسبة لزيارته.

قادني إلى منزل بدا لي أكثر تهاوياً من المنزل الذي أخذني إليه منذ سنين ليريني آلته. فتح الباب وعلّق قبعته على مسمار صدئ خلفه. كانت جدران الغرفة رطبة لم تعرف الطلاء منذ زمن بعيد. وتناثرت في كل مكان أكوام من أشياء يعلوها الغبار ومن ملابس مبعثرة. كان مظهر الغرفة وحجمها يوحيان بمقصورة في سفينة. وفوق السرير، كان على الجدار عدد من الرسوم، أكثرها طواحين هواء. لم أر في أي مكان من حولي شيئاً يذكِّر بلقائنا الأول. قد أكون ضحية فكرة ثابتة في رأسي، ولعل القبطان لا علاقة له بذلك الشاب في الماضي. لا شك في أن عدد المخترعين غير الناجحين في العالم يزداد مثلما يزداد عدد الشعراء غير الناجحين!

فتح الرجل الدرج السفلي وأخرج منه بعض الملفات والمخططات. لقد انهمك في الآونة الأخيرة في محاولة التوصل إلى الطريقة الأكثر فعالية

في الاستفادة من طاقة الرياح. نشر اللوحة الأولى فرأيت سفينة خيالية امتلأ سطحها بأبراج تحمل أشرعة الطواحين الريحية، كان عليها خمسة أبراج. أراني الرجل لوحات أخرى كان من بينها باص يحمل طاحونة ريحية، وكان فيها أيضاً طاحونة ريحية طائرة، تعمل هذه الآلات كلها بقوة الريح. كانت اللوحات متقنة الرسم. وكانت عناصر كل آلة تحمل أرقاماً ورموزاً تميزها: رأيت مجموعة القيادة، ومسننات تحويل السرعة، وشفرات المروحة، كنت أعرفها كلها من رسومات والدي في طفولتي. رأيت رسومات أخرى فيها غابات تناثرت في أرجائها أبراج تعلو هامات الأشجار.

فوجئت بأن القبطان ما كان مجنوناً كثيراً، كما لم يكن صاحب مقالب أيضاً، كما يكون الشاعر في أعماقه. ماذا يمكن أن يفعل الشاعر غير هذا عندما يدرك أن جموع أصحاب لغة الحمقى من صانعي الكلمات والصور قد غمروا العالم بقماماتهم؟ ماذا يمكن أن يفعل غير هذا في مواجهة المباني المهولة التي تخنق العالم، إلا أن يبني طواحين هواء ترتفع صامتة فوق ذلك كله ولا تخلّف ضجيجاً ولا دخاناً؟

سألته عن الوقت الذي أنفقه على اختراعاته هذه؟ فقال إنه لم ينفق عليها وقتاً كثيراً. إنه يكون شديد التعب في العادة. وفي بعض الأحيان كان رأسه يضج بأفكار كثيرة لا تتوفر لديه أيام وليالٍ كافية لوضعها على الورق. ثم تزوج بعد ذلك! ظن أن زوجته سوف تساعده في مشروعاته، لكن ما هي الحماسة التي يمكن أن تظهر عند امرأة تجاه شيء لا يحقق لها منفعة عملية؟ لقد راحت تزعجه وتناكفه، بل رمت رسوماته ونماذجه أيضاً. وأخيراً، هربت بعد أن صار عمر ابنها ثلاث سنوات. بصق القبطان صوب زاوية مقصورته ثم فتح خزانة امتلأت بأشياء غريبة. كان يود العودة إلى رسوماته القديمة لكنه اكتشف فجأة أن حجارة تقعقع في رأسه. لقد

بدأ انحداره! وعندما كان يقص صفيحة معدنية بمشعل اللحام ذات يوم تحرّك حركة خرقاء جعلت الصفيحة المقصوصة تسقط وتحطم يده. اضطروا إلى بترها من المعصم! وهكذا ذهب الرجل ليعمل في أحد المتاجر. وهناك كانت بعض الأفكار تراوده من حين لآخر. لم يسمع شيئاً عن زوجته السابقة طيلة سنوات كثيرة، لكن أحوالها لم تكن حسنة أيضاً. إن الرجل الذي هربت معه يضربها، لقد عرف هذا من ابنه. لعلها تعود ذات يوم. لن يطردها، بل ستجد فراشها في انتظارها. أشار إلى الجزء العلوي من السرير، لم ألاحظ إلا في تلك اللحظة أن غطاء الفراش يحمل طبقة سميكة من الغبار.

خطر لي أن أسأله: «كم عمر ابنك الآن؟».

نظر إليّ مستغرباً، لكن السيدة فينوس أجابت بدلاً عنه: «إن هاري يؤدي خدمته العسكرية الآن».

كانت قطرات المطر تضرب زجاج النوافذ ضرباً عنيفاً، وكانت ظلمة البار تتزايد. لكن هذا المطر ما كان شيئاً مقارنة مع ذلك الذي كان يحفر سقف تلك الشقة الصغيرة في العليّة. ففي أيام مثل هذا اليوم كان الظلام يلف الغرفة فلا يستطيع أحدنا رؤية الآخر. كان واحدنا يبحث عن الآخر بيديه وشفتيه وجسده. ثم، على نحو مفاجئ تماماً، كانت دموعها تغلبها، كنا نتبادل كلمات الوداع فتقبّلني بشفتين رطبتين في مدخل البناء وترجوني ألا أغضب منها، إنها تلك الغيوم التي تجعلها حزينة بائسة إلى ذلك الحد، كانت تعدني بأن تكتب لي رسالة.

كنت أود دائماً أن أتلقى رسالة أرى من خلالها أن أحداً يحبني. وقد أرسلت لي رسالة كتبتها في مساء ممطر، أو لعلها كتبتها في وقت متأخر من الليل بعد أن بددت الريح السحب.

«حبيبي، يا أعز الناس. سأترك كل شيء في هذه اللحظة ولن آخذ شيئاً معي. وإذا قلت لي: تعالي! فسأذهب إلى حيث تأمرني. أعرف أن لهذا ثمناً، لكن هذا حقيقي وعلى المرء أن يدفع ثمنه. وحتى إذا كان عليَّ أن أموت، حتى إذا كان عليَّ أن أفقد عقلي، وهذا ما يبدو لي أسوأ من الموت، فسوف،».

أثارت هذه الوعود، وهذا التصميم، حذري. لكن السعادة غمرتني في الوقت نفسه مثلما يغمر دفء الشمس الإنسان.

كتبت لي أيضاً تقول إنها تحبني إلى درجة الإحساس بالعذاب والألم، وإنها تعيش ألماً شديداً لأنني لست معها في هذه اللحظة، الآن عندما يصرخ كل ما هو جيد فيها مطالباً بوجودي.

هكذا كانت تدعوني إليها، وكنت أعرف أنني تقت إلى امرأة مثلها طيلة حياتي. وكان إحساسي بأن حقيقة ألمها ويأسها لم تكن تمسني يمنحني سعادة كبيرة. أو لعلي كنت كبيراً إلى درجة تجعلني غير قادر على مشاطرتها آمالها من غير خوف. هل كنت أخشى أن ينتهي الأمر بنا مثلما يحدث مع كل من يموت توقهم فلا يعودون قادرين على الاستلقاء جنباً إلى جنب في الليل، ليلة بعد أخرى؟ أو لعلي ما كنت خائفاً إلى تلك الدرجة بل غير قادر، ببساطة، على إزاحة زوجتي من حياتي، زوجتي التي لا أزال معجباً بها، والتي، بعد كل حساب، يفترض أن تكون لي حتى نهاية أيامي أو أيامها؟

لقد اختارت لي عبارة تناسبني: إن كان هناك شيطان فهو ليس الذي تمرد على إرادة الله بل الذي لم يجد الأبدية نفسها كافية لأن يتخذ قراراً.

كيف يستطيع إنسان أن يربح الحب إن كان غير قادر على الوصول إلى القرار؟

لم تكن زوجتي تشك في شيء، إنها تثق بي! لكنها كانت ترى أحلاماً تعذبها. ترى نفسها سائرة مع أفراد صفها المدرسي في سهل جبلي تكسوه الثلوج. وعلى نحو مفاجئ يسرع الجميع خطاهم فلا تستطيع اللحاق بهم. تظل وحدها وسط الريح والصقيع تنظر حولها بحثاً عن طريق، لكن عبثاً. يهبط الضباب! تدرك أنها لن تجد الطريق أبداً. وفي أحلام أخرى ترى نفسها تتسلّق صخرة مع أصدقائها وعندما تصل إلى أكثر أجزاء الصخرة انحداراً يختفي الجميع من حولها. تتجمّد خوفاً وتلتصق بالصخرة! لا تستطيع نزولاً ولا صعوداً، تصرخ طالبةً النجدة، لكن ما من مجيب!

تقصّ عليَّ أحلامها وتفتش عن تفسير لها. تعود حتى طفولتها، أيام كانت تمضي أوقاتها وحدها غير قادرة على أن تكون قريبة من أي شخص.

أعرف أنها تخطئ تفسير أحلامها، لكنني أظل صامتاً. اذهب وأتركها تحت رحمة رؤاها التي تعذّبها.

لكن كيف يمكن أن يظل الرجل على إيمانه بالحب إن لم يُكِنَّ أي تعاطف؟

أنهى رئيسنا كأسه الثانية من البيرة وحلّ بعض أزرار قميصه. أدركت أنه غير مهتم كثيراً بتغيّر الجو بقدر اهتمامه بأنه يمكن أن يفقد العلاوة على أجره. طلب لنفسه كأساً ثالثة وأعلن أنه قرر ما يلي: سوف يلقن فرانتا درساً!

فرانتا هو ذلك الأحمق الشاب ذو العلامة على وجهه، الشخص الذي لا أفهم كلمة مما يقول عندما يتكلم. فاجأني أنه رئيس عمال أيضاً، بل هو يقود سيارة، والظاهر أنه هو من يتفقّد عملنا، ليس لأن هذه وظيفته بل لأنه يريد تصيد أخطائنا. يكرهه الجميع هنا! لا أعرف إن كانت هذه الكراهية بسبب مشكلته في الكلام أو بسبب تصيده أخطاء الآخرين.

قالت لي السيدة فينوس إنه أجرى جراحة منذ فترة. لقد استأصلوا قضيبه. إن لدى فرانتا ما يشبه الثديين في الواقع، كما أنه يستخدم نبرة مرتفعة مصطنعة في حديثه غير المفهوم. راح رئيسنا يخبرنا بنبرة غاضبة الآن أن ذلك المشوه قد وشى به الأسبوع الماضي وقال إنه ذهب لشرب البيرة عندما ادعى أنه ذاهب لرؤية الطبيب: «رأيت ذلك الوسخ عند الموقف الأخير في الرقم 19 البارحة، في سيارة القمامة البائسة تلك التي يقودها، فأمسكته من ياقته وجررته إلى الرصيف قائلاً له: عليك أن تركع هنا وأن تطلب عفوي يا خنزير وإلا فسأجلب واحداً من براميل القمامة لأجمع فيه حطام وجهك البائس! لقد اضطر إلى الركوع هناك في الوحل مكرراً من خلفي: أعتذر منك يا سيد ماريك، ولن أقول أي كلمة عنك مرة أخرى! جعلته يقول سيد لأنني، بالنسبة له فقط، سيد ولست رفيقاً».

كان رئيسنا جندياً سابقاً خدم في أحد المطارات. لا بد أنه يعتبر ذلك الزمان زماناً بطولياً سعيداً؛ وهو يحب كثيراً أن يثرثر عن تلك الأيام، وهذا ما يساعدني على لملمة بقايا ذكريات طفولتي أنا. أحسده على هذه الذاكرة! إنه لا يتذكر مجموعة ضخمة من القصص والأقوال فحسب، بل يتذكّر أسماء كل تلك الشوارع في منطقتنا، إنها بالمئات! وهو خبير أيضاً في أسماء جميع الحانات ومواعيد إغلاقها، ويعرف أيضاً كل ما يتعلق بتكنولوجيا تنظيف الشوارع. لكنهم يضعونه على قدم المساواة مع ذلك المشوَّه!

قال القبطان: «كان عليك أن تجعله يدفع ثمن البيرة لنا جميعاً فسوف يتذكر ذلك دائماً، سيتذكر أنه دفع من جيبه».

قالت السيدة فينوس: «لا أقبل البيرة منه، بل سوف أتحول إلى شرب الماء قبل ذلك».

قاطعنا السيد راداً من الطاولة المجاورة: «إنه بائس مسكين! ماذا تريدون منه؟».

غضب الرئيس: «ذلك الشخص! إنه ابن حرام ماكر. وهو يعرف جيداً أن علاوته سوف تزداد إذا أنقصوا علاوتي. من الذي تظنه قد وشى بنا في الشهر الماضي، يوم هطل المطر الغزير أثناء خروجنا من لومنيكيهو؟».

انضممت إلى الحديث قائلاً: «لكنه بائس مسكين رغم ذلك».

قالت السيدة فينوس وعيناها المتورمتان تنتقلان بيني وبين السيد رادا: «أنتم لا تعرفونه قبل أن يجروا له تلك الجراحة. كان لا يبدأ العمل حتى الظهر. وما إن يرى تنورة في الشارع حتى يخرج ذلك الشيء».

قال الرئيس: «يجب استئصال ذلك الشيء من جميع المخلوقات التي تشبهه منذ الولادة»، إنه لا يعرف الرحمة!

قلت معترضاً: «كيف يمكن أن يفعلوا هذا؟».

«لم لا؟ إنهم يجعلونك تخسر الوقت كله عليهم ولا يبقى شيء للناس الطبيعيين، أليس هذا صحيحاً؟»، التفت رئيسنا إلى الآخرين، «ويكون على الإنسان المحترم أن يعمل حتى الانهيار».

«ومن الذي يقرر الشخص الطبيعي من غير الطبيعي؟».

«أترك الأمر للأطباء! إنهم يستطيعون معرفة ذلك جيداً في هذه الأيام». قرر رئيسنا إنهاء كلامه متحمساً: «دعني أقول لك إنني، إذا وشى ذلك المنحرف بأي منا مرة أخرى، فسوف أمسك به وأسوقه رفساً طوال الطريق حتى نهر بوتيس. وهناك سأضع رأسه الملعون تحت الماء حتى يعود الصواب إليه».

قبل ألفين وخمسمائة عام، كان الإغريق في آسيا الصغرى يمسكون بشخص معوّق أو مشوه كلما تعرض مجتمعهم لخطر وباء أو أي كارثة أخرى ثم يذهبون به إلى موقع تقديم الأضاحي ويعطونه حفنة من التين المجفف ورغيفاً من خبز القمح وجبناً ثم يضربون أعضاءه التناسلية

بالسوط. وبعد ذلك يحرقونه حتى الموت على أنغام المزمار.

كان يوماً ماطراً آخر، لكنه كان في أوائل الربيع. وعلى إطار نافذة البيت المقابل كانت حمامتان مبللتان تتعانقان. وكنا نتعانق أيضاً مرهقين من ممارسة الحب. بدأت أنهض لأنني أريد الذهاب إلى البيت حيث ينتظرني أولادي وزوجتي، حيث تنتظرني أسرتي المخدوعة التي لا تشك في شيء وحيث ينتظرني عملي الذي أهملته وهجرته. في ذلك الوقت كانت قد صارت تعرف حركتي الحذرة الأولى، التي هي بداية ابتعادي عنها. لكنها لم تقل كعادتها: «لا تذهب الآن». لقد راحت تبكي!

سألتها عما بها لكنها اكتفت بالنشيج ودفعتني عنها. كان الأمر قد صار أكثر مما تطيق، لم تعد لديها قوة لتلك الوداعات الأبدية، للقائنا ثم افتراقنا، لم تكن مصنوعة حتى تكون امرأة لرجلين، ولم تكن تستطيع احتمال الخداع. كان التظاهر الكاذب يمرضها فقد أرادت أن تعيش بحسب ما يمليه عليها ضميرها، أرادت أن تكون مع الرجل الذي تحب.

لكن من المؤكد أننا نكون معاً دائماً تقريباً.

كيف أستطيع أن أقول شيئاً فظيعاً مثل هذا عندما أبيت في فراشي كل ليلة مع امرأة أخرى؟

لكن المرأة الأخرى زوجتي!

كيف تجرأت أن أقول لها هذا؟ كان البكاء يهزها. ولم تكن تريد العيش بهذه الطريقة أبداً، إلى أي شيء حولتها؟ إلى عاهرة ليس لها حتى أن تراني عندما تشعر بالبؤس والإحباط أو عندما تحتاجني، لكن عليها أن تأتي مسرعة عندما أحتاجها، عندما أجد وقتاً لها!

لم أقل شيئاً فقد صمت لساني أمام حزنها وغضبها. صاحت تقول إن عليَّ أن أقول شيئاً، فلماذا لا أدافع عن نفسي، لماذا لا أحاول إقناعها بأنها

مخطئة، لماذا لا أقول لها إنني أحبها وإنني أهتم بها؟

عند ذلك مارسنا الحب مرة أخرى، وخيم الظلام على القصر القائم قبالة شباكنا، واختفت الحمامتان المبللتان. أرادت أن تسمع مني مرة بعد مرة أنني أحبها. وظللت أردد ذلك بالإلحاح نفسه. همست لي أن كلاً منا مقدَّر للآخر، وأننا نقاوم قدرنا عبثاً، وأنني أقاوم عبثاً عندما أتوق إليها كل ذلك التوق.

لم أقل شيئاً! عانقتها، وذبت فيها، وحاولت تبديد ذلك الكرب الذي راح ينمو ويتعاظم في داخلي.

لكنني ما كنت أريد أن أعيش على هذا النحو دائماً، من غير نهاية. وعندما عدت إلى البيت أخبرت زوجتي عن المرأة الأخرى.

كانت الساعة تقترب من الرابعة، الوقت الذي نغادر فيه حانتنا عادة. نظر رئيسنا، وهو شخص رائع في اتخاذ القرارات، إلى ساعته ثم قال: «كأس أخرى من البيرة ثم نذهب حتى لو كان المطر ينهمر مثل أنبوب المطافئ». وحتى يجعلنا نطمئن راح يقص علينا كيف هطل مطر شديد مثل هذا منذ ثلاثين عاماً بالضبط وظل يهطل طيلة الصيف. كان وقتها مخيّماً خلف منطقة كفيلدا. وقد أفلح، لحسن الحظ، في اليوم الثاني لوجوده هناك في التقاط فتاة جميلة داكنة الشعر من قسم المحاسبة في مستودع الأخشاب. توقف عند مكتبها في الصباح. وخلال نصف ساعة أنجز لها جميع الحسابات التي تستغرق اليوم كله لإنجازها. وهكذا صارا قادرين على الاهتمام بالعمل الحقيقي.

كان رئيسنا قاصاً جيداً. وكانت جودة القص عنده تزداد مع ازدياد اهتمام المستمعين. وقد وجد فيّ مستمعاً جيداً منتبهاً. لم يكافئني على هذا بتوجيه كلامه لي أكثر من الآخرين فحسب، بل راح أيضاً يعطيني الأجزاء الأفضل

والأعلى أجراً في العمل من وقت لآخر. لكن الأكثر اهتماماً بأقاصيصه كان ذلك الشاب الصغير الذي معنا، إما لأنه شديد الرغبة في سماع قصص الآخرين بسبب صغر سنه أو لأن القدر حرمه من عيش أكثر الأشياء التي كان رئيسنا يقصُّها علينا.

كنت قد عرفت في ذلك الوقت أنه لم يكن مريضاً منذ طفولته. وفور إنهائه المدرسة سمح لنفسه بأن ينقاد لإغراء شروط عمل متميزة في مصنع كيميائي حيث عرضوا عليه شقة سكنية لمدة سنة إضافة إلى تعويض خاص بسبب طبيعة العمل ومخاطره. لكن ذلك التعويض عن الخطر ما كان مزاحاً! لم يمض على صاحبنا في المصنع إلا خمسة أشهر عندما وقع له حادث. هذا هو المصطلح الذي تستخدمه صحافة «لغة الحمقى» للتعبير عن حدث يودي بصحة، وحتى بحياة، عدد غير قليل من العمال. كان ذلك تسرباً لأحد الغازات السامة. ماتت امرأتان على الفور. ومكث الشاب في المستشفى ستة أشهر ثم خرج منه متقاعداً. أصيب كبده وأصيبت كليتاه، وكان عليه أن ينسى كل ما يتعلق بالنساء أيضاً. لكنه رغم ذلك أعجب بسائقة ترام اسمها دانا، وكانت مطلقة وأماً لطفلتين وأكبر منه بعشرة سنوات. ولعل الأمر كان كذلك لأنه ظن أن هذا يمنحه فرصة. من الواضح أنه ظل يغازلها سنة كاملة، وكان في أثناء ذلك يعمل في تنظيف شوارع المدينة حتى يكسب بعض المال الإضافي فلا يبدو في نظرها شحاذاً.

كان ذلك المطر منذ ثلاثين سنة عائقاً أمام مقاصد رئيسنا إلى أن تذكر أن خلف المطار بمسافة قليلة توجد طائرة ميسرشميدت قديمة صدئة تحطمت أثناء الحرب. كانت محطمة من الداخل أيضاً، لكن المرء يستطيع أن يسحب الغطاء المشمع فوقه وأن يضع بساطاً على الأرض فتصير الطائرة نزلاً تقريباً: عندما فعلاها في المرة الأولى، ما كادت الفتاة ذات الشعر الداكن تخلع تنورتها حتى زعقت خائفة لأنها رأت حية تزحف

من أحد ثقوب لوحة التحكم في قمرة الطائرة. كان تحت اللوحة عش أفاع كامل فاضطر رئيسنا إلى التخلص منها جميعاً وإلى إغلاق الثقوب كلها قبل أن يستطيع الاهتمام من جديد بما كان قد بدأه. ختم الرجل قصته: «دعوني أَقُلْ لكم: لقد تعلمت شيئاً واحداً عدة مرات في حياتي: الفراش ليس كل شيء!».

قاربت الساعة العاشرة والربع وما زال المطر يهطل في الخارج. عندما أصغي إلى قصص الآخرين، مهما تكن، أحس أحياناً بأنني مدين، أنني مثل ضيف أبدي على العشاء لكنه لا يدعو أحداً، لكنني عادة لا أستطيع جعل نفسي أطلب من الآخرين أن يصغوا إلي.

منذ أعوام عدة انتقلت شقيقة زوجتي من شقة إلى أخرى. وسألتني إن كنت أستطيع مساعدتها. كانت المرأة التي أجّرتها الشقة الجديدة المؤلفة من غرفة واحدة مجنونة تماماً، فقد جمعت فيها كومة كبيرة من الخردوات التي أتت بها من مقالب القمامة، لكنها كانت قلقة على كومتها تلك ولم تسمح لأحد من عمال النقل بلمسها. وهكذا لم تعرف كيف تخرج أمتعتها.

ما هو عدد الأشياء التي تستطيع وضعها في الغرفة؟ ظننت أن شقيقة زوجتي تبالغ في الأمر. وقد فهمت عبارة «كومة من القمامة» فهماً مجازياً ووعدتها بأن أنقل أشياء تلك السيدة على دفعات في سيارتي. ولحظة أدخلتني إلى ذلك المكان صدمتني رائحة العفن والرطوبة صدمة شديدة. لكن المرأة نفسها كانت أنيقة نظيفة، وكانت اليد التي مدتها عند السلام بيضاء ناصعة. أدخلتني إلى الشقة! سرت في ممر ضيق بين صناديق وعلب مكومة حتى وصلت إلى النافذة وسألتها إن كنت أستطيع فتحها. اندفعت إلى الغرفة موجة من الهواء النقي المليء بالدخان وعوادم السيارات، لكن جو التعفن المسيطر هنا ما كان قابلاً للتخفيف. وبعد ذلك ساعدت المرأة في إنهاء حزم أمتعتها. حزمنا الكثير من دفاتر الأطفال ووضعناها في كومة

واحدة مع مصابيح كهرباء محترقة وزوج من الصنادل فردتاه مختلفتان ومن غير أربطة وقطع من القرميد المكسر والدمى التي لا أذرع لها، إضافة إلى مغلفات قديمة وهياكل أجهزة راديو ومقالٍ صدئة وشمعدان محطم وكرات زجاجية. من الواضح أن تلك المرأة قد أنفقت حياتها في جمع وتخزين قمامة الآخرين، ولعل ذلك يمنحها إحساساً بالأمل والأمان! أمضيت خمسة أيام أقود السيارة ذاهباً إلى تلك الشقة وعائداً منها. وقد شكرتني ودعت لي بالخلاص الأبدي لقاء ما بذلته من جهد، خلاصٌ لا بد أن أناله قريباً لأن وقت تجمّع البشر كلهم من أجل يوم الحساب قد اقترب. أحببت أن أسألها ما الذي جعلها، والحال هكذا، تجمع تلك الأشياء كلها، لكنني لم أجد مبرراً لطرح هذا السؤال على امرأة مجنونة عندما أكون قادراً أيضاً على طرحه على أي شخص، أو على نفسي.

عندما كنت أهبط سلم البناء حاملاً ما يجب أن يكون الدفعة الخامسة عشرة على الأقل لم أستطع مقاومة إغراء فك الخيط أو الحبل وإلقاء المحتويات في أقرب مستوعب قمامة. غطيتها ببعض الأكواب الورق الفارغة وفضلات المطابخ التي أتيت بها من سلة قريبة وقدت السيارة ببقية الخردة قاصداً شقة شقيقة زوجتي.

بعد ساعة تقريباً عدت من أجل النقلة التالية لكنني اضطررت إلى الانتظار وقتاً طويلاً قبل أن تسمح لي بالدخول. كانت واقفة بالباب كأنها مترددة في السماح لي بولوج المنزل. قالت لي: «أنت، أنت، لقد وثقت بك!».

قال رئيسنا: «أي أمل هذا؟ دعني أقل لك: لقد تعلمت هذا أكثر من مرة في حياتي، لن تحصل على الشكر من امرأة».

كانت الريح تسوق سحابات صغيرة من الضباب ترتفع من الأرصفة ومن المرج المتجمد. وفي كشك الهاتف خارج الحانة كانت فتاة تبتسم ابتسامة جميلة لشخص ما في السماعة.

كنت أبتسم أنا أيضاً، كنت أظن أنني أرى حقاً المرأة التي أحب وأنني أستطيع أن ألمس بعينيّ ما تقوله لي في تلك اللحظة! قالت لي: «أرى غراباً من نافذتي متجمداً فوق غصن. وهو يخبرني شيئاً لكنني لا أستطيع سماعه». كنت أتجمد مثل ذلك الغراب. وكان لا بد لي أن أنفخ على الزجاج حتى أرى ما في الخارج. رأيت بالفعل غراباً جاثماً على شجرة غطاها الصقيع. ماذا عساه يقول؟ لن يحدث هذا ثانية، لن يحدث هذا ثانية. أظن أنني فهمته: لن نجد أبداً من جديد أحداً يحبنا إلى هذا الحد.

خرجت الفتاة من كشك الهاتف. وكان رفاقي لا يزالون يتحركون متكاسلين قرب باب الحانة. رفعت سماعة الهاتف. ترددت لحظة لكنني كنت في حاجة شديدة إلى سماع صوت مألوف كنت أطلبه على الهاتف. قالت ليدا إنها سرت بسماع صوتي وإنها تريد أن تعرف من أين أتصل وما الذي كنت أفعله الآن، تريد أن تعرف إن كنت أشعر بالبرد. كانت تنتظر عودتي إلى البيت بفارغ الصبر. وددت أن أقول لها، لزوجتي، شيئاً لطيفاً. وددت أن أخاطبها بكلمات رقيقة كما كنت أفعل: حبيبتي ليدا، أو ليدا يا عزيزتي، على الأقل. وددت أن أسألها علم تكن تفعله، علم تكن تفكر فيه، لكنني كنت عاجزاً عن قول أي شيء غير أنني عائد إلى البيت مباشرة بعد أن أزور أبي في المستشفى.

ظللت في كشك الهاتف برهة. كانت سترتي ذات اللون الفاقع تنعكس لامعة على الزجاج. بحثت في جيبي عن قطعة نقدية. كان ذلك الرقم الآخر يفرض نفسه بقوة على عقلي إلى درجة جعلتني أقوله همساً.

كففت عن البحث في جيبي. نظرت إلى رفاقي وهم يسيرون صعوداً في الشارع إلى الحديقة الصغيرة حيث تركنا أدواتنا في كوخ صغير. لمحتني السيدة فينوس ولوّحت بيدها.

في وقت آخر، يا حبيبتي، لكنني لست أصمت الآن لأنني لا أفكر فيك.

كل ما في الأمر هو أنني لا أملك شيئاً جديداً أقوله لك.

أتظن أن هذا الصمت، هذه الطريقة التي نعيش بها الآن، أمر جيد؟

لا أعرف إن كانت أمراً جيداً، لكنني لا أعرف شيئاً أفضل!

ألا تعرف شيئاً أفضل؟ أنظر إلى نفسك فقط، انظر إلى ما ترتديه، هذه المسخرة! هل تعمل ذلك العمل انتقاماً أم ماذا؟

لا! إنه عمل شريف تماماً. وأنا أستطيع التفكير أثناء قيامي به.

تستطيع التفكير، هل تستطيع التفكير حقاً؟ كم هذا لطيف من أجلك. وماذا عني أنا؟ هل تهتم أقل اهتمام بما يحدث لي؟ وكيف أشعر؟ خلال هذه السنوات كلها لم أستحق مكالمة هاتفية واحدة منك.

لقد كانت بيننا مكالمات كثيرة. ألف مكالمة على الأقل!

لا تُحصها! لا أريد أن أسمع أرقاماً. لكن هذا كان من قبل. وبعد ذلك لم تتصل ولو مرة واحدة.

لقد قال واحدنا كل شيء للآخر. وقد استنفدتنا هذه المكالمات. ماذا أيضاً يمكن أن أقول لها أو أن تقول لي؟

أنت تسألني؟ لعلك تقول لي، على الأقل، إن كان الأمر كله يعني شيئاً عندك!

أنت تعرفين جيداً ما تعنينه عندي.

لم أعد أعرف شيئاً بعد طريقة تصرفك هذه. وأقول في نفسي دائماً...

ماذا تقولين في نفسك؟

غير مهم! لا أريد تصديقه. بعد كل ما قلته لي عندما كنا معاً، كيف أستطيع تصديق أنك تطردني مثل...

لا تبك من فضلك!

قل لي على الأقل، هل أحببتني أصلاً؟

تعرفين أنني أحببتك.

لست أعرف شيئاً. وكيف أعرف؟

كانت امرأة مسنة تقترب من كشك الهاتف. لعلها كانت تريد استعماله، لكنني فتحت دليل الهاتف ورحت أبحث عن رقم، من باب الاحتياط.

لو أحببتني لما فعلت ما فعلت!

لقد كنت مجنوناً بك.

لا تتهرب! سألتك إن كنت قد أحببتني أصلاً. إن كنت قادراً على حب أي شخص.

لا تعذبيني!

أنا، أعذبك؟ أعذبك أنت؟ قل لي، يا حبيبي، ما الذي فعلته بي! اشرح لي على الأقل ما الذي كان جيداً في ذلك.

لم أستطع المتابعة على ذلك النحو. سامحيني، لكنني لم أستطع مواصلة العيش بتلك الطريقة.

وماذا عني أنا؟ كيف أعيش؟ أنت لم تفكر أبداً في ما سيصيبني! كيف تستطيع أن تصمت هذا الصمت؟ هذا ليس بشرياً! لا بد أن تقول لي شيئاً، أن تفعل شيئاً. عليك أن تفعل شيئاً بشأننا!

كنت أكتب المسرحيات في وقت ما. وكانت شخصياتها تتكلم دائماً، لكن كلماتها كانت تمر بالكلمات الأخرى مرور الكرام، وكانت عباراتها تنزلق، واحدة على الأخرى، مثلما تنزلق أجساد الأسماك اللزجة من غير اتصال حقيقي. هل كنت أكتب على ذلك النحو لأنني كنت أظن أننا نستطيع الخروج من وحدتنا؟ أم لأنني كنت في حاجة إلى العثور على سبيل لتجنب الإجابات؟ حيث تخطئ الكلمة الطريق إلى الكلمة الأخرى،

وحيث يخطئ الإنسان طريقه إلى الآخر، يمكن أن ينشأ خلاف حقيقي. أم لعلي كنت أشك في قدرة الإنسان على الدفاع الناجح عن نفسه في عينيّ إنسان آخر، وفي أنه عندما يتكلم فهو يفعل ذلك فقط لإغراق الصمت المنتشر من حوله؟ حتى يخفي عن نفسه حقيقة الحياة، حقيقة لا يدركها، في أحسن الأحوال، إلا في لحظات استثنائية من الفهم؟

كان الناجي الوحيد من تحطم الطائرة التي اصطدمت ببرج الكننيسة في ميونيخ رجلاً يعمل محرر صحافياً في بلغراد. وكان عندي فضول للقاء شخص قام من الرماد. لكن أخته كانت قد ماتت منذ فترة قريبة بسبب السرطان فطلب مني تأجيل لقائنا بضعة أيام. وعندما اتصلت به بعد فترة كانت أخته الأخرى في حالة خطرة بسبب المرض نفسه. قال لي: «الأطباء يعطونها شهرين على الأكثر. هكذا قالوا لي هذا الصباح. سأقول لك شيئاً غريباً! خرجت إلى الشارع فلم أسمع شيئاً. كان في الشارع ترام وكانت فيه سيارات تتحرك وأشخاص يتحدثون، لكنني لم أسمع شيئاً من هذا. كان ذلك الصمت المفاجئ نفسه، بعد تحطم الطائرة».

لحقت برفاقي. ناولني الشاب مجرفتي التي كان قد حملها على عربته من أجلي. قالت السيدة فينوس: «أراهن أنك لم تكن تتحدث مع زوجتك».

رأيت فأراً ميتاً عند حافة الرصيف تماماً فرفعته بمجرفتي وألقيت به فوق القمامة.

دهشت زوجتي بسبب ما قلته لها. لم تستطع تصديق أنني كذبت عليها طيلة هذا الوقت. قلت ما يقوله معظم الرجال على الأرجح في مثل هذه المواقف، من أنني آمل أن أوفر عليها معاناة لا لزوم لها لأنني كنت أعرف أن الأمر سينتهي قريباً.

سألتني: «لكنك لمْ تكن تريد إنهاءه؟».

قلت لها إنني أحببت المرأة الأخرى. وإنني لم أحبب أي امرأة مثلما أحببتها.

«لكنني كنت أظن أنك أحببتني أكثر من أي شخص آخر!»، اندفعت الدموع إلى عينيها. ثم أرادت أن تسمع التفاصيل. كان أي نوع من الحقيقة مفضلاً على الصمت. كان عليَّ إخبارها بأخطائها وبما يمكن أن تفعله لإصلاحها.

صببت كل شكاياتي وكل ما لدي من تفسيرات أبرئ بها نفسي، لكننا بعد قليل صرنا نسترجع أشياء من قبيل: من قام بالتسوق ومن قام بالطبخ والغسل والجلي وتنظيف الأرض، حتى أصابني الذعر بسبب فقر كلامي. صمتُّ، لكن زوجتي كانت تريد أن تسمع شيئاً عن المرأة الأخرى. رحت، متحرراً على نحو مفاجئ من صراحتي التي اكتشفتها حديثاً، أمتدح صفات عشيقتي ومواهبها وأصف فرادة ما عشناه معاً. لكنني، بينما كنت أقسر هذا كله على الخروج في كلمات، كنت أحوّل ما عشته، وكان لي وحدي وبدا لي فريداً غير قابل للتقليد، إلى شيء عام قابل للتصنيف، إلى شيء ميلودرامي في عرف الناس جميعاً. لكنني كنت غير قادر على الكف عن الكلام. وكانت زوجتي تصغي إلى ما أقول بمشاركة تامة وباستعداد واضح لفهمي، بل ربما لنصحي والقول لي إنني وقعت ضحية فكرة حمقاء مفادها أنها يمكن أن تبوح بمشاعري لأحد آخر. لكنها كانت تأمل فقط أنها، إن استمعت إلى اعترافاتي وأصغت إليّ باهتمام، يمكن أن تحوِّل كلماتي التي تصف كيفية تباعدنا إلى أول خطوة لتقاربنا من جديد. أرادت أن تواجه ذلك الجذب المُلِحّ من جانب المرأة الأخرى بتفهمها الصبور.

وعندما اقترحت عليها أخيراً، على نحو مفاجئ ومن غير أن أكون مقتنعاً كثيراً بأن هذا ما أردته في تلك اللحظة، أن أترك المنزل لفترة من الزمن على الأقل. قالت إنها لن تقف في طريقي إن أردت تركها وترك

الأولاد، لكنها لا تستطيع أن تضمن لي أن تقبل عودتي إذا قررت العودة إلى المنزل بعد فترة. كنت بعيداً جداً عن إمكانية التفكير في ما يمكن أن أرغب فيه بعد فترة من الوقت، لكنني ظننت أنني أرى في عينيها قدراً كبيراً من الأسف وخيبة الأمل، ومن الخوف من فكرة الوحدة الوشيكة، وهذا ما جعلني أمتنع عن تكرار اقتراحي.

لم نذهب إلى النوم حتى ساعات الصباح الأولى. لا يمكن أن أكون قد نمت أكثر من دقائق معدودة لأن ضوء الصباح لم يظهر بعد، لكنني سمعت إلى جانبي نشيجاً مكتوماً عندما استيقظت.

وددت أن أعانقها أو أن أقول لها شيئاً لطيفاً حتى أريحها مثلما أفعل عندما يحزنها أي شيء، لكنني أنا من حطّمها هذه المرة. لا أستطيع أن أصبح الشخص الذي يريحها إلا إذا غيرت قراري. أدركت فجأة أن الوضع الذي وجدت نفسي فيه يعذبني بدلاً من أن يمنحني إحساساً بالانعتاق.

استيقظت في الصباح على صوت شيء يتحطم، على صوت شيء يتشظى.

وجدت زوجتي في الصالة. وعند قدميها رأيت شظايا عرفت فيها أجزاء المنحوتة الوحيدة التي في منزلنا. كان رأس الطائر المثلث الشكل محطماً وقد تدحرجت عيناه إلى مكان لا يعلمه إلا الله.

ظللنا صامتين لحظة ثم قالت زوجتي: «آسفة! كان عليَّ أن أفعل شيئاً».

أما أنا، وفي فورة مفاجئة من التعاطف ومن غير تفكير في أنني قررت عكس ذلك بالأمس، فقد وعدتها بألا أتركها، وعدتها بأن أظل معها. إن لدينا أطفالنا، ومن المؤكد أننا ربطنا روحينا معاً ذات مرة، إلى أن يفرق الموت بيننا.

بعد ذلك بفترة وجيزة ذهبنا لرؤية مدرِّس الفنون الذي تذهب إليه ابنتي.

كان يعرض لوحاته في معرض صغير في البلدة. طفنا حول تلك اللوحات التي بدت على نحو ما كأنها تعبر كلها عن إحساس الرجل بالوحدة، حاولت كبت حنيني!

ثم جاءنا بعض الزوار في المساء. كان أكثرهم من الرسامين. قد تحدثوا كثيراً عن الفن، وهذا ما ذكرني بالمرأة الأخرى. كانوا جادين في ما يقولون، وبدا لي أنهم يبحثون صادقين عن المعنى الكامن خلف نشاطهم. لكن الكلام كله بدا من غير لزوم في تلك اللحظة، ما كان إلا بديلاً عن الحياة نفسها، عن الحركة، وعن العاطفة. هربت منهم وذهبت إلى ضفة النهر. وجدتني زوجتي هناك وأرادت أن تعرف إن كنت حزيناً، إن كنت أشعر بالحنين. وعدتني زوجتي، تلك المعالجة النفسية بطبيعتها، أن كل شيء سيعود جيداً في ما بيننا، وأننا سنبدأ حياة أخرى، وأنني سأكون سعيداً بتلك الحياة. أرادت أن تعرف ما الذي أخطط لكتابته، وأرادت أن تعرف ما في ذهني في تلك اللحظة، وتكلمت عن الإخلاص وعن عيش الحياة بصدق. كنت أصغي إليها وأحسست بأن شيئاً يتكسر في داخلي كما لو أن كل كلمة من كلماتها كانت لكمة تحطم شيئاً إلى نصفين. فاجأني أنها لم تكن قادرة على سماع تلك الأصوات بنفسها، لكنني أحسست في الوقت ذاته بأن القنوط كان يختفي من صوتها أثناء كلامها معي. لطالما تمنيت أن تشعر بالراحة معي، وأملت ألا يكون ثقل مشقات الحياة كبيراً عليها. لقد منحني ارتياحها شيئاً من الرضا على الأقل.

ما زال الشارع رطباً لكن الهواء صار نظيفاً مغسولاً. ومع خروجنا من ظلال المباني السكنية أحسسنا بأشعة شمس الخريف التي بددت على نحو ما ذلك الجو الصباحي الكئيب. كان الشاب يصفر لحناً مرحاً، وأراني السيد رادا فجأة كتاباً رقيقاً صغيراً على غلافه مكنسة وسيارة لجمع القمامة في حين كان عنوانه الذي فاجأني يعد بمقالة نقدية عن عبادة الشخصية: «هل تعرف هذا الكتاب؟».

ما كنت قد رأيته في حياتي كلها.

«إنه تأمل مثير للاهتمام في تمردنا على طبائعنا وعلى مادتنا الفيزيائية». فتح الكتاب وقرأ بصوت مرتفع: «هنا تكمن جذور هذه العبادة، ها هو ذلك الجوهر الأولي الكاذب: تعلن الذات البشرية البائسة الفانية سريعة الزوال عن نفسها: أنا هي أنا، وأنا موجودة هنا. إنني الثمرة الأنقى للإله المادي!»، أغلق الكتاب الصغير من جديد فلمحت غلافه مرة أخرى. رأيت فوق تلك السيارة المنطلقة رأساً بشرياً كبيراً لم ألحظه إلا الآن.

سألت السيد رادا، وفي تلك اللحظة فهمت الصلة بين صورة الغلاف وما سمعته قبل لحظة: «ومن نحن في الحقيقة؟».

ما زال الشاب يصفِّر ذلك اللحن الشائع. أحسست بالانزعاج لأنني لم أستطع تذكر كلمات الأغنية.

قال لي مسروراً لاهتمامي ولمعرفتي بمؤلف اللحن: «إنه الرجل الذي أحبُّ طبعاً». وسرعان ما غنى لي كلمات ذلك اللحن ذي الإيقاع الرباعي: «سوف يأتي ذات يوم، الرجل الذي أحب». ثم سألني: «هل تحب غيرشوين؟».

قلت له إن فرقة شركة «الأوبرا السوداء» جاءت إلى براغ منذ ثلاثين عاماً وقدمت «بورغي وبيس». كانت تلك الزيارة الأولى التي تقوم بها فرقة قادمة من الجانب الآخر من عالمنا المقسّم. كان الحصول على التذاكر يتطلّب معجزة، لكنني كنت محظوظاً!

أخذتني الذكرى بعيداً عن الشارع المكنوس. لم يحدث هذا لأنني استطعت أن أتذكر شيئاً من الأداء الذي أسعدني يومها، لكنني رأيت أمامي الشارع الصغير في ضواحي ديترويت حيث كانت جماعة من الأطفال السود تصيح في ممر جانبي وحيث جلس رجل أسود أبيض الشعر في

كرسي ذي دواليب أمام بيت منخفض. كان شخص يعزف الترومبيت، أو لعله وضع تسجيلاً للويس آرمسترونغ أو لشخص ما. كانت القمامة في كل مكان، مزق من الورق، ومنشورات إعلانية وعلب كوكاكولا فارغة، وفي الهواء الحار علقت رائحة البصل والغائط والأجساد البشرية.

استولى عليَّ الحنين إلى تلك البلاد. وفجأة رأيت نفسي في سترتي البرتقالية دافعاً تلك العربة اليدوية البائسة. ما كنت مضطراً لارتداء سترتي البرتقالية نفسها بطبيعة الحال، لكنهم جعلوني أرتدي سترة ذات لون مميز حتي أكون معروفاً من مسافة بعيدة فيتيح الناس لي مجالاً للعمل. هذا ما كان يحدث لي الآن رغم أنني، أنا الذي جعلوه يرتدي سترة مميزة اللون منذ الطفولة، أتوق أكثر من أي شيء آخر إلى التخلص من علامة التمييز هذه.

قال الشاب: «كنا نعزف موسيقاه كثيراً». وعندما رأى أنني فوجئت قال موضحاً: «كانت لدينا فرقة جاز قبل أن يصاب كبدي».

طوى القبطان أكمام سترته إلى الأعلى وقال لرئيسنا: «قد يكون لدينا شيء مفيد لحديقتك».

أثار هذا حذر الرئيس: «لا بأس، طالما أنه ليس بخّاخ جراد الحديقة الذي أعطيتني إياه فجعل تلك الحشرات تقفز في كل مكان مثل السناجب فأتلفت أزهاري كلها».

قال الشاب لي متحمساً: «كنا نعزف موسيقى الراغتايم لدوك ألينغتون أو إيرفينغ برلين أو جيروم كيرن أو سكوت جوبلين. لكننا كنا نحب جورج غيرشوين أكثر من الجميع. كما أنه كان أكثر نجاحاً بين الناس لأنهم سمعوا موسيقاه من قبل».

«ألا تعزف الآن على الإطلاق؟»

«لا أمل في هذا أبداً. لا أستطيع النفخ الآن. هل تعرف ما الذي أثّر في

نفسي أكثر من أي شيء آخر؟ لم يتلق الرجل أي دراسة موسيقية خاصة، انظر إلى الموسيقى التي كتبها».

سألته: «ألم تحاول كتابة الموسيقى؟».

«لقد فعلنا ذلك كلنا! كنا نقيم حفلات موسيقية خاصة لأنفسنا وكانت تنتج عنها أشياء جميلة».

أخرج القبطان من أحد جيوبه الكبيرة قطعة من المطاط مثبتة إلى منفاخ صغير. راح يضغط على المنفاخ فانتفخت قطعة المطاط وصارت بالوناً صغيراً.

والآن، إن البالونات شيء يثير اهتمام رئيسنا.

«أي اختراع هذا؟، اختراع لا يتجاوز عقول العصافير!». قال هذا وهو يسند مجرفته إلى جدار أحد المنازل. لم يعرف كيف يصف هذا الشيء على نحو صحيح لأنه كان، كما قيل لنا، معداً لإخافة العصافير. كانت على جانب البالون ذي المنفاخ أشرعة صغيرة تشبه أشرعة طواحين الهواء. وكانت له صفارة من الجانب الآخر. تقوم طاحونة الهواء، بواسطة المنفاخ، بنفخ البالون. وعندما يتجاوز الضغط في البالون حداً بعينه ينفتح صمام فتصدر الصفارة صوتاً قصيراً لكنه قوي يستطيع إخافة الطيور وجعلها تهرب من المكان.

سأل الرئيس متشككاً: «ما الذي يجعل هذا الشيء متفوقاً على فزاعة الطيور العادية التي تصدر صوتاً؟».

«ألم يخطر لك أن تلك الفزاعة تصدر صوتاً مستمراً تصبح الطيور معتادة على سماعه؟».

عاد القبطان إلى ضغط المنفاخ وكنا جميعاً متكئين على مجارفنا ننظر إلى البالون يمتلئ بالهواء.

سأل الرئيس مهتماً: «وإذا لم تكن هناك ريح؟».

في تلك اللحظة صدر صوت قصير يشبه طلقاً نارياً بعيداً، وما كان بالوناً لم يعد موجوداً الآن.

تابع الشاب حديثه: «كانوا يسمحون لنا بالتدرّب في نادي المصنع مرتين كل أسبوع. وكنا نستطيع البقاء هناك قدر ما نريد. كنا نستلقي على الطاولات قليلاً إذا شعرنا بحاجة إلى الاستراحة».

سألته دهشاً: «ألم يكونوا ينتظرون عودتك في البيت؟».

«في البيت! لكنني ما كنت أعيش في بيت».

قال القبطان رداً على سؤال الرئيس: «إنه يعمل بالكهرباء في حالة عدم وجود ريح».

تذكّر الشاب فجأة: «إذا أحببت، وإذا اتّسع وقتك لذلك، فإن الشباب يعزفون في رادليس الأحد القادم». راح يبحث في محفظته ثم أخرج منها بطاقتين، «قد تحبّهم!».

اعترضت قائلاً إنه حصل على التذاكر من أجله هو. وبينما كنا نكنس الأوراق اليابسة التي سقطت من شجرة كستناء عملاقة راح يشرح لي كيفية الوصول إلى المكان.

أشعر أحياناً بحنين لأمريكا. وحتى في أحلامي، أتجول أحياناً بين ناطحات السحاب أو أقود السيارة على الطرق السريعة عبر مساحات لا تنتهي، مفعماً بالآمال دائماً. لكن كل حلم من هذه الأحلام تقريباً ينتهي نهاية حزينة: أبقى في ذلك البلد، خلف البحار، ولا أعود إلى موطني أبداً، إلى حيث ولدت وإلى حيث يتكلم الناس لغتي الأصلية، بعضهم على الأقل!

لقد وضعوني في سترة أشعر بأنها تقيدني! أستطيع خلعها، بل أستطيع أيضاً أن أقذفها بعيداً بحركة متقنة ثم أذهب إلى حيث لا يجبرني أحد على

ارتداء أي سترة. لكنني أعرف أنني لن أفعل هذا لأنني إن قذفت السترة فأنا أقذف معها موطني أيضاً.

من المؤكد أن فرانز كافكا واحد من أهم الكتّاب الذين عاشوا وعملوا في بوهيميا. كان يلعن براغ ويلعن موطنه لكنه لم يستطع حمل نفسه على الرحيل، لم يستطع اتخاذ قرار بانتزاع نفسه منهما. تبدو أحداث قصصه في الظاهر كأنها تجري في بيئة قليلة الصلة بأي مكان حقيقي. أما في الحقيقة فقد زودته مدينته الأصلية بأكثر من مجرد خلفية لقصصه. لقد غمرته بما فيها من تعدد الأصوات، بحنينها وغسقها وضعفها. كانت مكاناً تستطيع فيه الروح أن تحلق صعوداً إلى أي ارتفاع، لكنها كانت أيضاً مكاناً تتخلل أجواءه رائحة تفسّخ لا تكاد تُدرك، رائحة تصيب الروح تحديداً.

كانت لغة كافكا التشيكية ممتازة، لعله كان فيها شيء لا يذكر من التيبس! لكنه كان يكتب بالألمانية مع أنه ليس ألمانياً، لقد كان يهودياً.

لم يجد أي مؤرخ أدبي تشيكي على الإطلاق في نفسه ما يكفي من كرم أو شجاعة أو لطف ليصنّفه ضمن الكتاب التشيك.

لا بد أن ذلك الشعور بالوحدة والإقصاء الذي ينبعث من كتاباته النثرية مرة بعد مرة نابع من إبعاده عن موطنه، عن شروط حياته. الحقيقة أنه يشترك في هذا مع كثير من معاصريه. لكن براغ كثّفت هذا الأمر إلى حد كبير. كان يتوق إلى الهرب منها، تماماً مثلما كان يتوق إلى الهرب من وحدة عزوبته المتقدمة في السن. لم يستطع ذلك! وما كان قادراً على تحرير نفسه إلا من خلال الكتابة.

لو كان قادراً على تحرير نفسه بأي طريقة أخرى لعاش زمناً أطول، على الأرجح، ولعاش في مكان آخر أيضاً. لكنه ما كان ليكتب شيئاً في تلك الحالة!

صار البيت قفصاً لي! كنت في حاجة إلى الإفلات، لكن كلما خرجت أثناء وجود زوجتي كنت أرى الخوف في عينيها. لم تصرِّح بخوفها أبداً، وما كان الشك جزءاً من طبيعتها. كانت تحاول أن تثق بي مثلما فعلت من قبل، مثلما تثق بالغرباء، لكن عينيها كانتا تتبعاني أينما تحركت. كانت تخرج جارية لملاقاتي عندما أعود، مسرورة لأنني عدت إلى البيت من جديد. وكانت ترحب بي ترحيباً رقيقاً. وكانت تسألني، هي التي لم تهتم من قبل بكيفية قضائي أوقاتي وبما أفكر فيه أو بما آكله، كانت تسألني إن كنت جائعاً! وخلال العشاء كانت تتحدث خجلى عن الأماكن التي يمكن أن نذهب إليها معاً لنمتع نفسينا، وكانت توافق مسبقاً على أي شيء أقترحه. لم تكن على هذا النحو من قبل أبداً، كانت تعرف كيف تهتم بشؤونها وكيف تسير في طريقها. أما الآن، بعد أن أهينت، فقد كانت تحاول أن تحقق كل ما تظنه تصوري أنا عن الزوجة الطيبة المحبة. وكانت خراقتها الطفيفة في ذلك تؤثر في وجداني وتشعرني بالخجل من نفسي أيضاً.

لم تكن المباشرة من صفاتها! كنت أشعر دائماً بأنها تتحرك بحرية أكبر في عالم الأفكار والنظريات أكثر مما في عالم البشر. كانت تفتقد السمة الطبيعية في تعاملها مع البشر. لكنها كانت تتمنى أن تكون لديها تلك الصفة. كانت تحتاجها في عملها الذي يفرض عليها كسب ثقة مرضاها. كنت أراقب محاولتها اليائسة لتحقيق ما هو موهبة طبيعية عند أشخاص آخرين كثر. كنت أعرف أنها تريد أن يُعجب الناس بها. يسعدها أن يثني الآخرون على قدراتها أو على حسن خصالها. وهي تسرع إلى رد جميلهم بالأفعال أو، على الأقل، بكلمات متحمّسة تحرجهم. أردت كثيراً أن أساعدها في عدم الإحساس بالعزلة بين الناس، أما الآن فقد دفعتها دفعاً عنيفاً أعادها إلى الزاوية التي حاولت الخلاص منها.

من الطبيعي أن لديها كثرة من المعارف والزملاء ممن يحترمونها،

لكن لديها القليل من الأصدقاء الحقيقيين. كان أولادنا يكبرون، وكان يوم مغادرتهم لنا يقترب. فإذا تركتها أنا أيضاً فمن عساه يعتني بها مع تقدمها في السن؟ من عساه يسير إلى جانبها؟

لكن، هل لا أزال قادراً على هذا؟

نحن مستلقيان، متجاوران، نتعانق. تود أن تعرف إن كنت قد استمتعت. وخلف ذلك السؤال، أشك في وجود كثير من الأسئلة القلقة المكبوتة فأطلب منها ألا تسألني عن شيء. تقول إنها تحبني وإننا سنعود سعيدين معاً من جديد. ثم تسقط نائمة، مستنفدة، وأظل أنا غارقاً في فراغ غريب يقع بين الحلم واليقظة. إنني أقاوم النوم، أقاوم حالة لا أتمكن فيها من إبعاد صوت بدأ يحدثني.

في لحظة من اللحظات كان ذلك صوت زوجتي يتحدّث إلي. كانت تنتظرني عند زوايا شوارع مدن أحلامي، وكانت تظهر بأعجوبة في قطار منطلق، وكانت تجدني في بيوت غريبة وفي وسط الحشود. كنا، بأعجوبة أيضاً، نكتشف معاً غرفاً صغيرة منسية، أو سريراً جاهزاً في ممر مهجور، أو بقعة مختفية في حديقة أو غابة. وهناك كنا نتبادل كلمات وأشعاراً هامسة رقيقة، هناك كنا نتعانق، وكنا، كما يحدث في أحلامي عادة، نمارس حباً أكثر عاطفة واكتمالاً مما نفعل في الواقع أو في الحقيقة.

ثم، بدأت تختفي من أحلامي لتظهر فيها نساء أخريات! لكنني كنت أحس عناقهن خدّاعاً غير نظيف. وكان يريحني عندما أستيقظ أن أجد زوجتي مستلقية إلى جانبي. كان يأتيني حلم آخر يتكرر أحياناً. كنت مدركاً سني في ذلك الحلم، مدركاً اقتراب شيخوختي، وأدركت أنني ظللت وحيداً طيلة حياتي وأنني فشلت في العثور على امرأة أنجب معها أطفالاً، وهذا ما كان يحزنني.

إن ما يتحدث إلى الرجل في أحلامه هو الصوت السري أو المقموع لروحه. وهذا الحلم، هكذا فسرته لنفسي، يردد ذكريات نشأتي، ذكريات أيام كنت أخشى ألا أنجح في العثور على امرأة أحبها. لكن، هل فهمت صوت روحي فهماً صحيحاً؟

حلمت الآن أنني كنت أقف منتظراً تحت شجرة صغيرة، وعرفت أن الناس يمكن أن يأتوا من جهات مختلفة. إذاً، لن أبقى وحيداً! لكنني، في الوقت عينه، خشيت أن تلتقي المرأتان اللتان أنتظر مجيئهما. صحيح أنهما تنتميان إليّ، كلتاهما، لكن أياً منهما لا تنتمي إلى الأخرى! وصلت عشيقتي أولاً. أسرعت فابتعدت بها ثم سرنا على غير هدى في أماكن أكثر إقفاراً باحثين عن مكان نستطيع أن نكون فيه وحدنا من غير شيء يعكر صفونا. لكن، في كل مرة كان أحد يظهر فينظر إلينا بإمعان. وفي النهاية وجدنا مكاناً أو مأوى. مارسنا الحب في محيط غريب غير مريح، محيط منتزع من العالم الذي حولنا على نحو لا يمكن أن يحدث إلا في الأحلام. كان كل منا متسمماً بالآخر، لكن عندما اقتربت لحظة المتعة الكبرى ظهرت زوجتي فجأة عبر باب مخفي أو منسي فحاولت من غير طائل أن أخبئ المرأة الأخرى تحت بطانية كانت قصيرة جداً. وقفت ليدا بالباب تنظر إليّ بيأس يوشك على الانفجار. لم تلمني، ولم تصرخ، راحت تحدِّق فحسب!

عند المنزل الأخير، تماماً حيث يبدأ منحدر فيشراد نزوله السريع، رفع رئيسنا رأسه ناظراً إلى النوافذ المغلقة ثم طمأن نفسه راضياً إلى عدم وجود أي إشارة على الحياة خلف تلك النوافذ. قال لنا: «إنهم جميعاً في فرنسا». ثم أخبرنا باسم صاحب المكان وبأنه شخص كان يعمل في النقل بالعربات لمسافات بعيدة وأنه كان يهرِّب المعادن الثمينة. وعندما أمسكوا به وجدوا لديه كيلوغرامين من الذهب ونصف مليون دولار.

صاح الشاب متعجباً: «نصف مليون! أنت تبالغ!».

أضاف رئيسنا وقد شعر بالاستياء: «لقد سمعت الحقيقة الكاملة من صديق لي في الشرطة الجنائية. وجدوا ثلاثة أطنان ونصفاً من الفضة وحدها. من كل الأماكن، من بولندا إلى فيينا. ووجدوا الدولارات».

كان الشاب مستنداً إلى جاروفه وقد احمرّ لونه من الإثارة: «ليتك أخبرتني عنه قبل هذا. كان طبيبي يقول، الحقيقة هي أن لديهم دواء في سويسرا، لكنه غال جداً. لو حصلت على ذلك الدواء، كما قال الطبيب، فلعله كان قادراً على شفاء كبدي».

سألت السيدة فينوس: «ولماذا؟ ألا يستطيع المركز أن يأتي به من أجلك؟».

«قال الطبيب إنني يجب أن أكون فناناً قومياً على الأقل».

ردّ الرئيس موافقاً: «هكذا هو الأمر! من يحق لهم تلقي العلاج الممتاز يستطيعون الحصول على أي نوع من الحبوب؛ وإذا ابتلعوا تلك الحبوب فهم يستطيعون ملء أنفسهم بما يشاؤون ويستطيعون أن يشربوا في حفلات الاستقبال كما يحبون. أما الأشخاص الذين مثلنا فليس لهم أي فرصة. أقول لكم من تجربتي الشخصية: إذا كنت شخصاً عادياً فلن يأبه أحد لأمرك! هل أنت مريض مرضاً قاتلاً؟ لا بأس، مت إذاً! هذا يوفّر المال!».

أجاب الشاب: «إنني أفكر فقط، لو عرفت في وقت أبكر،»

صاح الرئيس: «وماذا؟ ذلك اللص كان سيجعلك ترى مؤخرته!»

كانت أيامنا تمضي سريعاً. وكنت في بعض الأحيان أتصل مع داريا فنتحدث ونتحدث حتى يجبرني البرد الشديد على الخروج من كشك الهاتف؛ أو كنا نمشي في تلال منطقة شاركا متسلقين المنحدرات المغبرة معاً. وكانت تطلب مني أن أخبرها ما سوف يحدث لحياتنا وتتذمر من أنني هجرتها على نحو غادر.

اتصلت بي ذات يوم وطلبت مني الذهاب إلى الاستوديو فوراً. أحسست في صوتها إلحاحاً واستعجالاً أثار حذري.

استقبلتني قائلة: «ادخل سريعاً. إنني أنتظرك منذ فترة».

أخبرتني أنها رأت حلماً، حلماً يشبه رؤيا عنا نحن الاثنين، فأدركت أن كلاً منا يخص الآخر، ينتمي إليه، أدركتُ أنه القدر وأن لا معنى لمقاومته.

عندما تعانقنا. وعندما تعانقنا من جديد. لم أفكر في ما سيحدث أو في ما سأفعل، لم أفكر في المكان الذي سأعود إليه أو الذي سنذهب إليه. ما كنت واعياً إلا لقربها مني، إلا لهناءة هذا القرب.

عدت إلى الأكاذيب من جديد! ما من شيء يستطيع المرء أن يبرر به كذبة واحدة. إن الكذب يأكل الروح مثلما تفعل اللامبالاة، ومثلما يفعل الكره.

كنت، ليلة بعد ليلة، أستلقي صاحياً ساعات لا تنتهي، أفكر كيف أنقذ نفسي. إن سقطت نائماً فسوف أستيقظ بعد ساعات فأسمع على الفور صوت ذلك الرمل الناعم الذي يأكلني من داخلي. ولشدة يأسي رحت أؤلف تفسيرات واسترحامات دفاعية، لكنني لم أنطق بها أبداً لأنني كنت أعرف حق المعرفة أن لا دفاع عندي. لا يعيش الرجل حتى يدافع عن نفسه، وهناك لحظات يكون عليه فيها أن يتصرف أو أن يعترف بعجزه على الأقل ويلزم الصمت.

كنت أفتقر إلى الصلابة الكافية، أو إلى العمى الكافي، من أجل التصرف. وكنت أفتقر أيضاً إلى حب الذات الذي لا بد منه! كنت أعرف أن بقاء المرء مع شريكه السابق بعد أن يحب شخصاً آخر يعتبر ضعفاً أو حتى خيانة للذات وللشخص الآخر الذي يحبه الآن.

إننا نرمي الأشياء التي نريد التخلص منها في مقالب القمامة. وهذه

المقالب تنمو وتكبر حتى تبلغ السماء. هكذا تفعل أيضاً مقالب الناس الذين نتخلص منهم، الناس الذين يكبرون في السن فيكف أحبتهم عن زيارتهم، ولا يزورهم أحد اللهم إلا أشخاص آخرون جرى التخلص منهم بدورهم. إنهم يواصلون محاولة اختلاق ابتسامة وتغذية أمل في داخلهم، لكنهم في واقع الأمر يفوحون برائحة كريهة، رائحة من جرى التخلص منهم.

سوف تسألني داريا: وأنت، هل تخلصت مني على ذلك النحو؟ وفي أوقات أخرى ستقول أيضاً: إنه ذنبهم هم! كل شخص مسؤول عن قدره وعن نكباته أيضاً، لا يستطيع أحد غيره أن ينقذه.

عندما كان كافكا يكتب، لم يكن يهرب من عذاباته فحسب بل كان يتمكن من العيش أيضاً. نجد في ملاحظاته ورسائله ويومياته أنه لم يحاول أبداً أن يعبِّر عن رأيه في الأدب من خلال الكلمات. عادة ما يعبِّر الناس عن أنفسهم في ما يخص العالم الذي من حولهم؛ أما عند كافكا فإن الأدب ما كان شيئاً خارجياً، ما كان شيئاً يستطيع استكشافه أو فصله عن نفسه. كانت الكتابة صلاة بالنسبة له، هذه واحدة من العبارات القليلة التي كتبها عن معنى الأدب عنده. لقد نقل السؤال إلى حيز آخر: ما هي الصلاة؟ ما معناها بالنسبة له، هو الذي ما كان عنده إلا إيمان قليل جداً بأي إله يؤمن به الناس أو يقبلونه عامةً؟ الأرجح هو أنها كانت سبيلاً إلى اعتراف شخصي صادق بأي شيء في عقل المرء. إننا نلجأ إلى أحد لا نكاد نستطيع الحدس بوجوده، وبلغته أيضاً. لعل هذا هو بالضبط جوهر الكتابة أو معناها: نتحدث عن أكثر اهتماماتنا شخصية بلغة تتوجه إلى بني البشر جميعاً على قدم المساواة، كما إلى أحدٍ فوقنا جميعاً، إلى أحدٍ موجود داخلنا أيضاً بنوع من الصدى أو الانعكاس. إذا لم يلمح المرء أو يسمع في داخله شيئاً يتجاوز وجوده، شيئاً ذا عمق كوني، فإن اللغة لن تستطيع جعله يستجيب

لأي شيء. ليس الأدب موجهاً إلى هذا الشخص إذاً! إن لهذا التعريف مزية الاشتمال على الكاتب والقارئ معاً. الأدب من غير المتلقين أمر لا طائل منه على أي حال، تماماً مثلما هي الكلمة حيث لا تُسمع لغة إلا «لغة الحمقى»، حيث لا تعود اللغة قادرة على جعل أي شخص يستجيب، أي شخص حتى إن كان فوق بني البشر!

ظهر عندي مرض غريب قبيل نهاية الشتاء. امتلأ لساني وشفتاي ولثتي وباطن فمي كله بقروح جعلتني غير قادر على البلع من غير ألم. أصابتني حمّى ألزمتني الفراش طيلة اليوم في صمت لا يقطعه أي صوت. كانت زوجتي تعود في المساء؛ وكانت لطيفة معي، تطبخ لي بعض الحساء وتخبرني عن ندوة حضرتها أثنوا فيها على دراسة قدّمتها.

نهضت في اليوم الثالث فارتديت ملابسي وانطلقت إلى كشك الهاتف. كان صباحاً صافياً لطيفاً؛ وفي الشوارع المهجورة فاح عبير أزهار الربيع.

اتصلت بحبيبتي.

سألتني وقد فوجئت: «أأنت مريض؟ خشيت أن تكون قد قررت القطيعة من جديد وأن تكون قد مُنعت من رؤيتي مرة أخرى».

أرادت أن تعرف مقدار الألم في فمي وما كنت أفعله طيلة النهار عندما ما كنت قادراً على فعل شيء. وأرادت أن تعرف إن كنت أفكر فيها. أما عن أخبارها، فقد تلقت منحة تجعلها قادرة على مواصلة عملها من غير إزعاج. كانت لديها كتلة صخر في الاستوديو، كتلة كبيرة حتى أنها كانت عاجزة عن تحريكها. تلك الصخرة تشبهني تقريباً باستثناء أن واحدة من صديقاتها كانت تساعدها عليها! مضت تتحدث بعض الوقت عن عبء تلك الصخرة، أي عن عبئي أنا! وفجأة خافت أن يصيبني البرد في كشك الهاتف فوعدتني بأن تكتب لي رسالة ثم أمرتني بالعودة إلى الفراش.

كان صوتها يأتيني ناعماً من تلك المسافة. مست شفتاها فمي الذي يؤلمني مساً رقيقاً، ولمس لسانها لساني المريض فهزتني رعشات كثيرة. أردت أن أكون معها، أردت أن أراها تضرب تلك الصخرة الثقيلة بمطرقتها وأن يهدهدني ذلك الصوت حتى أغفو ثم أستيقظ فأجدها قريبة مني.

جاءتني رزمة صغيرة بعد يومين. في أعلى تلك الرزمة وجدت رسالة وكيساً صغيراً من الأعشاب التي جفّفتها بنفسها. بابونج وأعشاب عطرية، استقر رأسانا على العشب الجاف، وكنا مستلقيين نمارس الحب على المرج. كان عليَّ أن أقوم بتخمير الأعشاب المجففة ثم أتغرغر بمنقوعها؛ لكن، أهم من ذلك كله، كان عليَّ أن أعثر على السلام في نفسي حتى تكون روحي في انسجام مع جسدي. صحيح أن الأمراض تستقر في الجسد لكنها تأتي من الروح في حقيقة الأمر، الروح التي تتلوى ألماً إلا إذا عرف المرء كيف يصغي إليها فيحيط بها ويستوعبها ويضبطها من خلال أفعاله.

قرأت الرسالة كلها وبعد ذلك أخرجت تمثالاً صغيراً ملفوفاً بقطعة من القماش. لقد صنعته من أجلي، جسدان عاريان مستندان إلى شجرة. رجل وامرأة، آدم وحواء، حواء غير خجلَة من عريها ولا تقدّم لآدم ثمرة من شجرة المعرفة. كانت الأفعى غائبة أيضاً. كان ذلك آدم وحواء فقط، نحن الاثنان في جنة عدن التي فتح حبنا أبوابها أمامنا.

وعندما تعافيت شرحت لي: «لدي سبعة أجساد. ومن يصل إلى الجسد الذي في داخلها جميعاً، ولو مرة واحدة، يصطادني فأصير كلي له إلى الأبد».

سألتها: «وكيف هو شكل ذلك الجسد الذي في داخل الأجساد جميعاً؟».

«أنت محق! إنه لا يعود جسداً بل هو الغلاف الأخير للروح. وهو رقيق شفاف».

أرادت بهذا أن تخبرني عن مدى هشاشة ذلك الغلاف!

«إذاً، كيف هو ما في داخله»؟

عندما كنت في الرابعة عشرة أُلقيت أول قنبلة ذرية على الأرض. وبعد وقت من ذلك قرأت كتاباً عن طبيب هيروشيما الذي عاش تجربة ذلك التفجير النووي: إنه يصف ذلك الدمار الذي حل بالمدينة وأهلها وصفاً واقعياً غير متأثر بالعواطف. لكنه، وهذا مفهوم تماماً، لم يأت على ذكر الأرواح. أما أنا فكنت أفكر في ذلك الوقت في ما يحدث للروح البشرية في بؤرة انفجار نووي. حتى إذا كانت الروح شيئاً غير جسدي، وحتى إن كانت حيزاً تغلفه المادة، حتى إن كانت من طبيعة مختلفة تماماً، فهل تستطيع تحمل هذه الحرارة كلها؟ من عساه يستطيع تخيل روحٍ في مركز الشمس أو أي نجم آخر؟

أنت تحطم رأسك دائماً بأسئلة لا معنى لها. ما فائدة هذا؟

قل لي على الأقل ما الذي تظن أنه يحدث للروح التي لا تستطيع احتمال ضغط العالم من حولها فتنفجر أو تتشظى إلى أجزاء لا يستطيع أحد لملمتها من جديد؟

لا تقلق! هي لا تفنى. لعل روحاً جديدة تنبثق من كل شظية مثلما تخرج الشجرة من البذرة. أو لعل هذه الشظايا تجتمع كلها من جديد في وقت آخر، في حياة أخرى، تتجمع مثل تجمع قطرات الماء من الضباب. من الأفضل أن تتساءل عما يتعين عليك فعله حتى لا تفنى الأرواح الموجودة من حولك.

إنني أسأل هذا السؤال أيضاً!

بل من الأفضل ألا تطرح أي أسئلة! حاول أن تكون أقل ذكاء، ولو قليلاً. كن معي الآن ولا تفكر في أي شيء آخر!

حدثتني عن الكمبوديين الذين يرقصون ويغنون ولا يفكرون قلقين

في المستقبل. هم يعرفون أن الله قريب منهم لكنهم لا يفكرون فيه. ثم انظرْ إلى الأشياء التي أفلحوا في إبداعها حتى في الأزمان الغابرة! تحاول إعطائي فكرة عن مئات التماثيل التي تحف بالطريق المؤدية إلى قوس النصر في أنغور ثام. بل إنها تلتقط قلماً وتحاول أن ترسم من ذاكرتها ما يشبه ملكاً منبوذاً ذا وجه ينضح بالقناعة والرضا.

قالت متحسرة: «مؤسف أنك لم تكن هناك معي. لكننا سنذهب ذات يوم معاً».

«لا أعرف كيف يمكن أن نذهب إلى أي مكان معاً. لقد سحبوا جواز سفري منذ عشرة سنوات».

«لا تكن عملياً إلى هذه الدرجة!».

«حتى إن ما كنت عملياً فإن من يقفون على الحدود عمليون من ناحيتهم!».

«إذاً، قدم طلباً للحصول على جواز سفر. لا بد أن نذهب معاً إلى مكان ما ذات يوم. يجب أن يكون هناك بحر ودفء حتى نستطيع البقاء معاً طيلة الوقت».

سأقدّم طلباً من أجل جواز السفر حتى نستطيع الذهاب إلى كمبوديا معاً، حيث الناس سعداء لا يقلقهم شيء، حيث نكون بعيدين حتى لا يصلني صوت إلا صوتها.

لكن، لا أصوات تصلني أصلاً!

ينتشر الضباب من حولي ويفقد ما بقي من العالم شكله. ومن لحظة لأخرى تنشقّ ستارة الضباب فنلمح صوراً لمشهد يستحم في ضوء المساء المحمر. وتحت المطر الكثيف تتغضن المساحة تحت نوافذ الفندق الصغير ويتألق برج باروكي ممتلئاً على الناحية الأخرى من الشارع،

وتبتسم لنا العذراء المقدسة من لوحة جدارية أودى الزمن بألوانها. لعلنا لسنا ملعونين تماماً، تلوح الشواطئ أمام أعيننا بخضرتها اليانعة ثم تصبح ذهبية ثم حمراء، تطفو ورقة شجر صوبنا فنغرق معها، نستلقي في العشب، نستلقي وسط الطحالب والرمل، ومن فوقنا يمر سرب طيور مهاجرة، وتمر الغيوم ويمر الزمن، وحده الزمن يقف ساكناً لحظة واحدة وسط صرخات متكررة. نشغل المدفأة الغازية لأن الغرفة باردة ثم نزيح السرير ليصير قرب جسد الموقد الحار. وفي لحظاتنا الفاصلة القصيرة يخبر كل منا الآخر عن الأيام التي عرفها قبل تعارفنا، عن الأمس، عن معرض الفنانة الصديقة، عن لقاءاتنا وأحلامنا، نتحدث عن صور ديان أربوس وعن عالمها القبيح، عن القبح في الفن، عن «ذئب السهوب» لهيرمان هسه، وعن إمكاناتنا الخبيئة، عن الفن المكسيكي القديم وأثره على هنري مور، وبالتأكيد عن زادكين وجياكوميتي أيضاً، عن كامو وتزفيتاييفا، عن مجموعة قصصي القصيرة وعن كتب أصدقائي التي أعرتها إياها مخطوطة. نقلي قطعة لحم في المقلاة الوحيدة الموجودة ثم نأكل معاً على الطاولة المنخفضة ونشرب نبيذاً أحمر في حين تدوّم ندف الثلج خارج النافذة. في الغرفة عبير صلصال وألوان، وعبير أنفاسها. وفي المساء نخرج إلى الحديقة الصغيرة على جزيرة كامبا، ما زلنا غير قادرَيْن على الفراق. نتبادل القبل على ممر تحت أشجار عارية. تصيح بنا امرأة ضئيلة عجوز لها رأس مثل رأس الغراب، كأنها شكلته بأصابعها: «هذا شيء رائع، هذا شيء رائع!». ثم تضيف شيئاً يتعلّق بعمرنا وبأن علينا أن نخجل.

إن لدي عملي، طيلة الوقت، ثمة أشخاص في العالم كنت أريد رؤيتهم حتى وقت قريب. تريد ابنتي بيتا أن ترسم لي صورة جانبية. وقد دعاني ابني بيتر إلى حفلة موسيقية. ووجدت زوجتي وظيفة لائقة أخيراً، لكنني لا أملك وقتاً للاحتفال بهذا.

عاشت بيتا أول تجربة حب. وهي تعيش الآن حبها الثاني، إنه مدمن مخدرات يعشق بينك فلويد ويشم التولوين. تشعر زوجتي بالقلق وتطلب مني أن أتدخل على نحو ما. أتحدث مع ابنتي حتى ساعة متأخرة من الليل. إنها تفهم كل شيء وتتفق معي. سوف تجد حباً آخر عما قريب، لكنني ما زلت على الحب نفسه، فهل أنا مدمن؟ أعبّ ذلك الضباب ويمتص جسدي تلك القطيرات السامة التي تخدر عقلي وإرادتي. لا أرى شيئاً أمامي ولا من حولي، لا أرى غيرها، أعيش من أجل اللحظة الراهنة فقط. أأفرح بالهبة التي جاءتني أم أجزع لشدة ضعفي، لأنني لا أستطيع مقاومة العاطفة التي تأكلني؟

لا أستطيع الاستقرار على رأي، لا أستطيع إنكار عاطفتي ولا أستطيع استخلاص النتائج منها. لا أستطيع الذهاب تماماً ولا المجيء تماماً، لا أستطيع عيش الحقيقة. لقد أوثقت نفسي في مكاني بالأعذار، يراقب كلب حراسة كل جملة أنطقها. إن لدي قطيعاً كاملاً من هذه الكلاب في داخلي! أشق طريقي بينها فيصم عواؤها أذنيّ أحياناً ويثير وقع أقدامها الذي لا صوت له ذعراً في أحلامي. في أحد الأيام، سوف يقترب أحدها مني، من الخلف، ويغرس أنيابه في حنجرتي فلا أستطيع حتى أن أصرخ، سأظل من غير صوت إلى الأبد كما أستحق أن أكون.

كم من الوقت أستطيع احتمال هذا، كم يمكن أن يدوم؟

حتى الموت يا حبيبي!

هل تصدقين هذا حقاً؟

أو، حتى أتركك أنا لأنك لن تستقر أبداً على شيء تفعله. تبدأ البكاء. تبكي لأنني لا أستطيع اتخاذ قرار، لأنني شديد التردد، لأنني أضع المبادئ فوق الحب، لأنني تحطمت عند اصطدامي بالحب كما يتحطم حجر، بل

تحطمت أكثر منه لأن الحجر قابل للتشكيل، قابل للتحول إلى شكل، تبكي لأنني أكثر قساوة مما لو كنت مصنوعاً من حجر، لأنني ألعب لعبة قاسية معها، ولأنني أعذبها كما لم أعذب أحداً من قبل، تبكي لأنني طيب، لأن أحداً لم يبق معها مثلما أفلحت في البقاء، تبكي لأن كل شيء في حياتها تحول إلى معاناة.

أعرف أنها أوكلت أمرها إلى رحمتي، وترعبني فكرة أنني قد أخيب رجاءها.

تشع شمس الربيع على ذلك الرصيف الصغير تحت الدرجات الخشبية. ومن حبل الغسيل تأتي رائحة حفاضات أطفال. ومن فوق جدار المنزل المقابل نستطيع رؤية سقف أحد الأديرة تزينه هالة من خشب القيقب.

داريا جالسة إلى جانبي مرتدية قميصاً أبيض حديث الكي وتنورة مخملية بلون الشوكولاته. لقد اعتنت بملابسها لأننا ذاهبان إلى حفلة موسيقية هذا المساء. تبدو لي جميلة جداً، ثمينة جداً، كما لو أنني عدت أربعين عاماً في الزمن، أو نحو ذلك، كأنني أنظر إلى أمي معجباً مفتوناً. لكننا سوف ننهض ثم نصعد عدة درجات ثم تخلع ملابسها ومظهرها الرائع الذي لا يمس وتأتي لتعانقني فأحس كما لو أن جدران أوعيتي الدموية تنفجر من دفقة سعادة لا أكاد أستطيع احتمالها.

نستلقي جنباً إلى جنب في الليل الذي يرخي سدوله. وفي مكان لا نراه، خلف القصر والنهر، يستعد الموسيقيون لعزف بيتهوفن.

«ما الذي تحبه أكثر من أي شيء؟».

أعرف ماذا يُنتظر أن أجيب، لكنني أسأل: «الآن أم في أي وقت؟».

«الآن وفي أي وقت، إن كان هناك فرق!».

أجيب: «أن أبقى هنا معك. أن أبقى معك الآن».

«وفي أي وقت؟».

«أود أن أعرف ماذا يحدث للروح».

«أتود أن تعرف هذا حقاً؟».

أعانقها فتشد نفسها إليّ وتهمس: «أنتِ تريد معرفة الكثير دائماً يا حبيبي. هل يكون عليك دائماً أن تكتشف شيئاً من الأشياء؟».

«أنتِ التي سألتيني!»

«كن سعيداً لأن هناك أشياء لا سبيل إلى معرفتها، لأن من الممكن حدسها فقط».

تحتضنني بقوة شديدة تجعلني أئن: «ماذا تحدسين؟».

«لا تقلق فالروح لا تفنى بل تستمر في العيش على نحو ما».

«في جسد آخر؟».

«ما الذي يجعلها مضطرة إلى العيش في جسد؟ أتخيل روحك مثل دعامة راسخة. تبدو مصنوعة من الحجر، لكنها مصنوعة من ريح ونار. وهي ترتفع عالياً عالياً حتى إنك لا تستطيع رؤية قمتها من هنا، من الأرض. وهناك، في الأعلى، هي تبتسم».

«الدعامة تبتسم؟».

«بل روحك يا حبيبي!، لأن لديك ابتسامة في داخلك حتى لو ظننتَ أنك لا تملك إلا الحزن والألم. وهذا هو سبب سعادتي معك».

ثم تسألني: «هل قدمت طلباً من أجل جواز السفر؟».

امتلأت الغابات بالطحالب وشقائق النعمان من جديد. لا أحد غيرنا يذهب إلى هناك. تمارس الحب معي على نحو يُذهب عقلي. تريد أن تعرف: «ألا يعجبك هذا معي؟».

«نعم، يعجبني! لم أعرف شيئاً مثل هذا من قبل».

«لكنك لست معي تماماً!»! تسألني: «كيف تستطيع العيش هكذا؟».

«كيف؟».

«على نحو منقوص، منقسم كثيراً!».

تنتظر مني إشارة تدل على أنني حسمت أمري أخيراً، لكن، لا إشارة! تسألني: «هل ستذهب معي إلى مكان ما في الصيف؟»

كيف أستطيع ترتيب أموري حتى أتمكن من الذهاب معها؟ ما الكذبة التي أستطيع اختراعها؟ يمسك بي خوف بارد.

«هل أنت قادر على فعل أي شيء من أجلي أصلاً؟».

سوف أقدم طلباً من أجل جواز السفر، لكنني متعب! أنهكتني ممارسة الحب، وأنهكني الحب نفسه، واللوم، والتوق، وعدم قدرتي على اتخاذ قرار، أنهكني هربي الذي لا يتوقف، أنهكتني عواطف حبيبتي والثقة الخنوع عند زوجتي.

لا أكاد أصدق هذا! لقد أعطوني جواز السفر، بدأت أزهار البراري تتفتح. بعيدة متسعة، لا أحد يختبئ تحتها. تطفو بتلات الزهور من غير صوت منحدرة على جسدينا العاريين وتطن النحلات من فوقنا. تسألني: «هل تشعر بالسعادة أيضاً يا حبيبي؟».

أشعر بالسعادة معها.

تهمس لي: «هل تذهب إلى البحر معي في الصيف؟».

عثرت على ملاحظة أخرى لكافكا حول رسالة الأدب. كتب كافكا: ما يلزمنا هو الكتب التي تضربنا مثلما تضربنا أكثر الكوارث إيلاماً، مثل موت شخص نحبه أكثر مما نحب أنفسنا، نحتاج كتباً تجعلنا نشعر أن شيئاً ساقنا إلى أعماق غابة بعيداً عن بقية بني البشر، تجعلنا نحس بشيء يشبه الانتحار.

يجب أن يكون الكتاب مثل فأس تضرب البحر المتجمد في داخلنا.

مع صدقه كله، ما كان كافكا قادراً على الكتابة إلا عن أشياء عاشها بنفسه. لقد سجَّل دربه المتوحدة إلى الأعماق. لقد انحدر نزولاً إلى أبعد ما يستطيع أي إنسان. وهناك في الأسفل أتت النهاية، نهاية طريقه ونهاية كتاباته. ما كان قادراً على قطع نفسه عن أبيه، ولا هو استطاع حمل نفسه على إكمال حب ناضج، تلك كانت هاويته! وفي القاع رأى شخصاً أحبه، ومع انحداره كانت صورة ذلك الشخص تقترب، لكنها كانت تختفي في الظلام في الوقت ذاته. وعندما صار قريباً إليها بما يكفي لأن يمد يده صوبها تقطعت أنفاسه وابتلعه فقدان الوعي.

لكن هاويته تلك تشبه الهاوية التي ننحدر فيها جميعاً، أو التي نحدق فيها بفضول وخوف على أقل تقدير. نستطيع رؤيتها في انعكاس أقدارنا، في أنفسنا التي تحاول عبثاً أن تبلغ النضج، التي تحاول عبثاً الوصول إلى وجود آخر، إلى ذلك الذي هو فوقنا. لكنني لا أعرف إن كنا لا نزال قادرين على الانحدار إلى أي عمق، لا أعرف إن كنا قد صرنا مغفّلين أو مفسَدين إلى حد يجعلنا لا نستطيع معرفة الصدق عندما نراه ولا نستطيع أن نقف أمامه معجَبين. لا أعرف إن كنا قد صرنا نحاول بدلاً من ذلك أن نحجِّمه، أن نستجوبه وأن نكيِّفه على نحو يناسب أفكارنا نحن. عند ذلك يصبح الصدق بالنسبة لنا انعدام القدرة على الحياة، بل حتى مصدراً للاضطراب العقلي؛ وتصبح الشجاعة ضعفاً يثير الإشفاق. ويصبح الشخص الضعيف وحده، الشخص غير القادر على العيش تبعاً لأفكارنا ومتطلباتنا، شخصاً غير مقبول، بل غير مفهوم لنا بسبب مقدار معاناته، ولكونه غير سعيد مقارنةً معنا! بل إننا لا نستطيع حتى أن ندرك ما الذي يأتي به ذلك الانحدار المؤلم إلى الأعماق. إن الغائص المتوحِّد يرى في لحظة واحدة ما لا يراه أكثرنا ممن يشفقون عليه في حياتهم كلها.

يقع أعلى جبال كمبوديا في سلسلة كاردامون الجبلية غير البعيدة عن بنوم بنه، واسمه كا ـ كبو. يبلغ ارتفع قمته 1744 متراً وتغطيه غابة عتيقة. اصطدمت طائرتنا بقمم الأشجار وتحطمت وسط الغطاء النباتي الذي تحتها. أفلحنا في القفز من هيكل الطائرة المحطم قبل أن تشتعل فيه النار. شققنا طريقنا عبر النباتات الكثيفة. كانت تبحث عن مكان نستطيع أن نستلقي فيه آمنين من الأفاعي والعقارب. لكن كل مكان وجدته، وحيثلم تكن تعثر على فسحة خالية، كانت تلك الفسحة مليئة بالجثث.

قلت: «سيكون علينا أن نعثر على بلد آخر حتى نستطيع أن نكون وحدنا».

في تلك اللحظة ظهر جنديان مع أشرطة حمراء على بدلتيهما الموحلتين وتقدما من وسط الغابة ثم قال أحدهما بلغة مفهومة لنا تماماً على نحو مفاجئ: «من الأفضل أن تعثرا على عالم آخر!».

اندفع الجنديان في ضحك صاخب من ضحك الخمير، ضحكا حتى ترنح جسداهما، ثم راحا يطلقان النار علينا. أدركت في اللحظة الأخيرة أن أحداً لا يمكن أن يبالي بنا، نحن الاثنين، في بلد فيه خمسة ملايين إنسان يتضور أكثرهم جوعاً.

بلغنا نهاية مهمتنا عند منتصف النهار. قال رئيسنا ناظراً إلى السماء التي كانت ذات مرة مختفية أكثر من الآن خلف سحابة من البخار وثاني أكسيد الكبريت: «لقد طال عملنا اليوم أكثر قليلاً من المعتاد. دعوني أقل لكم إن هناك شهوراً يشتغل معي فيها أشخاص يأتون ويذهبون كما في الحانة، يأتي كل واحد منهم من أجل الحصول على مال سريع، وتكون الشوارع قذرة مثل زريبة خنازير. لا بد لكل شيء من، أنتم تعرفون! لكنني لست مغفلاً! لقد لاحظوا ذلك، حتى في المكتب. وفي ذات يوم أتوا ففحصوا منطقتي كلها فلم يجدوا أي خلل. وحده ابن الحرام المشوه ذاك هو الذي يؤذينا كلما تمكن من ذلك».

كنا نتحدث ونسير في صف غير منتظم. وكان على أحد جانبي الشارع صف من أبنية سكنية وعلى جانبه الآخر حديقة صغيرة فيها أشجار قيقب وليمون. وكانت كل نفحة ريح تنتزع من قمم تلك الأشجار وابلاً من الأوراق المتعبة. وقف الشاب ناظراً إلى داخل الحديقة. لعلّ تسلّق الشارع المنحدر قد أتعبه، أو لعله لمح أحداً يعرفه في ذلك الممر المرصوف بالحصى، أو لعله كان في حاجة إلى ترك عينيه تتجولان بين أشياء أعلى من مستوى الأرض قليلاً:

وقد يحدث للكناس
أثناء تلويحه
بمكنسته القذرة
من غير أمل تقريباً
بين أنقاض مغبرة
أنقاض معرض قديم مهمل
أن يقف مدهوشاً
أمام تمثال مميز
أو أمام أوراق وأزهار جافة...

جاءت هذه الأبيات إلى ذهني على نحو مفاجئ، وجاء معها صوت الرجل الذي قالها.

قالت السيدة فينوس: «ثمة مال يمكن الحصول عليه في أماكن أخرى أيضاً».

«أعرف شخصاً انضم إلى عصبة تجمع الفضلات في شاحنات في سليفينيك. وفي النهاية يَنقلونها من هناك بالعربات».

أثار هذا الكلام رئيسنا: «لا تقولوا هذا! ما من فرصة لكم هناك أبداً، فهي محمية خاصة لعصابة ديميتر. لا يستطيع أحد إخراجهم من هناك، ولا حتى المدّعي العام نفسه».

عندما وصلنا إلى البار المزدحم في نهاية الشارع كنا محظوظين لأننا وجدنا مكاناً إلى طاولة كان شاغلوها من بناة القرميد في البناء المجاور يهمون بالمغادرة. أشار رئيسنا برأسه صوبهم قائلاً: «ما زالت فتاتي تنتظر الشقة منذ سبع سنوات. وقد قيل لها في التعاونية إن عليها أن تنتظر سبع سنوات أخرى على الأقل. وهذا ما يجعلني أرغب في رفس هؤلاء الكسالى البائسين في وجوههم عندما أراهم. لكن من الذي ضربك هكذا؟». قال هذا مستديراً صوب فينوس، «لا تقولي لي إنك سقطت على الدرج».

قالت فينوس بصوت لا أزال معجباً به: «لكنني سقطت على الدرج فعلاً. إن ساقيّ تنهاران تحتي من حين لآخر».

قال الرئيس لها ناصحاً: «لو كنت مكانك يا زولوفا لما احتملت هذا. اذهبي إلى المركز ودعيهم يوثّقون الحالة ثم اذهبي وقدمي بلاغاً بأنك تعرضت إلى أذى جسدي خطير. سوف يعاقبونه بغرامة كبيرة لن يكون قادراً أبداً على دفعها كلها».

قالت السيدة فينوس معترضة: «لكنه شقيق زوجي!».

«أي واحد؟».

«ذلك الذي من أوسترافا، طبعاً! إنه شقيق جوي الذي توفي منذ عامين. وهو دائماً يأتي إلى بيتي على هذا النحو. مرة كل سنة».

«أما زال يعمل في المناجم؟». أراد الرئيس أن يعرف.

قالت فينوس موضحة: «هذا هو كل ما في الأمر. إنه أحمق مثلما كان جوي. إن رئتيه تالفتان إلى حد كبير، مليئتان بهباب الفحم. والطبيب نفسه،

القاتل الذي أودى بحياة زوجي جوي قال له إنه لا يستطيع إرساله إلى مأوى العجزة، فلن يسمحوا بذلك. وإذا كتب لهم حقيقة الوضع فسوف يضعونه في وظيفة على السطح بدلاً من العمل في المنجم. وعند ذلك سوف يجعلونه ينظف المصابيح مقابل أجر تافه حتى يصيح طالباً إحالته إلى التقاعد. تماماً مثلما قال ذلك القاتل لجوي، وعده في إحدى السنوات بأن يضعه في مركز العجزة على الفور. هذا ما وعد به ذلك الطبيب الوسخ عندما صار جوي غير قادر على المشي حتى لخطوات قليلة. وبعد ستة أشهر صارت حالته غير قابلة للعلاج سواء اعتبروه عاجزاً أم لم يعتبروه. لقد قلت لشقيق زوجي: فينس! انظر إلى ما أصاب جوي. هل أنت أحمق أم ماذا؟ وهذا ما أغضبه. فقلت له: أنتم متشابهون جميعاً، أنتم الرجال، لديكم شجاعة تكفي لضرب امرأة، لكنكم تفعلونها في ثيابكم عندما يتطلب الأمر الوقوف في وجه المندوب».

قال الرئيس محتجاً: «ليس جميع الرجال متشابهين».

«لا تقل لي هذا. كم سنة أمضيت في الجيش؟».

«خمسة وعشرين عاماً». كانت في صوت رئيسنا نبرة اعتزاز.

«وكم معركة خضت؟».

أجاب الرئيس بصوت جاف: «لم يُقاتل أحد».

«من قال لك هذا؟».

قال لها: «يقاتل الجندي عندما يتلقى الأوامر بالقتال. وإذا لم تأته أوامر فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً».

ردت فينوس بحدة: «أما النساء فهن يقاتلن حتى من غير تلقّي أي أمر. لماذا لا يعطون النساء أسلحة برأيك؟». استدارت صوبي سائلة: «ولماذا تبتسم أنت؟ لا شك في أنك كنت هو شي منه حقيقياً».

قال رئيسنا مؤنباً: «انتبهي إلى لسانك يا زولوفا. تعرفين أنني وقفت إلى جانبكم دائماً. وسوف تسنح لك الفرصة قريباً لإدراك هذا». كنا نعرف جميعاً أن وظيفة عامل اللاسلكي في المكتب توشك أن تصبح شاغرة وأن رئيسنا كان مصمماً على الفوز بها، «سوف تتعبين من استخدام هذه المكنسة ذات يوم».

قالت فينوس: «وماذا إذاً؟ أستطيع أن أراك تجعلني أقود عربة لها عجلات من ذهب!».

لاحظت أن القبطان كان مستمتعاً بهذا الجدل بينهما.

زارني المخترع المجنون في مكتب الجريدة مرة أخرى. حدث ذلك عندما كان الجنود الأجانب يعيثون فساداً في براغ. جلس على الكرسي. كانت الأحداث الأخيرة قد دفعته من جديد إلى الانشغال بالحل الذي ابتكره من أجل هباب الفحم. لقد غير تركيبة المواد المذيبة وأضاف وسيطين إلى التفاعل. صار واثقاً من النتيجة الآن! سوف يتحول الجليد إلى ماء، إلى محيط كامل. فهل أدرك أنا نتائج هذا؟ هل أعرف البلدان التي سوف تغمرها المياه إذا ارتفع منسوب المحيط؟

كانت هولندا أول بلد يخطر في بالي. لكنه أخرج من جيبه خريطة لأوروبا كان قد ظلل عليها المناطق التي ستختفي تحت المياه. سوف تغمر المياه هولندا وشبه جزيرة جوتلاند بالتأكيد، لكن أكثر المناطق تأثراً هي الأراضي المنخفضة إلى الشرق بكل ما فيها من مدن عملاقة.

تخيلت صورة رأس تمثال الفارس البرونزي بارزاً وحده من فوق الأمواج، بل كان ذلك الرأس نفسه موشكاً على الاختفاء أيضاً:

«قفوا هنا» ـ هكذا أمرت الطبيعة ـ

«نافذتكم تطل على أوروبا؛

فقفوا راسخين عند البحر، لا تتزعزعون.
نعم، ستأتي سفن من جميع الجنسيات
عبر بحار لم تخض غمارها من قبل.
وسوف نمرح كثيراً، ونتجول على هوانا».
سألني ضاماً يديه مثل من يصلي: «هل تفهم الآن؟».
حصار! الأمواج الشريرة تهاجم
تتسلّق عبر النوافذ مثل اللصوص
تتعلّق بسطوح المراكب
وتضرب الزجاج
وتمر ألواح تشبعت بالماء
وعوارض خشبية وأسقف وأكواخ محطمة،
تتبعثر أحشاء مستودعات تجار حرصوا عليها كثيراً،
تتبعثر أمتعة الشحاذين الشاحبين الصغيرة
وتنجرف جسور تحت وطأة ريح عاتية،
وتوابيت من مقبرة أغرقها الماء
تسبح في الشوارع جميعاً!

لقد فهمت! لعل ذهنه مضطرب بعض الشيء، لكن شعلة تضطرم داخله، شعلة يطفئها أكثرنا في نفسه، مكراً أو حسنَ تدبير!

كنت آمل دائماً أن تضطرم شعلة الحياة نقية صافية داخلي. كنت آمل أن أعيش وأن يكون في داخلي ظلمة في الوقت نفسه، أن أعيش وأتنفس الموت. فلأي شيء هذا؟

لكن، أي شعلة تلك التي اضطرمت هناك، في داخلي، عبر هذه السنوات

القليلة الماضية؟ لم أستطع الإجابة على سؤالي، لقد فقدت قدرتي على الحكم. كل ما أحاط بي في الماضي، وكل ما كان مهماً عندي، كل ما كان يفعمني بهجة أو حزناً، صار مسطحاً أو مثل شيء مادي باهت يتجرجر عند أقدامي.

كان ابني في المساءات يعزف لنفسه أغنيات لمغنيه المفضلين. وكانت كلمات هذه الأغاني احتجاجاً متواصلاً ضاجاً ضد حالة اللاسعادة في مجتمعنا. كان متعلقاً بهذا الاحتجاج الذي هو احتجاج وحيد الجانب كما لو أنه أراد، في اللاوعي، أن يعوض عن الأسلوب وحيد الجانب الذي أدرت به ظهري إلى أي مظالم يمكن أن تبعدني عن منطقة نعيمي الخاصة.

وكانت ابنتي تأتي إلى البيت متأخرة أكثر الأيام تفوح منها برائحة النبيذ ودخان السجائر وتتحدث عن الحب بسخرية لئيمة. هل كانت غير قادرة على الوصول إلى الحب الذي تريد لأنني وصلت إلى حبي، أو على العكس، لأنها كانت تبحث عنه حيث بقيت أنا أعمى؟

كانت زوجتي تذهب إلى مركز العلاج النفسي على نحو منتظم. كانت هي أيضاً تنحدر إلى أعماقها، تبحث عن نفسها هناك، واثقة من أن ضياءً مرشداً حكيماً يرافقها في تلك الرحلة. وقد توصلت إلى نتائج غير متوقعة عن نفسها وعني وعن علاقتها بأمها وعلاقتي أنا بأمي. وقد سرها أنها تعلمت أخيراً كيف تفهم نفسها وكيف تحسِّن نفسها بعد ذلك. وكان يؤسفها أنني ما كنت راغباً في فعل شيء مماثل، أنني ما كنت أتوق إلى فهم نفسي، وأنني مستمر في إصراري على أفكار خاطئة عن نفسي.

إن من أحبهم يعرفون كيف يتعين عليَّ أن أدير حياتي. وهم يعرفون ما هو صواب في الحياة، ويعرفون تراتبية القيم عندهم. وحدي أنا، أهيم في كل مكان من غير يقين!

لا شك عندي في أن زوجتي تتجاوزني أشواطاً في معرفتها بأسرار الروح الخبيثة وبما يحرك عواطف البشر ومشاعرهم. كان ينمو لديها اهتمام بالأساطير القديمة، وقد درست كتباً تتحدث عن عادات المتوحشين البدائيين وشعائرهم، المتوحشون الذين لم تر بلادهم أبداً ولن تراها أبداً على الأرجح. وقد حاولت إقناعي بأن ما يفتقر إليه الناس عامة، ونحن الاثنان أيضاً، هو الطقوس! مرت علينا سنين لم نكد فيها نتبادل أي نوع من الغزل. وقد غزا علاقتنا عنصر من الدنيوية نتيجة ذلك. سألتني إن كانت تستطيع أن تقرأ لي جزءاً من دراستها عن التضحية والتضحية بالنفس فقلت إن الاستماع إليها يسعدني. استلقيت على الأريكة واضعاً رأسي قريباً من الكرسي الذي جلست عليه ثم حاولت الإصغاء إليها بانتباه، لكن الإعياء غلبني وراحت معاني الكلمات تنجرف بعيداً عني. كنت، من حين لآخر، أرفع رأسي لأنظر إليها، إلى زوجتي التي عشت معها ولم أعش معها منذ نحو خمسة وعشرين عاماً. كنت أدرك اهتمامها الحقيقي وحاولت أن ألتقط معنى بعض الجمل على الأقل. وعند نقطة من قراءتها نظرت إليّ وسألتني قلقة إن كنت قد مللت، فأجبتها متعجلاً: «لا! إن مسألة المصابيح الخاصة بالأضاحي تثير اهتمامي ـ لعل ذلك بسبب تجربة طفولتي فقط ـ وتثير اهتمامي أيضاً شعائر التضحية لدى شعب ندمبا ولدى الخوند الهنود، رغم أن مقدار الوحشية أو السادية الخبيثين في طبيعة البشر يثير حيرتي».

بدت زوجتي راضية بذلك فتابعت القراءة بعد أن لمست أصابعها رأسي لمساً رقيقاً. صرت واعياً فجأة بقربها مني وأحسست بالإحباط لأنني ما كنت قادراً على منحها تركيزي كاملاً والبقاء معها. أشعرتني قلة انتباهي بالذنب. كان ذلك إحساساً طفولياً بالذنب: كانت أمي منحنية بحب فوقي أما أنا فقد تظاهرت بالنوم، تظاهرت أنني لم ألاحظها حتى أخفي مشاعري. غمرتني مشاعر رقيقة تجاهها، وغمرني أيضاً أسف لأنني تركتها

تتكلم طوال ذلك الوقت، لأنني تركتها تخاطبني هذا الوقت كله من غير أن أصغي إليها. أحببت أن أعانقها وأن أحكي لها كل ما يثير اضطرابي: «سامحيني وابقي معي دائماً مثلما نحن الآن». وددت أن أقول لنفسي: «ابقَ معها فهي زوجتك رغم كل شيء». وددت أن أقول لروحي: «ارتاحي أخيراً!». ووددت أيضاً أن أقول للمرأة الأخرى: «اتركيني أذهب من غير إحساس داخلي بالحنق أو بأنني أفعل أمراً خاطئاً». وقلت بصوت مرتفع: «لقد قمت بعمل جيد حقاً في هذه الدراسة». ابتسمت لي زوجتي ابتسامتها القديمة، ابتسامة صبية صغيرة.

قال القبطان متذكراً: «كنت ذات مرة في سفينة تقودها امرأة. كان ذلك في بحر البلطيق».

«ماذا كان اسمها؟». أراد رئيسنا أن يعرف.

«اسم المرأة؟ لا أعرف! كان اسم السفينة الدلفين، وكانت تابعة لشركة الصيد. كنا نقوم بتجريب محركاتها في البحر بعد إجراء صيانة شاملة لها. وهكذا خرجنا بها من غير حمولة. وكان عليها ستة من الزملاء وأنا وتلك المرأة».

«هل كانت المرأة الوحيدة مع ستة رجال على تلك السفينة؟». هكذا سأله الرئيس آملاً في سماع قصة إباحية مثيرة. لكن القبطان كانت لديه أشياء أخرى يرويها. لقد غادروا ميناء وارنموندي متجهين شمالاً ثم انعطفوا مقدار ثلاثين درجة شرقاً حتى لا يجدوا أنفسهم في ميناء جندر الدانماركي. هبت رياح شمالية غربية وهطل المطر وانخفضت الرؤية حتى 300 متر. ثم رأوا بعد ساعة أو نحو ذلك شيئاً طافياً في البحر. بدا هذا غير قابل للتصديق على مسافة خمسة عشرة ميلاً من الشاطئ، لكنه كان بالفعل اثنين من البشر، رجل وامرأة على فراش مطاطي عائم. كانا بملابس السباحة فقط.

سأل الشاب: «هل دفعتهما الريح؟».

«قلت لك قبل قليل إن الريح كانت تهب في اتجاه البر. لقد أرادا الوصول إلى الدانمارك. اجتازا الطوق أثناء الليل، وساعدهما الطقس السيئ في ذلك». كلما ترك القبطان مملكة شعره صار شخصاً منطقياً واقعياً.

«فور رؤيتهما سفينتنا سارع الاثنان إلى التجذيف بعيداً عنا كأن مسّاً من جنون أصابهما، لكن قبطانتنا أمرت بإنزال القارب وجلبهما إلى سطح السفينة. كان البائسان متجمدين لشدة البرد لكنهما توسلا أن نتركهما في البحر. ما كان أمامهما الآن إلا نصف يوم حتى يصلا، لكن تلك العجوز قررت أن عليها تسليمهما».

سألته: «ماذا جرى لهما؟».

أجابني القبطان: «وكيف لي أن أعرف؟ لو كنت مكان هؤلاء الناس لبنيت لنفسي قارباً لا يستطيع أحد أن يلحق به. لكن هذا النوع من الناس لا يعرف شيئاً من الهندسة. إنهم يحاولون العبور سباحة: على الظهر، وعلى الصدر. ولا يراهم أحد بعد ذلك إلا إذا قذفهم البحر إلى الشاطئ وقد أكلت الأسماك أجسادهم». دفع القبطان قبعته إلى الخلف وتناول جرعة. لا شك في أن تصميماته تضم تصميماً أولياً لغواصة صغيرة تعمل بالهواء المضغوط أو بأنبوبة من غاز البوتان.

قال رئيسنا محاولاً أن يستعيد مركز المشهد: «لا أحد منا لديه ضمان مكتوب لحياته».

«أعجب من أنهما حاولا ذلك!»، بدا الشاب مذهولاً، «يجب أن يعرفوا أن هذا عديم الجدوى».

تدخل رئيسنا في الحديث من جديد: «هذا لأنهم حمقى! كل امرئ يظن أنه قادر على النجاح!، أغبياء!».

«لعلهم ليسوا وحدهم أغبياء».

بدا أن رئيسنا فوجئ بعبارتي: «من أيضاً؟».

«لو سُمح لهما بالسفر في سفينة لما حاولا فعل ذلك الشيء».

«لا نستطيع أن نترك أي شخص يصعد إلى سفينة ويبحر بها حيث يشاء، أليس كذلك؟». استدار إلى الآخرين: «عندما أرى أنهم لا يسمحون لي بالخروج فسوف أجلس وأنتظر».

حصلنا بأعجوبة على غرفة صغيرة فيها سرير مزدوج في بيت قرميدي قائم عند أضيق نقطة في رقبة شبه جزيرة دار. ومن الحديقة الصغيرة، حيث بدأت ثمار العنب البري الأسود تنضج، كان المرء يرى صفحة البحر الداخلي والأشرعة والصواري الملونة المنتصبة فوقها، ومن فوقها النوارس، ومن فوقها السماء التي كانت زرقاء لا تشوبها غيمة طيلة أيام إقامتنا في تلك المنطقة الممطرة عادة. ومن الجهة الأخرى، بعد الطريق مباشرة، كان حقل قمح تنتصب سنابله باسقة رشيقة. وإذا تسلقت قمة التلة المجاورة فسوف ترى البحر. ركبنا باصاً زاهي الألوان إلى محطة تدعى باسم البلّوطات الثلاث ثم سرنا إلى الشاطئ عبر ممر رملي. كان شاطئاً بالغ النظافة مثل كل شيء هنا. وهناك غرسنا في الأرض بعض العصي التي جمعناها من المكان. كانت متآكلة وقد أزال ماء البحر لونها. نشرنا فوق تلك العصي قماشة صفراء سرعان ما غطتها حشرات سوداء صغيرة معدنية اللمعان. دفنا في الأرض زجاجة من عصير الليمون ثم نشرنا بطانية على الرمل واستلقينا فوقها. رقدنا ساعات على هذا النحو، ساكنين متقاربين. لم أتمكن قبل الآن أبداً من البقاء قرب الماء حتى لساعات قليلة فقد كان خواء الكسل يخيفني. ما كنت أستطيع أن أكون في حالة كسل كامل، مثلما كنت غير قادر على الحب الكامل أو الاستسلام الكامل للعمل، رغم أن قدرتي على الاستسلام للعمل كانت أفضل من غيرها. كان عليَّ دائماً أن أهرب

لأبتعد عن الحفرة السوداء التي أراها أمامي دائماً، وأحلم بأن استرخي هادئاً في أي مكان. أما هنا فلم أر إلا البحر، إلا السماء، إلا قسمات وجهها المحبة. كان الزمن متباطئاً هنا. وكنت أثناء جريانه البطيء أقرأ أحياناً شيئاً لكيركجارد أو قصة أدريان ليفركون مثلما اخترعها العجوز توماس مان ورواها بذلك الإيقاع البطيء المتكاسل نفسه. كنت أقرأ لها بصوت مرتفع أحياناً، وكانت تصغي بتركيز امرأة تفعل كل ما تفعله في حياتها بكمال تام. لكنني، في تلك الأرض التي شوتها الشمس، حيث ترقد أجساد عارية لا حصر لها في سكون تام، كنت أقرأ لها أن الفعل والقرار في عمرنا ـ هذا من عند كيركجارد ـ شيئان نادران مثل ندرة التسمم بالخطر الذي يحسه شخص يسبح في مياه ضحلة. وهكذا فإن القاعدة القائلة إن أفعال الإنسان هي ما يرفعه أو يخفضه لا تعود سارية المفعول. رأيت في تركيزها ما يكاد يكون موافقة حانية حماسية إلى حد مفرط وأدركت أن هذه الجمل التي قرأتها كانت ضدي أنا وأنني ما كنت أفعل إلا مواصلة تقديم ما قدمته هي من أدلة إدانة لا تتوقف ولا تحاول التنكر إلا قليلاً. تجادلنا في ما يطرحه الفيلسوف متظاهرين أننا ما كنا نتحدث عن أنفسنا ولا عن خلافنا. تجادلنا حتى لحظة نفضت عندها حبات الرمل عن كتابي وأعدته إلى حقيبتي. ثم رقدنا من غير شيء آخر، كان جسدانا العاريان متلامسين وحدقنا في قمم الأمواج البيضاء التي كانت تفلح في التلامس من غير أن تسبب الواحدة منها لغيرها مسرة أو ألماً. لم ننهض إلا عند المساء. صعدنا الكثيب الرملي على امتداد سلال المهملات المنتصبة هناك، سلال معدنية بين الأزهار البرية. ثم عدنا إلى الطريق.

كانت أمسياتنا أمسيات شمالية طويلة. وبعد أن نأكل، كنا ننزل إلى الشاطئ من جديد، كان خاوياً في ذلك الوقت. كانت تجلس متصالبة الساقين فوق صخرة، تنظر إلى الشمس التي تبدو باردة. أما أنا فكنت أنظر

إلى صفحة الماء الداكنة ملاحظاً طوق المراكب المشؤوم عند الأفق، طوق موجود هنا ليحبس حتى هذه المنطقة المائية الأكثر حرية، التي لا أحد فيها. كنت أنظر إليها أيضاً جالسة هناك مثل تمثال محاولاً إدراك كيف تنسحب، في صمت البحر وفي هذه الوحدة المائية، كيف تتحول إلى كائن غير مألوف يعيش في مناطق لا سبيل إلى بلوغها. وما كنت قادراً على معرفة إن كنت أشعر بالحزن أو بالانفراج.

كنا نستأجر دراجتين أيضاً وننطلق في الصباح الباكر، لا على الطريق بل على امتداد دروب رملية ومسارات رسمتها خطوات الناس، مسارات تتقاطع وتتلاقى فوق الحافة الضيقة الناهضة فوق البحر.

تزمجر الأمواج وتعول الرياح. نتوقف لنتعانق، لنجلس وننظر عبر الماء إلى الشواطئ البعيدة. ثم نتابع السير صوب الغرب وتنغرس عجلات دراجتينا عميقاً في الرمل فنضطر إلى حملهما. تمتد أمامنا بقعة واسعة داكنة الخضرة من الشجيرات فننعطف وندخلها. التربة سوداء هنا. تسد طريقنا كتلة كثيفة متشابكة من الجذور. الجو مليء بطنين البعوض وقد كادت دربنا الصغيرة تختفي تماماً. لا نعرف مكاننا. لا نعرف إن كان علينا أن نعود أدراجنا أو أن نتابع السير، لا نعرف إن كان أمامنا طريق أم لا. لا فائدة من الدراجتين الآن، نسير وندفعهما معاً. أحاول استكشاف الطريق أمامنا، أما هي فترى أشكال أشباح في الأغصان الملتفة وتسمع همسات الموتى في تنهدات الريح، تسمع آخر أنفاس المنتحرين وصيحات اليأس من الغارقين، ثمة ساحرة جاثمة في الخضرة تحت الأشجار، ساحرة ليس في جسمها روح، وفوق قمم الأشجار تحوم الغربان آكلات الجيف في دائرة مغلقة، صامتة من غير صوت. نمر ببركة تنبعث منها فقاعات غازية ثم نصل إلى الطريق أخيراً. إنها تقود دراجتها أمامي الآن ومن حول رأسها يشع شعرها الذي كاد يصبح رمادياً لولا صبغته الشقراء. نقترب من باد

موريتز حيث كان صديقنا الريفي، العاشق الفاشل فرانز كافكا، يستعد للسقوط في الحفرة السوداء قبل نصف قرن، هنا حيث تآمرت روحه الهشة مع رئتيه المريضتين على الكف عن ذلك الصراع المضني.

نقود الدراجتين الآن عبر شوارع لم يطردوا منها إلى الآن روح «نهاية القرن» مثلما طردوها كلها من مدينتنا. نشرب البيرة ظامئين من كشك على الرصيف. ونجلس جائعين إلى طاولة عتيقة في مقهى رث. نجلس متقابلين، بعيدين عن أحبتنا المقربين، نجلس في مقهى غريب في بلدة غريبة. نتناول المعجنات. صامتان، ينظر كل منا إلى الآخر. أرى في عينيها ولهاً ما كنت أعتقد أنني سوف أجده في أي مكان. أحسه يغزوني عميقاً، يتخللني، يستقر في كل خلية من خلايا جسدي. لا أعرف كيف سأنهي صراعي أو متى سوف أنهيه. لكن روحي الآن لا تزال قادرة على الارتفاع، على القيام بطيران أخير إلى حيث تنتمي، إلى مكان هو مستقر توقها كله، إلى حيث الشلل في نعيم قرب الكائن المحبوب. وبعد ذلك سوف تطير مبتعدة إلى هذه الطاولة الصغيرة العتيقة التي صارت مهجورة الآن، ثم تبتسم ابتسامة صغيرة للمرة الأخيرة، ابتسامة راحة مفاجئة، ثم تتقبَّل قَدَرَها.

بعد ذلك وقفنا في كاتدرائية غوسترو أمام تمثال الملاك الصاعد لبارلاخ. أرى حبيبتي تتجمد في مكانها، ترتفع إلى تلك الأشكال السامية، تبتعد عني إلى ارتفاعات لا أستطيع إدراكها، لا تدركها أنظاري، إلى حيث تقيم الملائكة وحدها، وربما أرواح الفنانين العظام أيضاً. أنزاح جانباً من غير أن ألحظ ثم أجلس في مقعد عند زاوية الكاتدرائية وأنتظر رجوعها إلي.

(طبقاً لكلمة الفوهرر في يوم الفن الألماني في ميونيخ، قررت السلطات المختصة أن تزيل من كاتدرائية غوسترو النصب الذي أقامه النحات

إرنست بارلاخ عام 1926 تخليداً لمن سقطوا في الحرب العالمية. سوف تجرى عملية الإزالة في الأيام القليلة القادمة. وقد كان هذا النصب الذي يمثل ملاكاً طائراً موضع هجمات عنيفة منذ زمن بعيد).

عندما رجعت إليّ أخيراً رأيت دمعاً في عينيها.

«أتظنين أنك قادرة على نحت ملاك مثل هذا؟».

«لست أدري! أظن أنني لا أملك الشغف الكافي ـ بالحجر أو بالخشب».

لست أسألها عن مادة شغفها، أعرف هذا. لكنني ألمس فيها أيضاً طموحاً متوقداً، حتى لو كان ثمنه استنفادها، طموحاً إلى جعل من يرون أعمالها يقفون متسمرين، جامدين، كما وقفت هي الآن.

في اليوم التالي، تهبط مشياً إلى الشاطئ، إلى حيث تشبّع الرمل بماء البحر. وهناك، تروح بأصابعها المعتادة على خلق أشكال من مادة لا شكل لها، تروح تخلق شكلاً رملياً لمخلوق يشبه سنطوراً، وحشاً نصفه رجل ونصفه حصان، أكثر مما يشبه أي ملاك. كان هذا المخلوق يحمل ملامحي، اللهم إلا أنه يبتسم أكثر مني، في جميع الاتجاهات. وتحلّقت من حولها جماعات صغيرة من السابحين يراقبون معجَبين تمثالها الذي يتشكل. لكنها تتظاهر بعدم ملاحظتهم. ليس يعنيها إلا أن تعرف إن كانت منحوتتها الرملية تعجبني.

إنه يعجبني، وهو يشبهني! هكذا أجبتها. لست آسفاً إلا على أن هذا المخلوق الغريب الذي له وجهي لن يبقى بعد أن يأتيه المد.

ما أهمية هذا؟ غداً، إن أحببنا، سنصنع شيئاً مختلفاً. إننا لا نثقل العالم بخليقة أخرى على الأقل! هذا أمر ندركه نحن الاثنان: إن العالم يئن، تضيق أنفاسه لكثرة الخلائق. إنه مدفون تحت الأشياء، يختنق بأفكار تتظاهر كلها بأنها ضرورية أو مفيدة أو جميلة فتزعم لنفسها حق البقاء الأبدي.

تقول بعشق: «لسنا في حاجة إلى أشياء أو خلائق. يكفينا أن يكون أحدنا للآخر».

نحن معاً بينما ينهض النهار من النوم وبينما يحل الليل. نحن معاً على نحو كامل يستنزف قوانا، يجعل النار تستهلكنا، يجعل الحرارة تأكلها، حتى يحذرني سؤال: أيمكن أن نحترق فنصير رماداً لا ننهض منه بعد ذلك؟

ما كنت في حياتي قريباً من أحد كل هذا القرب. ولم أعرف في حياتي شخصاً قادراً على أن يكون قريباً مني كل هذا القرب، قادراً على هذه العاطفة كلها وعلى أن يكون كثيف الحضور إلى هذا الحد!

لعل كلاً منا كان، طوال حياته، يجمع قواه من أجل هذه اللحظة، من أجل هذا اللقاء فقط! لعلنا انجذبنا إلى هنا في أحلامنا، إلى هذه الغرفة الصغيرة، إلى هذه البقعة الساحلية حيث يمتزج الماء والرمل والسماء وحيث يتقاطر الزمن ناعماً نظيفاً. إنه المكان الذي وددنا، من غير إدراك منا، أن نأتي إليه في لحظات وحدتنا. وعندما يسقط جسدانا في الإنهاك أخيراً، عندما لا تبقى غير أنفاس أخيرة قليلة من ليل الصيف الشمالي، عندما أهم بالانتقال إلى فراشي، تتوسل إليّ ألا أذهب الآن، أن أظل معها هنا على الأقل. وهكذا أظل ساكناً رغم توقي إلى أن أكون وحيداً في هذه اللحظة، لقد أنهكتني هذه الأيام الكثيرة من القرب المطلق واستنفدتني فجعلتني أتوق إلى لحظة عزلة. في وسط عالم غريب اختُطفت إليه أتوق الآن إلى مألوف بيتي الذي لا يُلزمني بشيء. لكن، هل بقي لدي بيت؟ ألست أنا بنفسي من يحطمه؟ لقد ذهبت ابنتي، وهي أم الآن. وسوف يذهب ابني قريباً جداً. أما زوجتي، حتى إن ابتسمت لي، فأين هي في البيت الآن؟ ماذا بقي من حبنا؟

ينمو توقي في داخلي، ينمو أسف لا معنى له لأنه مواجهة إلى الخلف، أسف على أن حياتي، التي أريد التمرد عليها الآن في هذه اللحظة، تهرب مني.

المرأة الأخرى راقدة إلى جانبي. إنها نائمة. صارت أنفاسها أكثر هدوءاً، وهدأت روحها. أحاول أن أستجلي قسمات وجهها، أنحني فوقها، لا أقبلها، بل أنظر إليها فقط، أنظر إلى مخلوق بعيد لم أفلحِ رغم كل شيء في امتصاصه كله إلى داخلي، لم أفلح في قبوله قبولاً كاملاً. أهبط من السرير بهدوء ثم أستلقي على السرير السفلي وأحدق في الظلمة أمامي. وفي الخارج يتذمر قط بصوت مرتفع وتحشد الريح قواها من أجل عاصفة رعدية في مواجهته. أنهض فأفتح النافذة على اتساعها، وفي السماء القاتمة ينبعث برق من غير صوت فيضيء، من لحظة لأخرى، الشجرة العملاقة في الحديقة.

وفجأة أراها، زوجتي! يضيؤها نور البرق جالسة عند الشاطئ تنتظرني. نسير عبر درب صغيرة في الحديقة. أدفع أمامي عربة صغيرة لا تنفك عجلاتها تخرج من أماكنها، لكننا لا نملك مالاً كافياً لشراء عربة جديدة. أدفع العربة على امتداد وادي بروكوب.

توق لا معنى له متجه إلى الوراء! لكن ماذا أفعل؟ هناك تظل في نفسي، ضاربة جذورها. أيام وليالٍ لا حصر لها أمضيناها معاً، وقرض الزمان شيئاً فشيئاً كل ما هو غير صلب فيها فلم يترك وراءه إلا صخوراً في حقل خريفي، صخوراً لا أستطيع دحرجتها، لا أستطيع التخلص منها حتى إن التففت من حولها. يكفي أن أدير رأسي قليلاً حتى أراها: منتصبة هناك مثل معالم طريق لا تتزحزح تنظر إليّ مثلما تنظر عيون الليل الحجرية الوحشية، من غير حركة، تنتظرني، تنتظر أن أترك كل شيء. أسير بضع خطوات أخرى لكنني أحس بتحديقها الحجري على ظهري، تتثاقل ساقاي، ثم أتوقف. لست أعود إلى الخلف، ولست أمضي إلى الأمام، إنني أقف في الخواء، أقف بين حقلين، في نقطة التقاء نداءين متداخلين متقاطعين، إنني مسمّر إلى الصليب، فكيف أستطيع أن أتحرك؟

أما المرأة الأخرى، المرأة التي أتيت هنا معها، المرأة التي تبعتها لشدة

ضعفي وتوقي ووحدتي واختلاط عقلي وعاطفتي وإسرافي وأملي في إمكانية أن أنسى أنني فانٍ، ولو قليلاً، فهي تشتكي الآن من عدم قدرتي على الحركة وتلعن انعدام القدرة هذا وتلعن زوجتي بدل أن تلعنني أنا.

وهكذا أقف هنا. هي نائمة خلفي، وأنا أنتظر عند النافذة، أنتظر أن ترفع زوجتي رأسها فتراني. لكنها لا تراني. أدرك فجأة أن جبالاً وأنهاراً تقف بيننا، الحياة والموت، الخيانة والكذب، سنوات من حنين لم يعرف الإشباع ومن آمال عبثية. أرى زوجتي تبدأ بالارتجاف مثلما ترتجف صورة على صفحة الماء عندما تصفعها أول قطرة. وفي فورة توق مفاجئة أمد يدي صوب النافذة حتى أحتضنها، حتى أنقذها، حتى أسحبها إليّ من البعيد، لكن عبثاً لأن المطر يشتد، ولأني أنتبه إلى المرأة الأخرى، تنظر إليّ من ورائي: «ماذا تفعل يا حبيبي؟ لماذا لا تنام؟».

أجيبها: «إنني أغلق النافذة فقط. لقد بدأ المطر!».

أنهض عن الطاولة لحظة نهوض السيد رادا. وفور أن بلغنا الشارع صار غير قادر على منع نفسه من إخباري ما أراد، على نحو واضح، عدم إخبار الآخرين به: «عدت من سفاتا هورا البارحة. هل سمعت عن ذلك؟».

كانت حقيقة حدوث «حج كبير» ومسيرة للمؤمنين قد ذُكرت، حتى في إعلام الحمقى عندنا؛ ولعل هذا كان بقصد التمكن من إظهار مسيرة المؤمنين تلك كنوع من مهرجان للسلام.

قال مبتهجاً: «كانت رائعة!» من الواضح أنه قد أحضر معه من هناك الكتاب الصغير الذي قرأ لي منه مقطعاً في ذلك اليوم، أو لعله جلب معه، على الأقل، نفحة من الحماسة للقراءة منه، حتى في الشارع عند الضرورة.

كنا عادة ما نذهب معاً لاستلام أجورنا. أخبرته عن الجريدة التي كنت أعمل فيها. لم أذكر الكتب التي كتبتها. وقد اعترف لي بدوره أنه أمضى

حياته كلها يعمل في أشياء غير ما أراد عمله فعلاً. رغم دراسته ليصبح قساً فقد عمل في منجم، وعمل في المراجل، وفي متجر، وعمل مساعداً في المسرح، بل حتى سائق شاحنة. أما الآن فهو يعمل لجني بعض المال الإضافي من كناسة الشوارع حتى يساعد والدته. ما أحبه في هذا العمل هو أنه يجري في الهواء الطلق، وبين الحدائق على الغالب، كان صاحبي ريفي الأصل. وكان أيضاً يحب الإحساس بأنه يقوم بشيء نافع. في مدينة قذرة بفعل فضلاتها، قد يعثر الناس في أحسن الأحوال على مكان ينامون فيه ويودعون حوائجهم، لكنهم لا يعثرون أبداً على مكان يؤسسون فيه بيتاً ويعيشون نشوة الانتماء إلى المكان، إلى الجيران، وإلى الله. قال لي متذمراً إن البشر اليوم أشبه بالبدو. ينتقلون من منزل إلى آخر حاملين معهم مقتنياتهم المنزلية البسيطة. وهم لا ينشئون روابط مع محيطهم أو مع الناس، بل هم غالباً لا يخرجون بأطفالهم إلى الريف، إما أن يقتلوهم منذ وجودهم في الأرحام أو يهجروهم في سعيهم لمطاردة متعاتهم. كيف يعيش هؤلاء الأطفال عندما لا يعرفون بيتاً؟ سوف يتحولون إلى همج حقيقيين يجوبون العالم ويقلبونه رأساً على عقب.

لكن صاحبي لم يتذمر في ما يخص قدره هو. كان يتكلم من غير مرارة عما حدث له.

«كنا ثلاثين ألفاً هناك، على الأقل. أكثرنا كانوا شباباً». بدا مسروراً بذلك كما لو أنه نسي نبوءاته الكالحة نسياناً تاماً.

جلسوا في الليل أمام الكنيسة وفي المروج المحيطة يمضون الوقت بالصلاة والغناء. «يا ڤانسيسلاس المقدس، يا أمير مملكة التشيك». غنوا تلك الترنيمة التي تبتهل إلى القديس الحامي حتى لا يسمح بفناء شعبه، غنوها ثلاث مرات. لو سمعت تلك الترنيمة تحت السماء المفتوحة فلربما كنت، أنا أيضاً رغم كل شيء، أنظر مرتقباً أياماً أفضل.

كنا نسير نزولاً في الشارع الضيق الذي يمضي حول الحديقة. وكان السيد رادا منغمساً في ما يقوله لي، لكنني لم أستطع مقاومة إلقاء نظرة فضولية إلى نافذة الفنان التي حوّلها إلى معرض لأعماله. لقد اختفى الرجل المشنوق منذ زمن بعيد وحلت محله بجعة لها ثلاث سيقان ثم نافورة تبعث رملاً وسخاً أو رماداً بدلاً من الماء وتجعله يمطر فوق رأس أنثوي بدت قسماته الجصية جميلة، وراح الوابل المنبعث من النافورة يسيل على وجناته مثل دموع متحجرة. أما الآن فقد ذهبت غيمة الرماد وذلك الرأس. كان هناك الآن مانيكان ممتطياً حصاناً ضئيلاً. وكان المانيكان مصنوعاً، مثل حصانه، من مواد بلاستيكية من الواضح أنها أتت من كومة قمامة: علب قديمة، وعبوات زيت السيارات، وألعاب أطفال فظيعة، وأجزاء ملونة من أطباق وأباريق. كان فمه المفتوح طبقاً صغيراً أحمر اللون؛ وكانت في إحدى عينيه بكرة من لاصق ورقي من نوع كوهينور لها لون أخضر سام. وفي عينه الأخرى رأس دمية قاتم الشعر. كان يبدو مبتسماً للوهلة الأولى، مجرد دمية، دون كيشوت من زماننا هذا راكباً حصانه ومنطلقاً في العالم لابساً درعه. لكنني لاحظت عند ذلك أن هذا الخيّال كان مكشراً عن أسنانه المصنوعة من البوليسترين. واستطعت أيضاً أن أميز بعض العظام العارية فيه. لم يكن هذا هو الفارس النبيل المختل بل كان بالأحرى الفارس الرابع من فرسان يوم القيامة كما رآه ديورر، «ظهر حصان شاحب؛ وكان اسم راكبه الموت، وفي أعقابه الجحيم»، الفارس الذي له رأس بفم هو الجحيم في «دول غريت» لبروغل.

تساءلت، أي رأس تلك التي لهذا الفنان المجهول؟ لماذا، ومن أجل من يقيم هذه المعارض في شارع صغير لا يكاد يهيم أحد فيه؟ ولماذا يكون الموت في ذهنه معظم الأحيان؟

تابع السيد رادا كلامه متحمساً: «يدرك هؤلاء الشباب أنهم قد شوهوا

القيم التي فرضت عليهم. لقد حُفر في رؤوسهم منذ الطفولة أن الكره والصراع هما رافعتا التاريخ. وأن لا كائن أعلى فوق الإنسان! ثم جاؤوا للصلاة وللإصغاء ولمن ينبئهم عنه، ذلك الذي هو فوقنا جميعاً والذي ينظر إلينا من عليائه نظرة حب رغم كل شيء». ثم انتهى رادا إلى أنّ من الممكن، بنعمة الله، أن يكون زمن الولادة الجديدة قد بدأ، عصر مسيحي جديد.

كان يبثني فرحه وقد افترض أنني سوف أشاركه ذلك الفرح مشاركة تامة. من المشجع حقاً أن يسمع المرء كيف أن الناس ليسوا راضين بمفهوم «لغة الحمقى» عن السعادة. لكن، خطر في بالي، حتى عندما كان يقرأ لي كيف ضل الإنسان سواء السبيل من خلال عصيانه لنفسه، أن الإنسان قادر على التصرف المغرور لا من خلال عصيان ذاته والزعم بأنه هو أسمى ثمار المادة والحياة فحسب بل، على قدم المساواة أيضاً، عندما يؤمن مزهواً بأنه أدرك ما لا يُدرك أو قال ما لا يُقال، أو عندما يخرج بعقائد معصومة ويظن أنه بلغ، بذكائه العقلي، أماكن ليس له في الحقيقة إلا أن يخفض عينيه أمامها ويقف صامتاً. قد نجادل زمناً طويلاً في وقت حصول ذلك التحول القاتل (إن كان قد حصل) الذي بعث تلك الروح المغرورة المتكبرة في زماننا، وأيضاً في مدى العودة الواجبة حتى نصحح الأمر؛ لكن ماذا يمكن أن يكون مغزى هذا الجدل عندما لا تكون أي عودة واردة أصلاً، لا في حياة الفرد ولا في حياة البشرية؟

خطر لي أن أسأله: «ماذا عن شقيقك؟ هل كان معك هناك؟».

«أخي!»، قام بحركة ازدراء، «قد يكلفه ذلك وظيفته». صدمته كلماته نفسها لأنها كانت شديدة القسوة فأضاف: «لعله يكتفي بالسير في موكب بوذي».

والدي في المستشفى منذ أسبوع. إنه يشكو عدم القدرة على النوم في الآونة الأخيرة، حتى قبل أن يسوء وضعه كثيراً بسبب الحمى. أردت أن

أعرف سبب ذلك، لكنه لم يخبرني. قال شيئاً عن ألم حارق غير محدد، عن ألم مراوغ خداع. لكنني شككت في أنه كان يعاني القلق. كان عقله الذي انشغل طيلة حياته بالمادة القابلة للحساب الكمي يعرف طبعاً أن لا شيء يختفي من هذا العالم اختفاء تاماً، لكنه كان يعرف أيضاً أن لا شيء يحافظ على شكله ومظهره إلى الأبد وأن على كل كائن، في هذه الحركة المستمرة الأبدية للمادة، أن يفنى كما تفنى كل آلة مهما بلغ كمالها، وكما تفنى العوالم والمجرات. كان عقل والدي يدرك أن كل شيء خاضع لهذا القانون؛ فلماذا تكون الروح البشرية وحدها استثناءً منه؟ ألأن الخالق نفث الحياة فيها؟ لكن من المؤكد أنه هو أيضاً، إن كان موجوداً، خاضع لذلك القانون! لكن، ما المعنى الذي يمكن أن يكون لإله يخضع وجوده وتخضع مشيئته إلى القوانين نفسها التي يخضع إليها كل شيء آخر؟ ما معنى إله خاضع للزمن؟

كان أبي واقفاً عند الحد الذي يستطيع عقله تصوره، وكان الخوف الليلي البارد من الحفرة السوداء يسحقه، وما كنت أستطيع مساعدته! أبي الحبيب، كيف أستطيع مساعدتك، كيف أستطيع أن أصد الخوف عن سقوطك؟ لم أستطع حتى أن أحرق الحمى التي أصابتك! إنني ابنك فحسب، ولم أؤتَ القدرة على تحريرك من الظلام، أو على تحرير أي شخص.

يستلقي والدي في جناح أبيض يفوح برائحة التطبيب وبعرق من يموتون. لقد خففوا عنه الحمى موقتاً بالمضادات الحيوية وثلموا حدة خوفه بمضادات الاكتئاب. لقد وضعوه في السرير الأوسط بين ثلاثة أسرة. يرقد إلى يساره رجل مهلوس بدين يغير عليه في الليل غزاة مجهولون مقنعو الوجوه. وعلى يمينه يحتضر عجوز ذاوٍ ثقب جسده كله بالحقن تحت الجلد.

كان أبي جالساً في سريره. ابتسم لي مرحباً. أطعمته أولاً ثم أخذت موسى الحلاقة عن الطاولة التي إلى جانب السرير واقترحت عليه أن أحلق ذقنه. أومأ برأسه موافقاً فقد كان نادراً ما يتكلم في الآونة الأخيرة. لعله لم يعد يملك قوة للكلام، أو لعله لم يعد يعرف ماذا يمكن أن يقول لي. لم يحدثني أبداً في أمور شخصية من قبل، ولم يتحدث أبداً عن أي شيء مجرد. ما كان في عالمه العملي مكان للتأملات التي تسوق المرء أبعد مما يجب عن الأرض الثابتة. فما عساه يحدثني الآن بعد أن بدأت الأرض الثابتة نفسها تنسحب من تحته؟ وعن أي شيء يمكنني أن أحدثه؟

خرج المحتضر على يميننا لحظة من اللاوعي وهمس شيئاً مصحوباً بالأنين.

قال أبي: «مسكين! لقد انتهى أمره».

ساعدت أبي على النهوض. أمسكت بيده وخرجنا إلى الممر بخطوات صغيرة متلاحقة. لا بد أنني أحببت أن أقول له شيئاً لطيفاً مشجعاً، شيئاً ذا معنى.

قال لي معترفاً: «تجيئني أحلام في هذه الفترة. لقد جعلونا نعمل في اقتلاع اللفت. وكان ستالين هو المسؤول عن الأمر شخصياً. كان عليَّ الانضمام إلى ذلك العمل، وكنت أخشى أن يلاحظ مدى سوء عملي».

لقد أدانوه في عهد ستالين، أدانوه عامدين إدانة إصابته في النقطة التي تلحق به أشد الألم، أدانوه بتهمة سوء الأداء في العمل.

كان يمكن أن أقول له إنني كنت على الدوام معجباً بقدرته على التركيز في العمل وإنني أعرف النتائج البارزة التي حققها، لكن ذلك كان سيبدو أشبه بعبارات فارغة في رثاء جنائزي يأتي قبل وقته. هو يعرف ما حققه أكثر من أي شخص آخر، ويعرف أيضاً رأيي في عمله.

شارفنا نهاية الممر. كان كل شيء مغسولاً ملمعاً من غير شائبة كما كان الأمر في بيتنا، تقريباً. كنا وحدنا رغم أننا كنا نرى في البعيد ممرضة شابة تسرع من باب إلى آخر. لقد انزعج والدي من الممرضات قبل بضعة أيام فقد بدون له فظاتٍ غير مراعيات. أما الآن فما كان يتذمر. جلس على كرسي عند النافذة المفتوحة، وكان شعره الذي خالطه الشيب ملبداً بالعرق. نظر عبر النافذة إلى حيث كانت الأجمات تطرح أوراقها الصفراء عند كل هبة ريح. لكنه ما كان يرى شيئاً من هذا على الأرجح. لقد شهد لتوه انفجاراً على علو شاهق فشعر بالخطر. قال لي بصوت هادئ: «هذه حماقة! العبث بهذا الأمر حماقة! أي جزء من آلة سوف يتعطل في وقت ما. إذا لم يوقفوها فسوف تكون النهاية. عليك أن تخبرهم».

«أنا؟».

«عليك أن تخبرهم». ما زال والدي ينظر من النافذة، لكنه عاد إلى الصمت. هدرت طائرة من فوقنا، تابعت طريقها ولم تتحطم، فقط تركت خلفها خطاً أبيض غير ضروري من غازات سامة.

لعله قال الآن أهم ما اعتزم قوله لي! أو لعله أراد فحسب أن يبوح بواحدة أخرى من خيبات أمله، أن المحركات الرائعة التي أنفق عمره كله في اختراعها وتصميمها لا تزال، رغم قدرتها على الارتفاع بالإنسان فوق الأرض، غير قادرة على الذهاب به إلى جنان النعيم، بل من الأرجح إنها تقوده إلى أن يحترق قبل أوانه.

ساعدته على النهوض ثم عدنا إلى جناحه. أجلسته في سريره وأصلحت وضع بطانيته وقلت له إن مشيته كانت جيدة إلى حد كبير. كان عليَّ أن أسأله، عندما كان هناك وقت، إن كان لديه أي شيء آخر يريد أن يقوله لي، أي شيء لم يقله لي إلى الآن، أمر أو نصيحة أو رسالة. هل يترك وراءه قبراً في مكان ما يريدني أن أزوره من أجله؟ أو شخصاً وحيداً عليَّ أن

أزوره؟ لكن من المؤكد أن أبي لم يكن يفكر في القبور! كان يعتبرها أمراً فارغاً لتضييع الوقت على الموتى. وما كان ليغامر بإعطائي أي نصيحة. لقد خاب أمله في أشياء كثيرة كان يرجوها. وإن كانت لديه امرأة في مكان ما، امرأة أحبها ولم يأت على ذكرها أمامي من قبل، فمن الواضح أنه قرر ألا يثقل عليَّ بعبء اسمها الآن. ما كان لديه شيء باقٍ ينقله إليّ.

ربما كان عليَّ أن أقول له، على الأقل، إنني وجدت شيئاً من الأمل في خيباته لأن ما ضلله لم يكن إلا عقلاً واثقاً من نفسه ظن أنه يعرف كل شيء ورفض أن يترك حيزاً لما لا يقبل التفسير، لله أو الأبدية أو الخلاص من الخطيئة. أكان يفهمني إن قلت له هذا؟ أكان لا يزال قادراً على سماعي؟

لاحظت أن ذقنه سقطت على صدره وأنه انزلق جانباً. أدرت اللولب عند رأس السرير فخفضت الفراش إلى الوضع الأفقي. لم يستيقظ أبي عندما فعلت ذلك، بل لم يفتح عينيه عندما مسدت جبهته.

وجدت شاباً ينتظرني عندما عدت إلى المنزل. وكان بالمصادفة، قادماً لتوه من بلدة قرب سفاتا هورا. لقد قدمت قبل سنتين قراءات من قصصي القصيرة أمام حفنة من أصدقائه في بيته. وكان منذ ذلك الحين يعرّج عليَّ للحديث عن الأدب بين فترة وأخرى. كان متأنقاً على الدوام. وكان شعره الأشقر يبدو كأنه قد جعّد على شكل ألسنة ملتفة. وكان في عينيه الرماديتين شيء من قلق مؤلم مثل من لقي من أعباء الحياة ومسؤولياتها أكثر مما يحتمل. كان مهتماً بكيركجارد وكافكا وجويس، إضافة إلى السينما والفن عامة. وفي واحدة من القصص التي قرأتها في تلك الأمسية ورد ذكر هيجيدوسيك. وبعد أن فرغت منها قال لي إن ثمة فيلماً قصيراً عنه متوفراً في بلادنا. فاجأني أن أجد شاباً يعمل في المناجم قرب سفاتا هورا ويهتم بهذا الرسام اليوغسلافي. كان وصوله مريباً الآن بُعيد ذلك الحج الشهير، لكنه لم يذكره أبداً، وهذا ما طمأنني. جاء الآن طالباً مني النصح في ما

يخص مستقبله. لقد قرر عدم البقاء في المناجم بعد الآن ووجد لنفسه عملاً لا يتطلب مهارة مهنية وقرر أن يحاول دراسة علم الجمال أو التاريخ أو الأدب عن طريق المراسلة. قال لي إن العمل الجديد عديم المعنى وإنه يشعر بالقرف من الأشخاص الذين يتحرك بينهم. وهو يتمنى أن يعرف طبيعة الناس الذين سيكون عليه أن يتحرك بينهم إن نجح في الوصول إلى حيث أراد! لكنني لم أرد أن أفرض عليه إحساسي بالنفور من الآخرين. اكتفيت بالبحث عن مقالة صدرت مؤخراً عن واحد من كبار موظفي «لغة الحمقى» كان قد عيّن أستاذاً في الجامعة لضمان نسيان الأدب كله.

ومن تلك المقالة قرأت له بضع جمل افتتاحية عن الشيوعية التي صارت الشكل الأسمى من أشكال حرية الفرد والجنس البشري كله، لكنني أرفقت ما قاله كاتب المقالة بمنظور غير مسبوق، لقد اضطر أعظم الفنانين، تشارلي تشابلن مثلاً، إلى الهرب إلى الولايات المتحدة التي هي معقل انعدام الحرية!

ابتسم ضيفي. كان يرى أن من المقبول أكثر أن يضطر إلى الإصغاء، طوعاً من غير أجر، إلى ثرثرة "لغة الحمقى" بدلاً من العمل في إفساد الطبيعة وتلويثها مقابل أجر جيد أو بدلاً من استخراج فلزات ينتج منها أشخاص آخرون معدات متفجرة قادرة على حرق كل شيء.

ما الذي يأتي في البداية وما الذي يأتي في النهاية؟ الكلمة أم النار، الثرثرة أم الانفجار؟

بمناسبة الحديث عن الانفجارات تذكّر ضيفي أن أشخاصاً مجهولين قاموا مؤخراً في بلدته بنسف نصب «الرئيس العمالي». توفي ذلك الرئيس منذ أكثر من ثلاثين عاماً لذلك فإن ضيفي لا يتذكره. وهو لا يعرف عنه إلا أنه جلب لنا كل ذلك «الشكل الأسمى من أشكال حرية الفرد والجنس البشري»، إضافة إلى أنه قام، باسم ذلك، بتصفية أعداد غفيرة من البشر

الأبرياء الذين كان رفاقه وأصدقاؤه من بينهم. وقد أراد ضيفي أن يعرف مشاعري إزاء تدمير تمثاله. لدي انطباع يقول إن الناس لا يلاحظون التماثيل إطلاقاً، الجديد منها خاصة. وإن هم لاحظوها فما من شيء في تلك التماثيل يمكن أن يحدث فيهم تأثيراً، فما الجاذبية التي يمكن أن يتوقعها المرء في الجزمات الطويلة والمعاطف وحقائب اليد، وفوق ذلك كله، أي ما يعادل أقل من سدس المجموع، نرى وجهاً لا نحس فيه حياة أو روحاً؟ ما أعترض عليه في تماثيل العمالقة المكرَّسين رسمياً هو أنها تماثيل قبيحة وضيعة، أي أنها تشوه محيطها إن شئنا التعبير بكلمات أخرى. لكن، عند ذلك، يكون صعباً أن نتخيل تماثيل مختلفة إذا فكرنا في الأشخاص الذين يمكن أن تمثلهم ونظرنا إلى قدرات الفنانين الذين يكلَّفون بصنع هذه التماثيل مقابل أجور دسمة. ثم إن في هذا العالم أشياء كثيرة تشوهه! فإذا كان علينا تدميرها كلها فأين يكون علينا التوقف؟ التدمير أسهل من الخلق، وهذا ما يجعل أناساً كثيرين مستعدين للتظاهر ضد ما يرفضون. لكن، ما عساهم يقولون إن سألهم المرء عما يريدون بدلاً منه؟

هز الشاب رأسه. كان يرجو أن تساعده دراسته في العثور على هدف لنفسه. اعتذر اعتذاراً موجزاً عن جعلي أسهر حتى هذه الساعة المتأخرة ثم اختفى في الليل.

إن لدى البوذيين رؤيتهم الخاصة عن القيامة. عندما تكف أفعالنا الخيرة، ويكف حبنا وندمنا عن مسح جرائمنا يختل التوازن بين الخير والشر في الكون. عند ذلك تظهر ثعابين وتماسيح وتنانين ووحوش لها رؤوس كثيرة من كل فتحة في الأرض ومن المياه، وتزفر ناراً تحرق بني البشر. وهذا ما يستعيد التوازن الذي اختل، فيسود تناغم الصمت واللاشيء من جديد.

الليل والصمت واللاشيء. في المدينة النائمة تبتلع الظلمة الناس الأقرب والأبعد، الأصدقاء والغرباء. أين فقدنا إلهنا في هذه الظلمة كلها؟

عادة ما يخترق العقل الذي يطرح الأسئلة أعماق الفرد والعالم والكون إلى أن يصل حداً يبدأ من بعده الغموض. وهنا يتوقف أو يندفع أماماً غير قادر على إدراك أنه يدفع بأسئلته إلى العدم، أو غير راغب في إدراك ذلك.

في هذه الأسئلة يقف كافكا عند الخطوة الأولى تماماً، عند نفسه، لأنه يكون، حتى هنا، قد دخل أعماقاً لا تخترق. إن كافكا يعيد اكتشاف الغموض في عالم يهيمن عليه العقل أكثر فأكثر، العقل الذي يظن أنه يعرف كل شيء عن العالم، بل حتى عن نفسه.

يرن جرس الهاتف من غير توقُّع. أخرج إلى الصالة مسرعاً فأرفع السماعة وأقول اسمي لكنَّ صمتاً يرين على الجهة الأخرى. كان يصغي إليّ صامتاً. وضعت السماعة ثم رفعتها من جديد. اختفى الصمت وعاد طنين الهاتف من جديد.

«أكان ذلك أنت؟».

«هل أنت غاضب يا حبيبي؟ أين تنام؟ إنني هنا وحدي. كنت مستلقية أقرأ في الفراش. وفجأة خطر لي أن هذا كلام فارغ: أن أستلقي هنا وأقرأ عن حياة شخص آخر. إنني حزينة. ألست حزيناً؟».

«الآن؟».

«الآن، وعلى وجه العموم. أفعل شيئاً ثم يصدمني سؤال: لماذا أفعل هذا، لمن؟ أستلقي هنا الآن، وكل شيء هادئ، لكن لماذا يكون عليَّ أن أستلقي هنا؟ لست في حاجة إلى أي راحة لأنني لن أكون حية غداً. لقد أكدت لي أنك كنت سعيداً عندما كنت معي وأنك لم تعش شيئاً بهذا الكمال من قبل. هل كانت تلك كذبة؟».

«لو كذبت عليك في تلك اللحظة لعرفت بالتأكيد أنها كذبة».

«لم لا تأتي إذاً؟ قل لي ماذا تغير وما الذي تغير فيّ أنا حتى صرت لا

تتصل بي؟ هل أسأت إليك؟».

«لم تسيئي إليّ أبداً، لكننا لم نعد قادرين على الاستمرار، لا أنا ولا أنت. كانت متابعة تلك الحياة المنقسمة شيئاً مستحيلاً».

«وهل نستطيع أن نحيا مثلما نحيا الآن؟ لا تقل لي إنك تحيا؟ أخبرني، أتظن أنك حيّ حقاً؟».

«الحياة لا تعني ممارسة الحب وحده بالتأكيد؟».

«حقاً! ظننت دائماً أنها كانت تعني ذلك تماماً بالنسبة لك. فما الذي يحمل أي معنى إذاً في نظرك؟ الأكل والنوم! أن تقوم بعمل مهم، أن تنجز قطعة أدبية عظيمة؟».

«ما أحاول قوله هو أن المرء لا يستطيع الانغماس في الحب مهما يكن الثمن، كأن يكون على حساب الآخرين مثلاً».

«أتظن أن هذا ما كنا نفعله؟».

«ألا تظنين ذلك؟».

«هل تسألني؟ أنت الذي كنت مستعداً على الدوام للتضحية بي؟، كما لو أنني لست مخلوقاً بشرياً على الإطلاق، كما لو أنها وحدها مخلوق بشري؟ لمَ لم تقل شيئاً؟ أنت حانق الآن! انتظر، انتظر لحظة، مؤكد أنك تعترف الآن بأنك كنت تتخذ القرار في غير صالحي دائماً».

«ما كنت أتخذ القرار في غير صالحك، ما كنت حراً في تقرير ما يتعلق بك».

«ألم يكن هذا يقلقك من بعض النواحي؟».

«كان يقلقني تحديداً من الناحية التي عنها تتحدثين».

«أنت تلتمس الأعذار لنفسك، أنت تلتمس لنفسك الأعذار دائماً.

وأنت تعرف جيداً أنك لم تمنحني الفرصة أبداً».

«فرصة ماذا؟ ألم نكن معاً لوقت كافٍ؟».

«لم تكن أبداً معي وحدي. لم تكن معي حتى أسبوعاً واحداً، حتى يوماً! لم تكن معي أبداً إلا على نحو سري. حتى عند البحر،».

«لا تبكي».

«وأنا صدقتك. ظننت أنك أحببتني وأنك ستعثر على طريقة حتى نظل معاً، فترة من الزمن على الأقل».

«لقد أحببتك! لكنني لم أجد طريقاً. الناس ليسوا أشياء يستطيع المرء إزاحتها ونقلها من مكان إلى مكان آخر عندما يرى أنها أدت الغاية منها. ما كنت قادراً إلا على الاختيار بين البقاء هنا والذهاب إليك».

«أنت شديد النبل في ما يخص الآخرين. لكنك أزحتني جانباً، بعيداً إلى أقصى ما استطعت، عندما رأيت أنني أديت الغاية. انتظر، انتظر، قل لي شيئاً آخر: هل أنت سعيد على الأقل؟ ألست آسفاً على شيء؟ لم لا تقول شيئاً؟ إن لم يكن لديك أي أسف في ما يخصني أفليس لديك أسف في ما يخصك أنت، على الأقل؟».

«أتظنين أنني يجب أن أكون آسفاً على نفسي؟».

«مؤكد أن من المحزن أن يفقد المرء شخصاً إن كان قد أحبه».

«أعرف هذا، لكن الإنسان يمكن أن يفقد شيئاً أكبر».

«ما هو الشيء الأكبر الذي يمكن أن يفقده إنسان؟».

«روحه، ربما».

«روحك أنت؟ هل فقدت روحك معي؟ كان عليك ألا تقول هذا! ما الذي تعرفه عن الرُوح؟ أنت لست إلا حزمة من الأعذار».

القسم الثالث

ينبلج الصباح من ضباب الخريف وتصير السماء زرقاء شيئاً بعد شيء. وعلى ضفة النهر البعيدة كان ثمة سيل سريع، منذ الفجر، سيل من السيارات الهاربة من المدينة الملوثة لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وأثناء الإفطار قرأت في الجريدة قصيدة لأكبر شعراء «لغة الحمقى».

سلسلة من الأيدي
من يعرف، من يعرف
أين يولد الجمال
أين تبحث السعادة عنا
ولماذا يثق الحب بنا
يا ناس يا ناس
لعل ذلك اليوم يشرق
عندما يلعب الأولاد
ويكون كل شيء سلاماً أبيض
يا ناس يا ناس
لنكن حذرين دائماً

فمن يزرع الريح
يجب أن يحصد العاصفة
يا ناس يا ناس
لسنا إلا سلسلة من الأيدي
لسنا إلا موسيقى الأحلام
لسنا إلا جمال الأفعال

لم يحتج الشاعر من أجل هذه القصيدة المكونة من خمس وستين كلمة، مع العنوان، إلا إلى سبعة وثلاثين تعبيراً من "لغة الحمقى"، ولم تلزمه أي فكرة على الإطلاق، ولا مشاعر ولا صور! أما الأسماء التي استخدمها: الجمال والسعادة والحب والسلام والناس والأطفال، فهي قابلة للتبادل طبعاً، لكن معنى هذا التنقل الاعتباطي، أو لا معناه، يظل من غير تبديل. إن الدعوة الإلزامية إلى كراهية من لا يستحق وحب من يستحق تصفع المرء صفعاً بصيغتها المكررة حتى إن تساهل قليلاً بسبب محدودية نطاق "لغة الحمقى". وكأن «الشاعر» خاف أن يوجد بين القرود، رغم كل شيء، فرد واحد يمكن ألا يفهمه.

يدرك كل من توفرت لديه قوة كافية من أجل قراءة متأنية للقصيدة أن مجموعة المفردات مكونة من 225 كلمة كبيرة على نحو لا لزوم له بالنسبة لشاعر لغة الحمقى.

ثمة صخور وغابات على ضفة النهر البعيدة ـ ما عليك إلا أن تعبر الجسر! كنا نذهب مع الأطفال في نزهات على الأقدام إلى ذلك المكان. أما الآن فيقول البعض إنهم قد أقاموا مقلباً ضخماً للقمامة هناك. توافق زوجتي على أننا يجب أن ننطلق في ذلك الاتجاه، وهي سعيدة لأننا ذاهبون في رحلة.

يلعب بعض الغجر كرة القدم تحت الجسر، وتظهر مساحات من

الزهور تشبه سجادة شرقية. تسير زوجتي في المقدمة بخطوات كلها حيوية. لقد هجرتها مخاوفها وعاد الأمل إليها، الأمل في حياة يمكن أن تعاش في انسجام وحب. ما زلت أشعر بالراحة لقربها، راحة لا يلوثها تظاهر أو كذب. كلي إحساس بخفة اليوم الجديد الذي أدخله الآن مفعماً بالآمال.

لعل من أسباب حبي للمشي في الريف أنني ما كنت قادراً على فعل هذا أبداً في طفولتي. كان أول ما كتبته في حياتي ـ كنت في الحادية عشرة من عمري، وكنت في غيتو قلعة تيريزين منذ أكثر من عام ـ لا يتحدث عن الحب أو المعاناة أو عن قدري الشخصي، كان عن الطبيعة:

عندما صعدنا سفح تلة بيترين شديد الانحدار أحسسنا، على نحو متزايد، بأننا نشبه طيوراً ترتفع في الجو. وعندها استدرنا في لحظة واحدة. رأينا أمامنا عدداً كبيراً من سقوف منازل البلدة جعلنا نحبس أنفاسنا ونأسف لأننا لم نكن طيوراً في الحقيقة ولأننا لا نستطيع أن نحطّ على تلك السقوف ولا أن نرى أسرارها من مسافة قريبة.

في ذلك الوقت ما كنت أعرف بعد ما الذي أفعله، ولم تكن عندي أي فكرة عن عدد الكتب التي كتبها الناس قبل ذلك أو عن عدد العقول التي أفصحت عن نفسها فيها. كتبت لأنني كنت أموت حنيناً إلى الحرية. وكانت الحرية عندي في ذلك الوقت تعني الخروج من سجني والسير في شوارع مدينتي. كتبت حتى أعزز أملي في أن العالم ما زال موجوداً خارج أسوار القلعة، عالم كان يبدو وقتها غير موجود إلا في الأحلام والتخيلات.

ما زلت أومن أن ثمة شيئاً مشتركاً بين الأدب والأمل، بين حياة حرة خارج أسوار القلعة المحيطة بنا، وتلك التي لا ننتبه إليها غالباً، الأسوار التي نحيط نحن أنفسنا بها! لا تشدني كثيراً الكتب التي يقف أصحابها عند مجرد تصوير انعدام الأمل في وجودنا، تصوير يأس الإنسان وقنوطه،

تصوير ظروفنا، والكلام اليائس في الفقر والغنى وفي محدودية الحياة وسرعة زوال المشاعر. حريٌّ بالكاتب الذي لا يعرف شيئاً آخر أن يلزم الصمت!

يمضي الإنسان عبر الطبيعة ملتمساً أملاً ومنتظراً معجزة، منتظراً أن يجيب أحد على أسئلته. ينتظر راهباً أو حاجاً أو ينتظر بوذا أو نبياً، أو طائراً متكلماً على الأقل، حتى يخبره إن كانت لديه روح لا ينقطع وجودها حتى مع الموت، حتى يخبره عن المادة التي حيكت منها تلك الروح، وحتى يخبره عما هو فوق الإنسان، أي نظام، أي مخلوق أو كائن، وفي أي انفجار عظيم كان أصله، وأين يتجه. يمضي الإنسان عبر الطبيعة منتظراً لقاءً، أو إشارة على الأقل، من غير أن يعرف طبيعة ذلك اللقاء أو تلك الإشارة.

تتوقف زوجتي، إنها تنتظرني. ألحق بها، وأعانقها. يتصلّب جسدها بين ذراعيّ وأشعر بارتجافه.

عندما قابلتها منذ سنوات كثيرة أسعدني وجود شخص مهتم بي. كانت صغيرة السن عندها، ولعلها لم تكن تفهم ما كنت أشعر به أو مقدار انعدام صبري عندما أنتظرها. كانت تتأخر عن مواعيدنا دائماً.

كنت أقف عند طرف حديقة صغيرة غير بعيدة عن مكان سكنها في ظل شجرة دلب رائعة، أو تحت أغصانها العارية في الشتاء، وكنت أنظر إلى ذراعي ساعة الشارع. كم مرة قلقت لأنني ظننتها لن تأتي، أو أن شيئاً أصابها، أنّ أحدنا فقد الآخر، أو أنّ أحدنا أخطأ الموعد! وعندما تظهر أخيراً تكون سعادتي كبيرة إلى حد يجعلني غير قادر على الغضب منها لأنها تأخرت.

كان شعورنا طيباً أينما اتجهنا. كنت أحس بأننا نبحث معاً عن العلامات نفسها. كان كل شيء عندها يتحول إلى صور مثلما يحدث عند الأطفال

أو عند البدائيين أو صفوة الشعراء، وكنت أحس أنني أطفو معها، صاعداً.

أستطيع، إلى هذا اليوم، أن أحس بالفرحة التي تتخللها، بسعادتها إزاء كل ما نلقاه أو نراه: زهرة صغيرة لا تعرف اسمها، أو سطح مبنى مزرعة بعيدة، أو ريشة صغيرة سقطت من طائر كاسر، ووجودنا معاً أكثر من أي شيء آخر. وقد صعقني أن أفعالنا كلها، مهما تكن أهدافها الظاهرية، كانت في الحقيقة موجهة إلى هذه النقطة وحدها، إلى القرب اللصيق من الشخص الذي قد يصبح رفيقاً دائماً. في قاع آمالنا كلها يكمن توق إلى لقاء!

كانت داريا مقتنعة بأن كل منا ينتمي للآخر، بأن كل ما في الأمر هو أن أحدنا ما كان يعرف الآخر من قبل، أو أن الوقت الصحيح لم يكن قد آن حتى نلتقي مثلما التقينا الآن. وقد أكدت النجوم وأوراق الحظ هذه القناعة عندها، أكدتها نبوءات بصّارة عجوز قصدتها ذات يوم حين ساورتها الشكوك رغم كل شيء.

قالت بإلحاح: «لماذا تكذب في البيت؟ أنت تسيء إليّ وإلى زوجتك وإلى نفسك». ذكرتني بكلمات بوذا، لقد قال: «لا تضيع أفعال أحد أبداً. إنها تعود إليه!» أفهم هذه الكلمات، وأفهم كلماتها هي أيضاً. تسألني: «لماذا لا تأتي إليّ بالكامل؟ لماذا تقاوم هذا؟ بالتأكيد، لا أحد يستطيع أن يحبك مثلما أحبك؟».

«ألا يمكن أن أحدنا أحب الآخر، فقط لأن علينا أن نفترق طيلة الوقت ثم يجد أحدنا الآخر من جديد؟».

مضت إلى اليونان مع زوجها. كانت بعيدة كثيراً إلى حد جعل صوتها لا يصلني إلا همساً خفيضاً في الليل، من حيث النجوم، كانت رقّتها أيضاً تتلاشى على تلك المسافة، وكنت أشعر بارتياح أكبر. كنت كأنني أعود من

منفى جميل، أهبط من ذرى جبلية كانت تشعرني بالسعادة لكن من غير ارتياح. كيف أستطيع العودة إلى منزل هجرته بإرادتي، لكن من غير لزوم؟

مضيت إلى العطلة مع زوجتي. وفي الطريق توقفنا عند موقع تخييم يديره ابننا.

جلسنا معاً نأكل العصيدة من صحون معدنية. كان الطعام يفوح برائحة حطب خفيفة. وفي المساء غنينا عند نار المخيم. يرتفع صوت ليدا فوق أصوات الجميع، فيه سكينة وصفاء. إنه يبعد كل ما هو غريب، كل شر مازال متعلقاً بروحي. تمطر السماء، ويتصاعد الدخان من النار، ونحتمي تحت معطف مطاطي واحد، نتلامس كأننا نتعانق وأحس بأن كذباتي اختفت من غير أثر وأنني لن أعود إليها أبداً. أتمنى ألا يسير الزمان، أن يؤخر عودة حبيبتي، لا أستطيع أن أخذلها أيضاً، لا أستطيع أن أطردها بعيداً عني. وعميقاً، في مكان عميق في داخلي، يتحرك شيء. وفي خضم قطرات المطر أستطيع أن أسمع خطواتها السريعة، أستطيع رؤيتها تظهر من الظلام وتسرع قادمة عبر الدرب الحجرية بين أشجار الزيتون، بين أشجار التين، بين أشجار السرو. أستطيع رؤيتها وحدها، رغم معرفتي أنها ليست وحدها. لكنها تعيش، في ذهني، مفصولة عن الآخرين جميعاً، ربما باستثناء القروي الأسمر الذي يصب لها النبيذ. ومن تلك المسافة البعيدة يأتيني زئير مكتوم لوحش نصفه رجل ونصف ثور. أنكمش تحت وطأة فورة التوق. كم يوماً بقي حتى تعود إليّ، إن عادت إليّ؟

لقد انقضت الأيام الآن، ولم يبق إلا رحلة ساعتين. لم تبق أمامها حدود تعبرها، أستطيع أن أعانقها، إن عادت إليّ.

تدفع فكرة عودتها كل شيء آخر فتبعده عن عقلي. أسير في ذلك الممر فأراها آتية صوبي. يركض كلاً منا إلى الآخر، مرة بعد مرة يركض كلاً منا إلى الآخر في ضوء النهار وفي الظلام. في الليل تنام في سريري ونمارس

الحب مثل مهووسين. تئن وتداعبني فأهمس في أذنها كلمات رقيقة.

سوف أتظاهر بأنني ذاهب لأرى بعض الأصدقاء. سأركب السيارة وأنطلق. لا أعرف مع من أجدها، أو إن كنت سأجدها! لا أعرف إن كنت سأحزم أمري وأدق الباب الذي لم أقف أمامه من قبل، الباب الذي لا أعرفه إلا من كلامها. سأذهب إلى القرية البعيدة إلى درجة أن ليس فيها كنيسة. وسأترك السيارة تحت شجرة ليمون مرتفعة ثم أسير خبط عشواء إلى حيث أظن أن بيتها الموقت موجود.

وهناك أراها قادمة صوبي، حقيقية حية لوحتها شمس الجنوب. أعرفها عن بعد من خطواتها الجائعة إلى الحياة. تراني فترفع يدها تحيةً لكننا لا نجري بل نسير حتى نتلاقى. تسألني وقد فوجئت: «هل أتيت لتراني يا حبيبي؟». لا نتبادل القبل، تقول لي: «جلبت لك حجراً من جبل الأولمب». تفتح عينيها متسعتين، تعانقني بعينيها حتى تتنهد تحت وطأة النشوة التي ستأتي.

مشينا عبر درب في غابة خارج المدينة. كان بعض الفطر نامياً إلى جانب الدرب، وكنا نرى السماء الزرقاء من خلال الغصون.

أرادت زوجتي أن تعرف إن كان كنس الشوارع يثير الاكتئاب في نفسي إلى حد كبير.

من المؤكد أنه يثير الاكتئاب لو كنت مضطراً إلى فعله بقية حياتي.

وماذا عن الناس الذين يمارسون هذا العمل سنوات لا تنتهي؟

لا أعرف ماذا يمكن أن أقول لها عنهم. فرغم كل شيء، ليس كنس الشوارع عملاً شديد الاختلاف عن أعمال كثيرة تملك كلها أمراً مشتركاً بينها: ليس فيها أي إلهام! يمضي الكناسون وقتهم في الكلام، مثل بقية الناس. يمضونه متذكرين لحظات أفضل في حياتهم. لعلهم يتكلمون حتى

يرتفعوا فوق ما يفعلون، لكن الأرجح أنهم يتكلمون لجعل الوقت الذي يمر أكثر بهجة.

ألا يبدون لي مختلفين، منبوذين، منتقصين على نحو ما؟ أفكر في إجابتي. لكن زوجتي لا تسألني هذه الأسئلة إلا لكي تستطيع أن تحدثني عن تجاربها مع مرضاها الذين جعلتهم ظروفهم ضحايا: إنهم بالنتيجة يحملون هذه الوصمة ما بقي من حياتهم وقد تحطمت الثقة بالنفس عند أكثرهم وتأثرت صحتهم العقلية.

سألتها إن كان حدوث هذا الأمر شيئاً محتوماً فردت بالإيجاب. في هذه الحالة يضحي الناس بحاجتهم العميقة إلى العثور على شخص ينقلون إليه إحساسهم بالذنب. إن تقديم الأضاحي للقوى العليا أمر ضارب في القدم. والواقع هو أن هذه الأضاحي تقدم ضمن طقوس رصينة، ويختار الناس الأضاحي من بين من يعتبرهم مجتمعهم الأفضل أو الأكثر نقاءً وطهارة.

لم يعد لطقوس التضحية وجود في يومنا هذا بصرف النظر عن التضحية الرمزية بجسد المسيح في الكنيسة. لكن ما بقي منها هو الحاجة إلى التضحية. يبحث الناس الآن عن أضاحيهم بين ظهرانيهم، وهم في معظم الأحيان يختارون الأشخاص الأكثر ضعفاً وهشاشة. لم يعدوا يريقون دماءهم، بل يتلفون أرواحهم فحسب. أكثر هؤلاء الضحايا من الأطفال!

البارحة، عندما كنا سائرين في الشارع المنحدر من عند التجمع السكني، كانت سلات القمامة ممتلئة إلى آخرها، وكانت الريح تعصف بالقمامة في كل مكان فوق الرصيف والشارع. وأمام إحدى حاويات القمامة كانت بركة حمراء كبيرة. لعلها كانت دماً بشرياً، أو دم حيوان، أو لعلها لم تكن دماً على الإطلاق. وعلى صفحة تلك البركة شكلت الأوساخ مع الغبار قشرة غير مستوية من الزبد التصقت بها نتف من الورق المشحم. أشاحت السيدة فينوس بوجهها بعيداً. أظن أن وجهها الهندي الأحمر صار أصفر

اللون الآن: «أف! لا أستطيع النظر إلى هذا. هكذا وجدتها، صغيرتي آني».

أخبرتني أن ابنة كانت لها قبل أولادها الثلاثة. وعندما ذهبت إلى التسوق ذات يوم تركتها في عربة الأطفال وحدها خارج المتجر. وبعد أن دفعت ثمن ما اشترته سمعت صيحات في الخارج ثم اصطدم شيء بالجدار فتحطم زجاج واجهة المتجر. اندفعت إلى الخارج فرأت شاحنة منقلبة. ورأت شخصين مرميين على الأرض، وكان الدم في كل مكان، لم يبق من عربة الأطفال شيء. «فقدت عقلي تماماً. كنت سأقتل ذلك الخنزير المخمور خلف عجلة القيادة لو تركوني أقتله. لكنهم اندفعوا من كل مكان وأمسكوا بي إلى أن حقنني الطبيب الذي جاء مع سيارة الإسعاف بمادة ما».

كانت في ذلك الوقت ما زالت تعمل في مزرعة الخيول في توبولسيانكي. وبعد أيام قليلة من مقتل طفلتها حدث أن سقطت فرسها المفضلة إيديث التي كانت بنية اللون بيضاء القوائم بعد أن اصطدمت بالسور فكسرت قائمتها الأمامية فوق الحافر مباشرة. أصر الطبيب البيطري على أن الفرس لن تستطيع المشاركة في السباق بعد الآن، بل لن تستطيع حتى أن تمشي. واقترح قتلها. اندفعت فينوس إلى المدير ترجوه أن يتركها تعتني بالفرس المصابة. كان المدير يعرف بمصيبتها فأشفق عليها. وبعد ذلك راحت تمضي كل لحظة فراغ لديها مع إيديث. صنعت جبائر لها، ومزجت الملح الصخري مع الجزر الأبيض المائي وأوراق نبات أبي خنجر لتصنع للفرس مرهماً تستخدمه بدل المرهم الذي أعطاها إياه البيطري. كانت قادرة على الحديث إلى تلك الفرس مثلما تتحدث إلى ابنتها، كانت الفرس تفهمها. وفي الليل، عندما تصحو السيدة فينوس وقد رأت ابنتها الصغيرة مسحوقة مدماة على الرصيف، كانت تجري إلى الحظيرة فتجد فرسها مستيقظة كأنها عرفت أنها قادمة لتراها. وبعد ستة أشهر صارت تمتطيها، بل سمحوا لها

أيضاً أن تدخل سباقاً محلياً للحواجز قادتها بنفسها فيه. وعندلم تكن واقفة تنتظر إشارة البدء استطاعت، للمرة الأولى، أن تنسى ما حدث لابنتها.

سألتها: «هل فزت بالسباق؟».

«كدت أفوز! كنا نسير على ما يرام حتى وصلنا الحاجز الثالث. شعرت بتوتر كبير جعلني أحس ألماً في بطني فلم أعد قادرة على ضبط إيديث فجرت على هواها. انتهى السباق أخيراً وجئنا في آخر المتسابقين، لكننا تمكنا من إنهاء السباق».

مع توغلنا في الغابة الصغيرة المهجورة صرنا نرى مزيداً ومزيداً من القمامة على الأرض، ليس على الأرض وحدها فحسب، بل كانت أغصان الأشجار نفسها مزينة بقطع من المواد البلاستيكية. وعند كل هبة ريح كانت هذه القطع تتلامس وتعلق إحداها بالأخرى وتتعانق مثل عشاق مجانين، وكانت تصدر أصواتاً صاخبة عند اصطدامها، ومع هذه الأصوات أتت رائحة العفن والرطوبة والطحالب.

بل إن الطريق الصاعدة إلى قمة جبل الأولمب، هكذا أخبرتني داريا، تمر عبر القمامة؛ ومثلها الطريق إلى قمة فوجي ياما التي تسلقتها أيضاً فقد كانت محفوفة بالقمامة. وفي جبل إفرست، تماماً تحت قمته، ترقد طبول وخيام مهجورة وعلب بلاستيكية. بل يقال أيضاً إن طائرة هليكوبتر محطمة ما زالت تصدأ هناك.

تخطئ عزيزتي ليدا عندما تظن أن على الكناسين أن يشعروا بأنهم مُذلّون منبوذون. بل على العكس، فلعلهم، إن اهتموا بأمور من هذا النوع، يعتبرون أنفسهم ملح الأرض، منقذي العالم من خطر الاختناق!

سألت إن كان يمكن مساعدة الذين ولدوا حاملين وَسْمَ المنبوذين. فأجابت زوجتي، وهذا لأن السؤال كان يطلب عونها، أن المعالجة النفسية

هي السبيل الأفضل. لعل هذا يساعد في كشف أسباب نبذهم من جانب الآخرين ونقل إحساسهم بالظلم الواقع عليهم من لا وعيهم إلى عقولهم الواعية.

إن الموضوع الأساس في حياة زوجتي هو العثور على أمل من أجل الآخرين. تسبب لها آلام الآخرين وجعاً شخصياً، وهي تعاني مع كل إنسان منبوذ وتحاول تحسين فرصه، تحاول مساعدته في النظر داخل روحه واكتشاف ما لا يمكن له اكتشافه فيها من غير ذلك. تكون سعيدة إذا أحست بأنها لقيت نجاحاً وتعرف عندها أنها لا تعيش عبثاً.

أما أنا، فإن كان لأي موضوع أن يثيرني فهو فكرة الحرية على الأرجح.

كيف تستطيع الكتابة عن الحرية عندما لا تكون قادراً على الفعل الحر؟ هذا هو اعتراض داريا. وهي تقصد بعدم قدرتي على الفعل الحر عجزي عن ترك زوجتي.

لا أعرف ما الذي يجب أن يجعل ترك شخص ما فعلاً أكثر حرية من فعل البقاء معه!

لا بأس، لماذا لم أبق مع المرأة المخيفة التي تتعيش من بؤس الآخرين وأترك داريا وحيدة؟

لعل من الواجب ألا يكون موضوعي مركزاً على البحث عن الحرية كل هذا التركيز، بل على البحث عن الفعل. أو لعله البحث عن استقرار الرأي أو التصميم أو انعدام الشفقة؟ سوف أكتب قصة عن بطل يزيح جانباً كل من يقف في طريق سعادته أو رضاه. وسوف يمضي كانساً الجميع جانباً إلى أن يأتي من يكنسه! لكن لعل دوره لا يأتي إن كان لديه ما يكفي من التصميم والضراوة والعزم وانعدام الرحمة معاً: لن يكنسه بعيداً إلا الموت.

منذ أيام قليلة تحطمت طائرة في مكان غير بعيد عن الساحل الإيرلندي

وكان على متنها 325 شخصاً. لم يطرأ أي عطل على المحرك أو الأجهزة، ولم تصطدم الطائرة ببرج كنيسة ولا بقمة جبل حجبها الضباب بل انفجرت قنبلة موقوتة موضوعة فيها. لم ينج أحد من الركاب. وكان من بين الضحايا ثمانية أطفال. وعلى سطح الماء طفت دمى وألعاب أخرى، هكذا كتب الصحافيون عارفين أن الناس الآمنين على أرائكهم المريحة يحبون قراءة التفاصيل المؤثرة المرعبة.

يفرض الأبطال أنفسهم فرضاً! إنهم يزرعون قنبلة في طائرة، وهم لا يتمتعون بالتصميم وانعدام الشفقة فحسب، فلا ريب في أنهم يقاتلون من أجل حرية أحد ما أيضاً!

يتكلم أشخاص كثيرون عن الحرية. ويكون من ينكرون الحرية على الآخرين أعلى المتكلمين صوتاً. بل إن بوابات معسكرات الاعتقال أيام طفولتي كانت تحمل شعارات عن الحرية أيضاً.

لكنني أزداد اقتناعاً بأن فعلاً من الأفعال لا يكون حراً إلا إذا كان ناجماً عن حس إنساني، إلا إذا وضع القاضي الأعلى في حسابه. ولا يمكن أبداً أن يكون ذو صلة بالتعسف أو الكره أو العنف ولا بالمصلحة الشخصية الأنانية.

إن كمية الحرية لا تتزايد في زماننا رغم أنها تبدو كذلك أحياناً. كل ما يزداد هو الحركة التي لا لزوم لها، حركة الأشياء والكلمات والقمامة والعنف. ولأن شيئاً لا يمكن أن يختفي عن وجه البسيطة فإن نتائج أفعالنا هذه لا تحررنا، بل تطمرنا!

بل إنهم عقدوا أيضاً مؤتمراً دولياً عن نهاية العالم. بحسب العلماء أن انفجار أقل من نصف الرؤوس الحربية النووية الموجودة يخلق عاصفة نارية تنداح عبر القارات والمحيطات وتشعل كل ما هو قابل للاشتعال

على وجه الأرض. سوف تملأ الجو أبخرة سامة من بينها أبخرة السيانيد القاتلة المنبعثة من بعض المواد البلاستيكية التي صنعناها بأنفسنا. لن تدمر الحرارة كل ما على الأرض من كائنات حية فحسب بل ستحرق البذور في قلب الأرض أيضاً. وبعد النار سيحل ظلام! سوف تملأ الجو طيلة أسبوع بعد الانفجار كميات هائلة من الدخان الأسود تحجب خمسة وتسعين في المئة من ضياء الشمس الذي يصل الأرض. وإذا بقي أي نبات غير محترق فسوف يموت في الظلمة التي تمتد شهوراً. وأثناء فترة الظلمة تلك سوف يبدأ شتاء قطبي متطاول يحيل المياه على سطح كوكبنا إلى جليد فيدمر ما قد يجده من بقايا الحياة في الماء.

تقع جزيرة كارباثوس الصغيرة بين كريت ورودوس. وعلى هذه الجزيرة تقوم مدينة أوليمبوس الصغيرة. كنيسة ضئيلة الحجم وبضع عشرات من المنازل تقف صفوفاً متراصفة على سفح جبل شبه عار. لهذه البيوت الحجرية أسقف مسطحة، وهي تحتشد معاً في شوارع ضيقة. وهنا، لا يزال المرء يعثر على نساء في ثياب سوداء مثل شعورهن ويرى في وجوه الرجال السمراء شيئاً قديماً، من عمر الزمان نفسه. سنذهب إلى تلك المدينة، سنذهب نحن الاثنين! هكذا خطر لها فجأة بينلم تكن تسير صاعدة الشارع الضيق المفضي إلى الكنيسة. هناك عرفت معرفة أكيدة أنها ستعود إلى هذا المكان وأنني سأكون معها. ولعلنا نبقى هناك حتى نصير عجوزين. سوف تصطحبني بين الخرائب الأثرية، بين بقايا المعابد. سوف تصطحبني عبر قرى صغيرة أنسى أسماءها على الفور، قرى من الممكن أنها لا تعرف أسماءها أصلاً. أستنشق روائح إكليل الجبل والطرفاء والخزامى وأشم عبير التراب الساخن الذي شوته الشمس. أسمع طنين زيز الحصاد ونهيق الحمير ورنين الأجراس، أجراس عرس فوقنا. وندرك معاً ما لا ينتبه إليه غيرنا: روح أنفاسنا، وتنفس روحينا.

أعرف أنها تتخيل صورة حياتها في المستقبل وأنها تجعلني جزءاً منها. أعرف أنها تتخيل الرحلات التي سنقوم بها معاً، وتتخيل شيخوختها إلى جانبي كما لو أن كلاً منا ينتمي إلى الآخر أبد الدهر، كما لو أن أحداً غيرنا لم يعد موجوداً. لعلها لم تفكر أبداً في أننا نسيء إلى أي إنسان فهي مقتنعة بأن حبنا يبرر كل شيء. أم لعلها أكثر أصالة مني فحسب، فهل تريد قبول نتائج قرارها بأن تحبني؟

وأنا أيضاً أحبها وأحاول تبديد عدم ارتياحي، تبديد سعيي إلى الإفلات من رؤاها، فأنا أريد أن أكون معها، يوماً على الأقل، جزءاً من الزمن على الأقل.

هكذا أحببنا بكل قوانا ومشاعرنا، خارج عدم الارتياح، وخارج الوحدة، وخارج الحب، وخارج التوق، وخارج القنوط. تجمّعت أجزاء الزمن فصارت أسابيع، ثم صارت شهوراً. هبت رياح، ومرت عواصف، وسقط الثلج، وبدأ ابني يدرس علم الإدارة وصار يزداد اهتماماً ببرامج لإدارة العالم الذي عليه أن يعيش فيه. كانت ابنتها تكبر أيضاً. وقد قررت أن تصير مهندسة زراعية. أجبرنا انهمار مطر مفاجئ على الاحتماء بقبو مهجور حيث تعانقنا عناقاً شديداً كما لو أننا التقينا بعد فراق طويل ثم خضنا بين أوراق الأشجار المبللة في الحديقة حيث غنت الغربان في قمم الأشجار أغنيتها لنا من جديد. مرض زوجها مرضاً شديداً جعلها لا تملك وقتاً لي، لكنها كتبت رسائل طويلة، وفيها عانقتني ولعنتني: الحياة من غيرك تقارب الموت! احتفل ابني بعيد ميلاده العشرين. وعندما سئل أن يختار هدية لنفسه تكون مفيدة وتسره أيضاً فكر قليلاً ثم طلب جهازاً لقياس شدة الإشعاع! لاحظت زوجتي عزوفي عن الكلام. كنت أبدو شارد الذهن، فسألتني إن كنت أشعر أحياناً بحنين إلى المرأة الأخرى. اقترحت أن أدعوها إلى زيارتنا ذات يوم. وبعد ذلك سافرت من أجل

الالتحاق بدورة عقائدية فصرت قادراً على البقاء مع حبيبتي ليل نهار.

قالت إن أمراً حاسماً سوف يحدث في الربيع القادم.

«لماذا في الربيع القادم؟».

بعد اثنتي عشرة سنة، سوف يدخل كوكب المشتري منزل الحياة بالنسبة لها.

في الواقع أن صاحب معرض فني في جنيف أبدى، أوائل الربيع، اهتماماً بأعمالها واقترح إقامة معرض لها.

أتيت إلى مشغلها في تلك العلّية كعادتي. وفور أن فتحت الباب رأيت أن شيئاً غير معتاد قد حدث: كانت أبواب الخزانات والصناديق التي تراكم عليها هباب الفحم من المدخنة الصغيرة منذ سنوات مفتوحة كلها الآن. وحيثما نظرت كنت أرى جبالاً من مخلوقاتها ووحوشها وشيطاناتها وساحراتها وعفاريتها الصغيرة وشخوصها التي تكشف عن أعضائها الجنسية من غير حياء، وكذلك مخلوقاتها الملائكية التي لا جنس لها، ورجالاً شهوانيين، وسكيرين عاديين من حانة المدينة الصغيرة. كنت أرى معظم هذه الأعمال لأول مرة.

قبلتني وأفرغت كرسياً من أجلي وحكت لي أخبارها وعصرت يديها تحسراً: إنها لا تعرف ما يجب عليها فعله. مضينا بعض الوقت نخرج بعض ما بقي من أعمالها الأولى من أغلفتها. كانت تضع كل منحوتة فوق منصة التشكيل وتتمعن فيها بضع دقائق مثلما يفعل آثاري بلقية ثمينة اكتشفها في الأرض على نحو غير متوقع ثم تضعها على الأرض مع رفيقاتها. لم تكن تعرف إن كانت محقة في نبش هذه الأعمال القديمة وعرضها. أشارت إلى تمثال رأس امرأة عجوز: لقد صنعته أيام كانت في المدرسة. إنها والدة أبيها التي عاشت تسعين عاماً. كانت تغمز بإحدى عينيها وتبتسم بالأخرى.

رأيت في ذلك التمثال جبينها المرتفع، وكانت الابتسامة شديدة الشبه بابتسامتها أيضاً. وأما تمثال الفتى البرونزي المشنوق وفي رأسه فتحة خرجت منها زهرة طويلة الساق فكان زميل دراسة أقدم على الانتحار حكت لي قصته من قبل. أرادت في ذلك الوقت أن تصنع تماثيل لجميع أفراد أسرتها الذين تعرف عنهم. وكان كثير من هذه التماثيل لا يزال باقياً في ورشتها. ثم قالت: «إن صاحب المعرض يدعوني إلى العرض الخاص، وسوف تأتي معي».

«وكيف أستطيع الذهاب إلى سويسرا؟».

قالت: «لا أعرف كيف! لكنني أعرف أنك سوف ترى معرضي».

عندما نهضت لأذهب لم تحاول جعلي أبقى ولم ترافقني إلى الباب، كانت تريد مواصلة عملها.

أراها كل يومين. هذا ما تريده. أجدها منهمكة في العمل دائماً. وفي كل مرة يحدق فيّ وجه جديد من عينين حجريتين أو صلصاليتين فأرى فيهما عاطفة مألوفة. تواصل حبيبتي عملها بعض الوقت بينما أحاول إعداد طعام بسيط لنا. وبعد ذلك تضع أدواتها جانباً وتخلع إزارها الملطخ وتغسل يديها. والآن، لا تريد أي مزيد من التفكير في العمل، فقط، قبل أن نتعانق، تشعر بأن عليها إخباري بلم تكن تفكر فيه ومن تناولت معه كأساً من البيرة الليلة الماضية وما قالوه لها في الوكالة هذا الصباح، ما قاله الشخص الذي يتولى التفاوض على ترتيب ما يتعلق بالمعرض. وأخيراً يكون عليها أيضاً أن تحكي لي أحلامها. إن يومها غني إلى درجة لن تجعلها تدخل مملكة السماء أبداً.

أنا معجب بها! وأنا واثق من أنني يمكن أن أقف أسابيع أمام منصة التشكيل من غير أن أنجز أكثر من شيء واحد أو اثنين.

«كيف تستطيع أن تكون واثقاً من هذا؟».

«لأنني أعرف مقدار الوقت الذي يلزمني للتفكير في جملة واحدة قبل أن تصبح مرضية لي بعض الشيء».

تقول لي شارحة: «هذا لأنك متوتر. أنت تحاول إتقان كل شيء بعقلك وبقوتك. أنت لا تعرف كيف تخضع للحياة».

هي لا تجبر نفسها على فعل شيء. وما تحتاجه أكثر من كل شيء آخر هو إحساسها بأنها حرة. إن لم تأتها رغبة في العمل فهي تخرج مع صديقة لها فتسكران، أو تأتي إلى هنا ثم تجلس، إنها لا تريد أي شيء، ليست مدفوعة إلى أي مكان بفعل أفكارها أو خيالها، تكتفي بالتحديق كما لو أنها تحدق في سماء صافية أو في مياه نقية، تحدق في الفراغ. تدرك أن لا حاجة إلى حدوث شيء، وهذا أيضاً شيء لا بأس به عندها. أو، في أوقات أخرى، يظهر شكل أمامها من غير انتظار، وجهٌ، شبهٌ، أو مجرد قطعة من قماش يمكن أن تتخذ شكلاً أو تزول. وهي لا تعرف من أين تأتيها هذه الأشياء، لا تبدو الأشياء آتية من داخلها بل هي تحس أنها مجرد وسيط ينفذ مشيئة عليا. عند ذلك تنفذ ما يكون عليها تنفيذه وتكون سعيدة في أثناء ذلك. هي لا تفكر في ما سيصبح عليه التمثال. وتشعر بأن هذا ليس من شأنها بل هو شأن من وضع تلك الرؤيا فيها، كائناً من كان! ولو كنت أستطيع الكتابة على هذا النحو من غير تعذيب نفسي بالنتيجة مسبقاً ومن غير رؤية رسالة أؤديها لأحسست بالسعادة أيضاً.

«لكنني لا أستطيع العمل مثلما تعملين، فأنا مختلف».

تقول لي مؤكدة: «أنت لا تعرف كيف أنت».

«من الذي يعرف؟».

«أنا! لأنني أحبك».

«إذاً، كيف أنا؟».

«أنت أكثر عاطفة، أكثر لا عقلانية».

لا أعرف إن كنت عاطفياً. أعرف أنها عاطفية. وسوف تدمرنا عاطفتها معاً ذات يوم.

في اليوم التالي، وجدتها باكية وسط شظايا الصلصال. كانت منصة العمل خالية.

«ماذا حدث؟».

«لا شيء! ما الذي يجب أن يحدث؟ من الأفضل أن تذهب فأنا خاوية اليوم».

«هل آذاك أحد؟».

«الجميع يؤذونني. لكن، هذه ليست مشكلتي».

«فما الأمر إذاً؟».

كيف استطعت أن أسأل؟ ألم أفهم، ألم أستطع أن أرى؟ كان كل ما نفعله عديم الجدوى، كان لا شيء إلا اعتداداً بالنفس ولعباً عابثاً بالفن. لا شيء إلا كاريكاتوراً يائساً وتكراراً لا ينتهي لما تكرر ألف مرة من قبل.

وإذا ما أفلحت، من وقت لآخر، في التقاط شيء جديد، في القبض على شيء أسمى، فمن سيحس بهذا، من سيلاحظ هذا؟ ما الذي جعلها تختار هذا العمل تحديداً، هذا الكدح الشاق المستنفِد عديم الفائدة والبهجة؟ لقد كرهت الفنون جميعاً! ولم تعد تريد أن تعرض أعمالها في أي مكان، لم تعد تريد أن يرى أحد عثراتها. لا معنى للأمر كله!

«وماذا عن تمثال بارلاخ؟».

«نعم!، ملاك بارلاخ ـ لكنهم أزالوه، أليس كذلك؟».

لم يبق هذا الملاك إلا لأن الملائكة خالدة. تضحك عبر دموعها: «لو جلست أمامي لجعلت لك جانحين، فقد تصير خالداً أيضاً».

«سوف أجلس أمامك».

«من الأفضل أن تستلقي معي!».

نتعانق فتنسى أساها كله. إنها تتوق إلى أن نمارس الحب على شواطئ بحيرة جنيف.

بعد ثلاثة أيام أخبرتها المؤسسة، أو بالأحرى الوكالة التي تتولى تنظيم المعارض في الخارج، أي ضبطها والسيطرة عليها، أنها لن تنظم معرضها.

أردت أن أعرف سبب هذا الرفض لكنها اكتفت برفع كتفيها.

شككت في أن هذا الرفض كان بسببي أنا.

«هذا ممكن يا حبيبي فهم يغارون مني لأنك لي. يعرفون أن أحداً لا يحبهم إلى هذا الحد».

لكننا وجّهنا رسالة احتجاج إلى السلطات، من الأرجح أنها لن ترسلها. خرجت بعد ذلك لترى صديقتها البصّارة لتعرف ما يقوله الورق عن احتمالات قبول اعتراضها. قيل لها إن الاحتمالات ليست جيدة فقررت أن تقيم معرضاً في كوتنا هورا بدلاً من جنيف.

كنا ما زلنا نسير في الاتجاه الذي توقعت وجود مقلب القمامة فيه. كانت قطع البلاستيك المحطمة تزداد على الأشجار من حولنا. وعند أسفل جذع شجرة صغيرة بائسة كانت أكياس قذرة مجعدة تتقافز ملتفة. وكلما أتت هبة ريح كانت صفحات مصفرة من جريدة "بلغة الحمقى" ترتفع قليلاً عن الأرض مثل طيور ضخمة مهزولة تخفق بأجنحتها المشوهة.

صار فرانز كافكا أضحية بقراره هو. لا يبدو أن الذين حوله حرصوا على التضحية به مثلما حرص عليها هو نفسه! لقد سجل في مرات كثيرة تلك

الحالة الذهنية التي تعيشها الأضحية. إنها تقاوم، عدا استثناءات قليلة، بل تفكر أحياناً في وسائل محددة للدفاع عن نفسها؛ لكن نهايته المأسوية لا تقبل تبدلاً. لا بد أن كافكا كان يتوقع مصير اليهود في عصر الاضطراب هذا. لقد لقيت شقيقته الصغرى حتفها في غرفة غاز. والأرجح أنه كان سيلقي المصير نفسه أيضاً لو لم يكن محظوظاً إلى درجة الموت في شبابه.

إن الكتّاب اليهود، ومنهم مثلاً ويرفل الذي عاصر كافكا، وكذلك وبيلو وهيلر اللذان جاءا بعده، يتطرقون كثيراً إلى فكرة الحَمَل الأضحية التي تستحوذ عليهم استحواذاً لعله غير واعٍ أو لعله استحواذ نبوئي. إن فكرة الأضحية والشخص الذي يقدمها، فكرة الأضحية التي تزداد عشوائية والمضحي المستعد لأن يجر إلى مذبح إلهه أي عدد من بني البشر، أو بني البشر جميعاً، تصبح فكرة متزايدة التكرار في عالمنا اليوم لدى الجنس البشري الذي اقتنع ذات مرة بفردوس أرضي وبقدرة الثورات على أخذنا إليه.

خرجنا من الغابة أخيراً. وأمامنا، خلف سياج من الأسلاك الشائكة، رأينا جبلاً فيه قمم ووهاد ووديان كثيرة. كانت سفوح الجبل تشع هنا وهناك عندما تنعكس أشعة الشمس على قطع البلاستيك. وفوق قمة الجبل المتطاولة رأينا جرافة صفراء اللون تتحرك فتدفع أمامها كتلة متعددة الألوان. ثمة طريق يصعد فوق الجبل من أحد الجوانب. لكن مدخل الطريق كان مسدوداً بحاجز مخطط بالأحمر والأبيض. عند ذلك خرجت سيارة قمامة برتقالية من الغابة وقام حارس مختف برفع الحاجز فدخلت السيارة. ومع تسلقها البطيء سفح ذلك الجبل الاصطناعي طار سرب من الغربان من على جانبي الطريق، طارت الغربان صافقة أجنحتها الضخمة. توقفت سيارة القمامة عند القمة وكان لونها ساطعاً تحت ضياء الشمس. ثم بدأت تفرغ ما في جوفها. وما إن بدأت تتحرك لتغادر حتى اندفعت

مجموعة من شخوص صغيرة قادمة من مخبأ غير مرئي. أحصيت ثلاثة عشرة شخصاً ـ لو كانت داريا هنا لقالت إنه عدد مشؤوم! ـ كانوا رجالاً ونساءً وأطفالاً. حمل الكبار منهم مجارف في أيديهم، وشوكات، وعصياً لها خطاطيف، أو كانوا يدفعون أمامهم عربات أطفال رماها أصحابها في القمامة. وثبوا جميعاً فوق القمامة الطازجة وراحوا يحفرون فيها كأنهم يتسابقون. كانوا يقذفون موادها من كومة إلى أخرى ويختارون من بينها ما يضعونه جانباً من أجل أنفسهم. أما المواد الأخرى، التي كان من الواضح أنها ما زالت مفيدة لأمر أو لآخر، للبيع مثلاً، فكانوا يقذفون بها إلى العربات فوراً.

تذكّرت المرأة التي قمت بنقل أشيائها. كان المرض يأكل روحها، وكانت مؤمنة بحرب فناء العالم، وكانت تستمتع بأشياء أتت بها من حاويات القمامة. لو كانت هنا لوجدت جوهرها! لن تبيع شيئاً من الأشياء التي تجدها هنا، بل ستجمعها في كومة تعلو وتعلو وتزداد طولاً وعرضاً. ستعمل هنا حتى تسقط، ولن يحل الليل قبل أن تجلس في أسفل جبلها الذي جمعته بنفسها ثم ترتاح بعض الوقت مشغولة البال في مأواها الصغير. ومثل سيزيف، لن تصل هذه المرأة إلى إنجاز عملها كله، لا لأن قمامة جديدة تَرِد على نحو مستمر من غير توقف فحسب، بل أيضاً بسبب خواء داخلي لا تستطيع أشياء العالم كلها أن تملأه.

سرعان ما أدركنا أن لا شيء مما يحدث أمامنا يحدث من غير خطة، وأن ذلك الجري كله وذلك الحفر والاستكشاف كله يُدار من قبل بدين أصلع ضخم يرتدي حلة سوداء. وعلى عكس الجميع، لم ينحن هذا البدين أبداً ليلتقط شيئاً بل كان مكتفياً بالتجول بينهم كأنه رئيسهم. عند ذلك فقط جاء اسمه إليّ ففاجأت ليدا بالقول إنه، بحسب معلوماتي، يدعى ديميتر، وأنه اضطر إلى دفع مبلغ غير قليل ليحصل على حق التنقيب عن

الكنوز في هذا الجبل، رغم أنني لا أعرف من تلقّى ذلك المال. من حين لآخر، كان الباحثون يعثرون على صحن قصديري أو طاحونة قهوة عتيقة أو جهاز تلفزيون أو قطعة نقدية رميت في القمامة من غير انتباه.

عندما احتل مقدمو الأضاحي الكمبوديون ـ يعرفون باسم الخمير الحمر ـ مدينة بنوم بنه اقتحموا مباني المصارف المهجورة وفجروا خزنات النقود ثم حملوا أكواماً من الأوراق النقدية فقذفوا بها من النوافذ. لم يقذفوا بالعملة المحلية فقط بل بالدولارات الأمريكية والفرنكات الفرنسية والينات اليابانية أيضاً. راحت أوراق نقدية من بلدان العالم كلها تبحر في الهواء خارجة من النوافذ، لكن أحداً ممن ظلوا أحياء في تلك المدينة لم يجرؤ على التقاط واحدة منها. بعثرت ريح لطيفة تلك القطع الورقية المطبوعة الملونة. ارتفعت في الهواء مع نتف من أوراق الجرائد والملصقات الممزقة والبطاقات البريدية المصورة الفارغة ثم هبط ذلك كله واستقر عند نواصي الشوارِع أو في وسط الشوارع التي لم يأت أحد لكنسها. تعفنت القمامة تدريجاً إلى أن جاءت الأمطار الموسمية فحملتها إلى نهر الميكونغ الذي ذهب بها إلى البحر.

لعل لقاءً بشرياً هو أكثر ما كان كافكا يتوق إليه في حياته كلها. وفي الوقت نفسه، كان هذا اللقاء يمثل عنده هاوية غامضة بدت له سحيقة لا يُسْبَر غورها؛ لكنه عاش في زمن يمجِّد الثورة أكثر من أي شيء آخر. ولم يكن شيءٌ يبدو جديراً بالإعجاب، أو حتى بالاهتمام، إلا ما كان ثورياً، في الفن كما في النظام الاجتماعي.

ولهذا السبب أيضاً راحوا يبحثون في جُمَله وصوَره عن رسالة ثورية. لكنني عندما قرأت رسالتين كتبهما لامرأتين أَحبهما، أو حاول أن يحبهما على أقل تقدير، وكان يتوق إليهما، ويخشاهما أيضاً، أدركت أنني لو فعلت مثلما فعل هؤلاء لما كان لدي أمل في فهمه.

دام حبه الأول أكثر من خمس سنوات. دعاها إليه ثم دفعها بعيداً عنه، وتوسَّل إليها ألا تتركه إلا إن كانت تريد دماره، وتوسل إليها أن تتركه حتى لا يدمِّر كل منهما الآخر. خطبها، وسرعان ما فرَّ منها بعد ذلك. وعندما ظلت صامتة ممتنعة عن الرد على رسائله ألقى باللائمة على قَدَرِهِ وراح يتوسل من أجل كلمة عطف واحدة. كان اللقاء البشري نفسه في نَظره آتياً في ارتباط وثيق مع امرأة يحبها، في فرصة لتحقيق معنى حياته، فرصة لا ينفك يضيعها. وأما الصراع الذي كان يخوضه مع نفسه فقد أنهكه واستنفده تماماً.

أيستطيع شخص بهذا الصدق أن يكتب عن أي شيء غير ما كان يهزّ وجوده كله، ما كان يشغله ليل نهار؟ عن أي شيء يكتب غير هذا الصراع الذي يخوضه، وإن كان أقل من أمر هامشي مقارنة مع الأحداث الثورية الجارية في العالم؟ صحيح أن أكثر كلامه كان عن نفسه؛ وصحيح أن أبطاله، رغم أن لهم أسماءهم، ما كانوا إلا هو نفسه باعترافه؛ لكنه كان يخفي الطبيعة الحقيقية لصراعه. لقد كان حياً، نعم! وكان فناناً إلى حد كبير جعله يعبِّر بالصور عن كل شيء عاشه. آلة التعذيب التي تقتل المحكوم قتلاً بطيئاً، اخترعها هو في اللحظة عينها عندما قرر أن يكون مشاركاً رغم كل شيء، بعد صراع داخلي مرير. وعندما قرر الكف عن المشاركة بعد أسابيع قليلة ـ قرر الكف على نحو غادر خداع، هكذا أحس هو نفسه ـ تخيل تلك المحكمة التي يصدر قضاتها أحكامهم على المتَّهمين بجرائم غير واضحة للقارئ بل كثيراً ما تفسَّر بأنها ذنوب ميتافيزيقية، بأنها كناية عن الخطيئة الأصلية.

حتى في حقبة ثوروية، لا شك في وجود كتّاب آخرين تملأ الصور والكنايات كتاباتهم من غير أن تجعلنا نشعر باضطرارنا إلى البحث في أعمالهم عن رسائل خبيئة تتناول معنى الوجود. لكن ثمة في أعمال كافكا

ما يتجاوز كونه مجرد صور مخترعة اختراعاً ذكياً، إنه شيء يهزنا ويستحوذ علينا، شيء يدفعنا دفعاً قاتلاً إلى الأمام مثل طريق حادة الانحدار.

أقيم معرض داريا في ثلاث صالات متسعة. وقد ضمَّ ثلاثة وسبعين عملاً من بينها عشرون لوحة. لا بد أنها كانت قادرة من غير مشقة على زيادة العدد أو إنقاصه قليلاً، لكنها رأت هذا العدد مناسباً تماماً. لقد ولدت ابنتها العام 1973!

أمضينا نحو أسبوعين في تغليف وحزم صناديق من التماثيل واللوحات. غطت شعرنا ووجهينا طبقة من غبار الخشب.

قالت وهي تعانقني وتنفض الغبار عن بنطالها الجينز: «أنت في غاية اللطف معي. وأنا لا أكرس نفسي لك على الإطلاق. اشرب كأساً من النبيذ على الأقل!».

وعَدَتْ بتعويضي عن ذلك كله. قالت إننا سنسافر إلى مكان أحبه. لن يكون في ذلك المكان مياه فهي تعرف أنني لا أهتم بالمياه. سوف تأتي إلى الجبال معي.

ما كنت أعبأ كثيراً بالذهاب إلى المياه ولا إلى الجبال، ما كنت في حاجة إلى راحة، أفضل أن أستطيع العمل من غير تشويش. لكنني سلكت مسلك ولد عاقل فلم أعترض أبداً! أخرجت من الأغلفة المنحوتات التي أتينا بها. وساعدت في تثبيت قواعد عرض التماثيل وفي تعليق الخيوط من السقف. وقمت بضبط الإضاءة. وفي المساء عدت بها وأنا أقود السيارة بأسرع ما استطعت.

لا تزال زوجتي غير شاكة في كيفية قضائي معظم وقتي، هذا ما بدا لي! أو لعلها لم تكن تريد أن تشك! وفي اليوم السابق على افتتاح المعرض سافرت زوجتي من أجل حضور مؤتمر عن علم النفس السلوكي عند

الحيوانات وسألتني إن كنت منزعجاً من تركي وحيداً طيلة هذا الوقت.

لم أكشف لها ارتياحي لذهابها في تلك اللحظة. وأكدت لها أنني أستطيع الاهتمام بنفسي.

اقترحت عليَّ أن أذهب معها إن أحببت. لا بد أن أجد أشخاصاً يثيرون اهتمامي في ذلك المؤتمر. وظلت تحدثني بعض الوقت عن أشخاص يربّون الأفاعي أو الفراشات النادرة وعن خبراء في البوم والمرموط والأيائل البيضاء. أرادت أن تتيح لي شيئاً من الاختلاف، خبرات لن أحصل عليها في عزلتي، فأحسست بالذنب عندما رفضت عرضها هذا. كنت موشكاً أن أقابل بالخديعة عرض المساعدة الذي قدمته لي.

كان زوج حبيبتي هو من أخذها بالسيارة لحضور العرض الخاص بافتتاح معرضها. لقد ظهر من الظلمة أخيراً. اقترحت عليها أن ألزم بيتي في ذلك اليوم فلسوف أرى المعرض على أي حال!

لكنها لم ترِد أن أتركها في تلك اللحظة. وكان عليَّ التغلّب على رغبة جبانة في تجنّب ما سوف يكون مقابلة غريبة مربكة، رغبة في التذرّع بادّعاء المرض أو بتعطل السيارة. ثمة أعذار كثيرة يستطيع الرجل اختراعها، لكنني ما كنت أريد أن أكذب، عليها هي على الأقل، فذهبت.

ما كنت أعرف زوجها إلا من الصُّوَر، لكنني ميزت قامته الرياضية الطويلة على الفور. كانت الصالة مزدحمة في تلك اللحظة، ولا أعرف إن كان قد لاحظ وجودي أيضاً. كان يتحدث إلى رجل عجوز أصلع الرأس حكيم المظهر، لا بد أنه والدها الذي لم أره من قبل أيضاً. ما كنت أعرف أحداً في تلك الصالة، كنت أنتمي إليها وحدها، إلى تلك المنقطعة عن كل الروابط والصلات. أحسست بأنني في غير مكاني، وكان ذلك الإحساس شديداً إلى حد محبط.

أتت صوبي في اللحظة نفسها تقريباً. كان مظهرها غير مألوف في ثوبها الطويل القرمزي بلون أزهار الخشخاش. بدت قسمات وجهها غريبة بالنسبة لي، تلك الخطوط الصغيرة التي كثيراً ما لامستها بشفتيَّ، كانت مغطاة بطبقة من الكريم والبودرة. قبّلتني مثلما قبلت بقية الضيوف من غير شك وهمست لي أنها تحبني. ثم سألتني إن كنت أود مقابلة زوجها. أعلنت أمام الجميع أنها تخصّني أنا ـ «حبيبي» ـ فأصبحت فجأة غير عارف إن كنت مسروراً بهذا أم غير مسرور.

قال لي زوجها مبتسماً ابتسامة فيها بعض التأذّي: «لماذا لا أصافحك، رغم كل شيء؟». رغم أنني لست قصيراً تماماً فقد كان الرجل أطول مني بمقدار الرأس كله وأصغر مني بعشرة سنين أيضاً. كان، للوهلة الأولى، واحداً من أولئك الرجال الذين تجري النساء خلفهم طوعاً. قال إن داريا بذلت جهداً كبيراً في عملها في الأسابيع الأخيرة وإنهم ما كانوا يرونها في البيت إلا نادراً ثم رفع كتفيه كأنه يقول: ثم هناك أنت فوق كل شيء، وهذا كثير! لكنه قال بدلاً من ذلك إنه قرأ مجموعتي القصصية الجديدة فكانت تلك اللحظة مناسبة لأن أرفع كتفيَّ بدوري لكنه ابتسم لي تلك الابتسامة المتأذية نفسها من جديد وسار مبتعداً. وقفت عند الباب لكنني لم أملك الشجاعة الكافية للخروج. كان عندي إحساس بأنهم يراقبونني جميعاً، صرت جزءاً من المعرض في تلك اللحظة! لعل من الأفضل أن توضع عند قدمَيَّ في مكان وقوفي بطاقة تقول: محظور، لكنه عامل في ميدان آخر. أو: تمثال العاشق. أو، على نحو بسيط: هذا هو!

في الغرفة الأخيرة كانت شقيقة داريا، التي لم أرها من قبل أيضاً، تخرج من علبة من الورق المقوى شطائر بالجبن والكافيار وتصب النبيذ في كؤوس ورقية. أخذت شطيرة لكنني لم آخذ النبيذ لأنني سأقود السيارة عائداً في المساء.

تقدم كهل أعرفه من مكان ما فتناول كأس نبيذ وقال إنه لم ير منذ سنين شيئاً حراً محرِّراً مثل هذا المعرض. كان ينظر صوب شقيقتها لكنني كنت واثقاً من أنه يكلمني.

قالت شقيقتها موافقة: «هكذا هي! عندلم تكن صغيرة كانت تهرب من البيت وتهرب من المدرسة أيضاً».

كان زوجها يقترب مني فتراجعت مستعجلاً. ما كنت قادراً على تجاهله، لكنني رغم ذلك، وهذا ما فاجأني، وجدت نفسي أنظر إليه نظرة استعلاء دونما غيرة منه، كأنه ما كان يزعجني البتة أنها ترقد إلى جانبه ليلة بعد ليلة. لم أشعر إلا بإحراج بسيط، وشيء من الخجل، أو ربما شيء من الإحساس بالذنب. لم يسئ هذا الرجل لي أبداً، أما أنا فأقتحم حياته سراً وغدراً منذ سنين كثيرة.

خمَّنت داريا مزاجي في تلك اللحظة فأسرعت إليّ حتى تريحني. كان زوجها على وشك المغادرة الآن آخذاً معه بقية أفراد أسرتها. سوف ينتهي هذا السيرك كله بعد هنيهة ولن يبقى إلا حفنة من أصدقائها الذين لم ترهم منذ سنين وتحب الآن أن تدعوهم إلى كأس من النبيذ. وسوف يبقى أيضاً ممثلو الجهة المنظمة للمعرض لأنهم وعدوا بشراء واحد أو اثنين من أعمالها. لكن ذلك سينتهي سريعاً أيضاً ولن يبقى إلا نحن الاثنين.

سألتها إن كان ثمة شيء أستطيع فعله، لكن ما كان لديها شيء فقد ذهبت شقيقتها من قبل وحجزت طاولتين. وددت أن أقول لها كم كنت مسروراً لأن المعرض كان ناجحاً لكنني كنت مشلولاً على نحو ما ولم أستجمع شتات نفسي إلا بعد أن ذهبت.

ما زال زوجها هنا، لم يذهب بعد! لعله أراد أن يعبِّر عن رضاه بالمعرض. كنت أسمعُ ضحكته المرتفعة الفرحة الطيبة. قد يسير صوبي

بخطوات واسعة في أي لحظة فيضرب ظهري ويقول لي إنني أبدو مسلياً رغم خراقتي وأنه كان يتوقع أن يرى أسوأ من هذا، في الواقع أنه يحس شيئاً من التعاطف نحوي، ففوق مشاكلي كلها حمّلت نفسي عبء زوجته أيضاً! لعل علينا أن نسوي هذا الأمر في النهاية.

أحسست بأنني أختنق في هذا المكان المزدحم المغلق.

فاجأتني الأضواء المتألقة في الخارج. ما كنت أعرف تلك البلدة الصغيرة. صحيح أننا أمضينا وقتاً طويلاً هنا في الأيام القليلة الماضية لكن الوقت لم يسمح لنا بأي نزهة فيها. أما الآن فاخترت لنفسي شارعاً ضيقاً يمضي منحدراً إلى أسفل تلك التلة. من الواضح أن معرضاً كبيراً يقام هنا في مكان ما: حملت الريح إليّ نتفاً من موسيقى راقصة وصادفت أطفالاً يحملون بالونات ملونة وزمارات وقضباناً من السكر.

كنت أحب المعارض والتجمّعات وعروض الخفّة ومن يأكلون النار ويسيرون على الحبال، لكنني لا أذكر متى ذهبت إلى معرض من هذا النوع آخر مرة. في السنوات القليلة الماضية، أهملت اهتماماتي كلها إلا واحداً، وأهملت أصدقائي كلهم، كل من كان قريباً مني وعزيزاً على قلبي، كلهم إلا واحدة. وأهملت عملي أكثر من أي شيء آخر.

ما كنت راضياً عن أسلوب إنفاقي حياتي، لكنني ما كنت أستطيع لوم أحد على هذا إلا نفسي. أصل إلى نهاية الشارع الصغير فينبسط أمامي فضاء واسع مفتوح. ومن فوق الراقصين شعّت كتلة من أضواء خدّاعة، لكنها مغرية. وكانت خيمة السيرك مزيّنة برايات زرقاء وحمراء. وكانت بجعات بيضاء عملاقة تحاول تقليد طيران البجع النبيل.

وقفت لحظة في تلك النقطة المرتفعة بعض الشيء ورحت أراقب الحشد يتحرك تحتي. وددت أن أنضم إليهم، وددت ألا يكون عليَّ أن

أقلق على أحد، ألا أفكر في شيء، لا في ذنوبي ولا في أكاذيبي، ولا حتى في حبي. وددت ألا أقتحم حياة أحد آخر، ألا أنتمي إلى أحد. وددت أن أتحرك حراً في هذا الحشد الذي لا يعرفني أحد فيه، أن ألتقط نتفاً من أحاديث ووجوه بشرية، أن أحلم بأحداث أشكّلها بحسب مشيئتي، وأن يكون أمامي شيء غير الهرب الدائم والرجعات الآثمة.

تصرّ زوجتي على أنني غير قادر على نسيان ما عشته زمن الحرب. وهي تقول إن ما عشته آنذاك يمنعني الآن من أن أكون قريباً من أي شخص آخر، وذلك لخوفي من المعاناة عندما أفقد ذلك الشخص. وتقول أيضاً إنني لا أستطيع تصديق أنني لن أفقده. أكون وحيداً رغم أنني إلى جانبها في الظاهر. ومن الواضح أنني سأظل وحيداً لو كنت إلى جانب أي شخص آخر.

لا بد أن أعود الآن فلست أريد إفساد يوم حبيبتي الناجح بسوء مزاجي. لكنني مضيت إلى حلبة الرماية وطلبت بندقية من الجميلة التي هناك. أصبت عدداً من الأهداف يكفي للحصول على دب صغير معلق بخيط مرن وعلى ببغاء مصنوع من بعض القماش والريش الملون. وعندما كنت أستلم غنائمي هذه فاجأني أنها تلائمني أكثر من تلك المنحوتات الرائعة التي تركتها خلفي منذ قليل.

عثر أحد الباحثين في القمامة على علم أحمر عَلِق بخطافه. وبجهد كبير تمكن من انتزاعه من تحت ركام الرماد والقاذورات بأن لفه حول عصاه ثم لوّح لزوجته حتى يتعاونا على تخليصه. وعندما رفعاه في الريح رأينا علماً أحمر حقيقياً يرفرف الآن فوق جبل القمامة.

لم يملأ الخمير الحمر فراغ أرواحهم بالأشياء أو بالمال الذي كانوا يحتقرونه. لقد أدركوا أن فراغ الروح غير قابل للملء ولو بكل أشياء العالم، وهذا ما جعلهم يحاولون ملئه بالأضاحي البشرية لكن فراغ الروح

لا يقبل امتلاءً بأي شيء حتى لو سيق بني البشر جميعاً إلى المذبح: سيستمر الفراغ، مخيفاً لا يعرف الشبع.

كل شيء على وجه الأرض يتحوّل تدريجاً إلى قمامة أو إلى فضلات لا بد من إزالتها عن الأرض بطريقة أو بأخرى، لكن شيئاً لا يمكن أن يزال من الأرض! منذ بعض الوقت أفادت صحفنا، صحف "لغة الحمقى"، أن مخترعاً تشيكياً ابتكر آلة لإتلاف الأوراق النقدية والسندات والوثائق السرية القديمة، أي التي لم تعد لها فائدة. وزعمت المقالة أن إتلاف الأوراق النقدية في الخارج يتم في مطاحن يبلغ ارتفاعها طابقين. لكن كتلة الورق المتلف المضغوطة كانت شديدة الكثافة إلى حد يجعل كل كيلوغرام منها في حاجة إلى نصف لتر من الوقود لحرقه. وأما الاختراع التشيكي فلم تكن أبعاده تتجاوز حجم آلة صناعية متوسطة. وتنتج تلك الآلة الرائعة ـ من المحتمل تماماً أنها ليست من اختراع أحد غير قبطاننا نفسه ـ شرائط ورقية يمكن أن تمر في أنابيب وتذهب لتغذية مرجل أو نظام تدفئة مركزية: هذا لا يوفر الوقود فحسب بل يوفر الكثير من الفحم الحجري الثمين.

إن الطرائق والآلات الفعّالة والاقتصادية للتخلص من الأشخاص غير المريحين في هذا العالم معروفة منذ زمن بعيد طبعاً!

رحت أنظر إلى المواد التي تتكوم في العربات. صحيح أنني ما كنت قادراً على تمييز تفاصيلها من تلك المسافة لكنني اعتقدت أنها أوانٍ وأحذية قديمة، وزجاجات ودمى تشبه تلك التي طفت على وجه البحر عند الساحل الإيرلندي. وكان في العربات بالتأكيد حقائب يد وبطانيات قديمة أيضاً. أين هي تلك الأيام التي ما كان فقراؤها في أكواخهم البائسة حول مدننا يملكون فيها حتى حقيبة صغيرة يستطيعون القول إنها لهم ولا شيء يسترون به عريهم؟ هي وراءنا، وهي أمامنا!

اشتد النسيم من جديد، لكنه لم يحمل إلينا هذه المرة رائحة القمامة الواخزة وحدها بل حمل أيضاً نتفاً من أحاديث خشنة الصوت ومن صيحات طفولية محبورة. لو كان بروغل أو هيرونيموس بوش حيين الآن لجلسا هنا ورسما هذا المشهد. ولعلهما يضيفان إليه أيضاً بعض الأشخاص في أماكن متعددة على هذه الكتلة البلاستيكية، أو يزيدان ارتفاع الجبل حتى تبلغ قمته السماء. ولعلهما كانا يضيفان أيضاً، عند أسفل الجبل، منقِّباً سعيداً في القمامة، امرأة، مارغريتا المجنونة التي لا تشبع. لكن، ماذا يسميان اللوحة؟ «رقصة الموت»، أو على العكس «فردوس دنيوي»؟ «هرمجدون» أو مجرد «محرقة مجنونة»؟

صدمتني فكرة أن شاحنة برتقالية جديدة يمكن أن تصل في أي لحظة فتفرغ حملاً من العظام والجماجم. في تلك اللحظة نفسها كان هؤلاء الذين على قمة الجبل يسحبون فراشاً ريشياً قديماً. وبينما كانوا يحاولون تحريره من قبضة القمامة التي فوقه تمزَّق غلافه. جاءت نفحة ريح أشد من ذي قبل فاندفع الريش مرتفعاً في الهواء وارتفعت معه قصاصات ورق خفيفة وأكياس بلاستيكية وذرات رماد ناعمة راحت تدوِّم كلها في الهواء. كاد الراقصون تحت تلك الغمامة يختفون في العاصفة الثلجية، وأحسست بصقيع مفاجئ. نظرت قلقاً صوب السماء لأرى إن كانت تلك الغيمة الهائلة آتية من مكان ما، لكنني رأيت أن السماء ما زالت صافية نظيفة رغم أن البرد الصقيعي كان ينزل منها ويجعلني أرتعد.

يمكن أن يأخذ يوم القيامة أشكالاً مختلفة. ولعل أقل هذه الأشكال مأسوية، للوهلة الأولى، يكون حين يفنى الإنسان تحت انهيار جارف لأشياء لا فائدة لها وكلمات فارغة ونشاط مفرط. يصبح الإنسان بركاناً يمتص من غير انقطاع الحرارة من باطن الأرض إلى أن يرتعد ويدفن نفسه في لحظة خاطفة.

مضى الكناسون بملابسهم البرتقالية يكنسون الشوارع، يكنسونها صامتين من غير اهتمام في حين كان إخوانهم يضعون ما كنسوه ويكوِّمونه في العربات ثم يلقون به بعيداً. كانوا يجمعون تلك الأشياء عديمة الفائدة في أكوام لا تلبث أن تكبر، تمتد وتتفسخ، تنتفخ مثل الخميرة وترتفع صوب السماء وتغزو ما يحيط بها مثلما يفعل ورم سرطاني، مثلما تفعل المستوطنات البشرية، وهذا ما يجعل صعباً علينا أن نفرِّق بين ما لا يزال أشياء من حياتنا وما هو أشياء من موتنا.

إن كتل الأفكار المرمية هي الأكثر خطورة بين القمامة كلها، القمامة التي تغرقنا وتهددنا بأنفاس التحلل المنبعثة منها. إنها تندفع من حولنا وتنزلق هابطة منحدرات أرواحنا. والروح التي تلمسها تلك الأفكار تروح تذوي وسرعان ما لا يراها أحد حية من جديد.

أما من لا أرواح لهم فهم لا يختفون عن وجه الأرض أيضاً. تسير مواكبهم في العالم وتحاول، في لا وعيها، إعادة تشكيله على صورتهم ومثالهم. هم يملأون الشوارع والساحات والملاعب والمتاجر الكبرى. وعندما ينفجر هتافهم وقت تسجيل هدف الفوز أو من أجل أغنية أو ثورة ناجحة يبدو ذلك الزئير مستمراً إلى الأبد، لكن سرعان ما يأتي في أعقابه صمت الموت، صمت الخواء والنسيان.

هم يفرون من هذا الصمت باحثين عن شيء يخلِّصهم منه، عن تضحية يستطيعون تقديمها على مذبح أي شيطان يعبدون. ومن حين لآخر يطلقون النار عشوائياً، أو يزرعون قنبلة موقوتة، أو يحقنون مخدرات في عروقهم ويمارسون الحب، إنهم يفعلون أي شيء للاستمرار عبر الفترة القاتلة التي تسبق انفجار البركان، قبل أن تملأ حممه الفراغ. الفراغ الذي في داخلهم!

إن الصور التي يستخدمها كافكا غامضة غالباً، لكنها تبدو أيضاً كأنها تعرض على نحو مقصود كثرة من العناصر اليائسة اللامتجانسة. نقرأ قصّه

المنطقي على نحو صارم، قصّه الذي يوحي لنا غالباً بشيء يشبه مذكرة رسمية مضبوطة الصياغة. ثم نأتي فجأة إلى تفصيل أو إلى عبارة تبدو كأنها جاءت من عالم آخر، من حبكة أخرى، فنشعر بالحيرة. في قصته عن آلة الإعدام مثلاً، لماذا تبدو قفازات بعض السيدات كأنها تنتقل فجأة، من غير سبب ظاهر، من الرجل المحكوم إلى الجلاد، وبالعكس؟ ولماذا يحمل القاضي في «المحكمة» سجلّ الديون بدلاً من أوراق القضية؟ ولماذا يستقبل الموظف المسؤول في «القلعة» المسّاح «ك» في السرير؟ وما المعنى في إشادته الغريبة التي تمتدح العمل البيزوقراطي؟ يقودنا الكاتب عبر سافانا نجد فيها، فضلاً عن الظباء والأسود التي نتوقع وجودها، دبباً قطبية وحيوانات كنغر تحوم من حولنا كأن وجودها شيء عادي هنا.

لا بد أن كاتباً منطقياً دقيقاً، مثلما هو كافكا، يعني بهذه المفارقات شيئاً. لا بد أنه يقصد نوعاً من التواصل الخفي. ولابد أنه أراد أن يخلق أسطورته الخاصة به، أسطورته الخاصة عن العالم، رسالة ثوروية عظيمة لعلّه يحدسها وحده فلا يستطيع التعبير عنها تعبيراً واضحاً، لعله وحده من يشير إليها فيكون علينا نحن أن نفك لغزها ونعطيها شكلاً محدداً واضحاً.

لا أعرف عدد الناس الأذكياء الذين انساقوا إلى وهم حل هذا اللغز، لكنهم كثر! وأنا مقتنع بأن كاتباً يستحق هذا الاسم لا يمكن أن يتعمد إخفاء أي شيء، ولا يمكن أن يختلق أو يخترع أي رسائل ثوروية. بل هو لا يشغل نفسه بها أيضاً. إن لأكثر الكتّاب، مثل أكثر الناس، موضوعاً رئيسياً أو فكرة رئيسية: عذاباتهم التي تفرض نفسها على كل ما يفعلون أو يفكرون أو يكتبون.

لقد التمس كافكا، لشدة حيائه، سبيلاً إلى إيصال عذابه مع إخفائه في الوقت عينه. لكن العذاب كان شخصياً إلى درجة جعلت صاحبه غير قادر على الاكتفاء بالتعبير عنه بالصيغ الخفية أو بالاستعارة والمجاز وحدهما.

يجد نفسه مدفوعاً، مرة بعد مرة إلى اعترافات علنية بالتجارب التي لمست كينونته كما لو أنه يروي الحدث مرتين. يرسم في البداية صورته الرائعة: محاكمة غريبة سرية أو آلة إعدام أو محاولات يائسة يقوم بها مسّاح ليدخل إلى قلعة لا سبيل إلى دخولها، ثم يقوم كافكا بتجميع أجزاء تجارب وأحداث حقيقية. إنه يكتب كل شيء على صفحات شفافة من الورق أو الزجاج ثم يضع هذه الصفحات بعضها فوق بعض. ثمة أشياء تكمل أشياء أخرى، وأشياء تغطي أشياء أخرى فتخفيها، وأشياء تجد نفسها في ترافق مفاجئ مع غيرها، ترافق لا بد أنه كان يجد فيه نعمة الدهشة هو نفسه. لكن مهلاً، لم يعد يجد نفسه مستلقياً مستنزفاً عاجزاً إلى حد الموت في السرير مع عشيقته التي تقدم له قربها الحاني المخلّص، بل صار يجد نفسه، على هيئة مساح مرهق إرهاقاً قاتلاً، في السرير مع مسؤول القلعة الذي يقدم له رحمة بيروقراطية محرِّرة.

لم نذهب إلى سويسرا، بل لم نذهب حتى إلى كوتنا هورا مرة أخرى. انتهى المعرض ولم يعد لدينا إلا ذلك الاستوديو حيث لا يزال منظر نافذة القصر المقابل محجوباً بتمثال القديس ستيفان الشهيد. كنا نلتقي ونجلس إلى الطاولة المنخفضة، نشرب النبيذ ونتحدث في تلك الحالة المسحورة الغريبة النابعة من معرفتنا بأن كل شيء نفعله أو نقوله يكتسب معنى وأهمية جديدين لحظة يفارقنا في طريقه إلى من نحب. كنا في الماضي نتبادل الحب بتوق وعلى نحو لا يعرف شبعاً، على نحو بدا لي غير قابل للتغير رغم أن شيئاً من عدم الصبر كان يستولي عليها من وقت لآخر. لا بد لشيء أن يتغير. من المؤكد أننا لا نستطيع إنفاق عمرينا كلهما في انعدام الحركة هذا، في هذا التكرار اليائس للأفعال عينها. لا نريد أن ينتهي بنا الأمر مثل مهرِّجَيْن يسعدان في شيخوختهما إن سنحت لهما فرصة الظهور في سيرك للهواة. تسللت مرارة إلى حديثها. إنها حانقة إزاء الناس الذين لا يعرفون

كيف يعيشون، وهي تشن هجمات على فنانين يخونون رسالاتهم، وهي تلعن الرجال كلهم لأنهم غدّارون جبناء غير قادرين على متابعة أي شيء في حياتهم حتى يبلغ خواتيمه. وهي غاضبة من زوجتي أكثر الأحيان!

نحن مستلقيان جنباً إلى جنب. جاء المساء، غسق خريفي ممطر، وصار علينا أن يبتعد واحدنا عن الآخر كارهاً، أن ننهض ونفرّ إلى حيث لا راحة. أقبّلها وأعانقها مرة أخرى. تشد نفسها إليّ: ماذا لو بقينا هنا حتى الصباح؟ إنها تناكفني!، أظل صامتاً.

لكنها غير قادرة على فهم كيف أستطيع العيش مع تلك الإنسانة. لقد سمعت بعض الأشياء عنها وعما تفعله لمرضاها فأثار ذلك غثيانها.

لا أريد أن أختم يومنا بمشاجرة لكنني، رغم ذلك، أسألها عما سمعت وعن مصدر ما سمعته. لكنها ترفض إعطائي أي تفاصيل. لقد كلمت شخصاً يعرف زوجتي معرفة جيدة. فقال لها إن معالجة الناس على هذا النحو جريمة.

حاولت اكتشاف إن كان الأمر متعلقاً ببعض الأدوية التي تصفها زوجتي لمرضاها.

لا نزال مستلقيْين متجاورَيْن لكنها غاضبة الآن إلى حد جعلها لا تكاد تعرف أين هي. لماذا ذكرت الأدوية؟ هي لا تعرف عن الأدوية شيئاً! لعل طبيباً منحرفاً يمكن أن يعطي مرضاه أدوية منحرفة مثله، لكن هل أخبرتني زوجتي في أي مرة عما يضطر أولئك المساكين البائسين إليه من تمثيل مذلّ يثير الغضب؟ هل أخبرتني كيف تجبرهم على تقيؤ أخص أسرارهم، وكيف تفتش في أسرَّتهم؟ ألا أدرك حقاً أنها امرأة منحرفة؟ إنها غير قادرة على العيش من أجل نفسها، غير قادرة على الحب، على رعاية أسرة، على الاهتمام بزوجها، وهذا ما جعلها تتوجه إلى مهنة فعل الخير! هي

في الحقيقة لا تختلف عن غيرها من فاعلي الخير المحسنين لأنها تنتشي بمعاناة الآخرين ولأنها لا تفعل إلا التعلق بحياة من لا يزالون قادرين على أن تكون لهم مشاعر حقيقية تجعلهم يعانون. وهي تتظاهر بأنها تساعدهم مثلما تتظاهر علقة تمتص دماءهم. أم لعلني أظن أن امرأة لم تستطع طيلة عشرة سنوات أن تكتشف وجود امرأة في حياة زوجها، لم تستطع طيلة عشرة سنوات أن تفهم أن زوجها يعيش معها إشفاقاً عليها فحسب، تستطيع أن تكتشف أي شيء عن نفوس الآخرين؟

قلت لها إن الأمر ليس على هذا النحو أبداً، لكنها تروح تصيح في وجهي قائلة إن عليَّ ألا أدافع عنها. إنها لا تعرف ما الذي يجعلها مهتمة بما تفعله زوجتي رغم كل ما أفعله أنا من أجلها. إنها لا تريد أن تعرف إلا إن كنت حقاً قد بلغت درجة من العمى تجعلني لا أرى أن كل ما يفعله علماء النفس والمعالجون النفسيون ليس إلا شيئاً منحرفاً، تجعلني لا أرى غرور الأفراد البائسين المقعدين روحياً ممن يقولون لأنفسهم إنهم أفضل من بقية الناس.

صار في وسعنا أن نترك الحديث عن زوجتي الآن. لم تعد راغبة في إهدار أي ثانية أخرى من وقتها عليها. لكنها ترجوني أن أفكر في ما قالته لي، ولو من أجل أن ينفعني في الكتابة فقط. من المستبعد أن أستطيع إنتاج أي شيء إن بقيت إلى جانب إنسانة تكسب عيشها من تشريح نفوس الآخرين مثلما يفعلون بالفئران في المختبرات فيمزِّقونها ليستخرجوا أسرارها كلها ثم يدوسونها.

تداهمها نوبة من حمى فترتجف أمام عينيّ. وجهها الذي بدا لي لطيفاً محباً قبل لحظات صار الآن وجه شخص غريب، أخافني!

عليّ أن أسكتها، أن أخمد شعلة الكراهية فيها على نحو ما، أو أن أهرب من هذه الشعلة قبل أن تصيبني أنا أيضاً. لكن كيف أستطيع الهرب عندما

تضطرم هذه الشعلة بسببي أنا؟

أخيراً، أعانقها حتى أهدِّئها فتتكور بين ذراعي وتئن في بحرانها ويسقط كل شيء مبتعداً عنها وتعود الرقة إلى وجهها: «أتفهم على الأقل أنني أحبك وأنني أحبك أكثر من أي شيء في العالم وأنني أريد لك الخير؟».

«إن لم أفعل شيئاً فسوف نسقط كلانا في نار لا نستطيع منها فراراً».

تقول مصرَّة: «حبيبي، لم لا تدرك أن واحدنا مصنوع من أجل الآخر؟ قل لي، أأنت سعيد معي؟».

أقول لها إنني سعيد معها لكنني أرى في نفسي توتراً، توتراً لا يطاق يضغط على رئتيَّ فيكاد يجعلني عاجزاً عن التنفس.

أعود إلى بيتي عبر الشوارع الرطبة، بخطوات خفيفة سريعة كعادتي. أهرب دائماً، ممن، وإلى من؟ بيت فيه سرير غير مرتب وأرض غير مكنوسة، بيت أمضي فيه وقتاً قليلاً إلى حد جعل الغبار يتجمع حتى على مكتبي. بيتي يتهاوى مفككاً وأنا أتهاوى معه.

تدخل زوجتي. أشعر بأنني في فضاء مختلف، فضاء لا تضطرم فيه ألسنة اللهب الأكّالة.

ليست زوجتي مغرورة ولا هي مخدوعة بنفسها. وهي لا تتوق إلى الاستحواذ على أسرار الناس الآخرين. إن كان بها شيء فهو ثقتها الطفولية. لديها إيمان مفعم بالأمل في إمكانية وصول الأشياء والناس إلى الكمال. وفي إيمانها هذا قدر كبير من القوة المصممة قد يجعله قادراً على بث روح الشجاعة لدى من هم على حافة القنوط.

أسير إليها وأحتضنها. وفي تلك اللحظة يتلاشى توتري وأستطيع التنفس بحرية. تقول لي: «ما ألطف أن تكون في البيت! لقد كنت آمل هذا».

إن شرح طريقة الإزالة الاقتصادية الفعالة للقمامة البشرية من هذا العالم

على نحو عملي محكم وفق روح زماننا الثوروي ووفق أفكاره وأهدافه وارد في المذكرات التي كتبها الضابط هوس، آمر معسكر أوشفيتز:

«يجري أخذ اليهود الذين تقررت تصفيتهم إلى مكان المحرقة في أقصى هدوء ممكن. يكون الرجال في مجموعة والنساء في مجموعة أخرى، وعندما يخلعون ملابسهم يدخلون إلى غرفة الغاز المزودة بأنابيب مياه ورشاشات دوش للاستحمام بحيث يظنون أنهم يدخلون إلى حمام. تدخل النساء مع الأطفال أولاً، وبعدهم يدخل الرجال، يحدث من وقت لآخر أن تطلق النساء، أثناء خلع ملابسهن، صراخاً يجمد العظام ويشددن شعورهن ويتصرفن كمن مسَّهن شيطان. في تلك الحالة تجري قيادتهن إلى الخارج بهدوء ويقتلن برصاصة في مؤخرة الرأس.

تغلق الأبواب سريعاً، وعلى الفور يحقن الناس المكلَّفون بذلك مادة عبر فتحات في السقف. تهبط المادة إلى الأرض عبر أنابيب خاصة ويبدأ تشكل الغاز على الفور. ومن نافذة صغيرة في الباب يستطيع المرء أن يرى كيف يسقط الواقفون قرب الأنابيب ميتين فوراً».

كان هوس صانع ضحايا محترق الروح. وهذا ما جعله قابلاً للاستبدال. وقد استبدل مرات كثيرة بالفعل.

إن شخصية صانع الضحايا ذي الروح المحترقة تنتمي إلى هذا العالم في الحقبة الثوروية. إنها تنتمي إلى عالم يكتسب فيه الشخص الذي تجسِّد أفعاله تجسيداً كاملاً حالة الخواء والعبث والقسوة والعدم الأخلاقي الحق في اعتبار من يختلفون عنه قمامة لا بد من إزالتها، قمامة يقوم هو بتنظيف العالم منها. إنه مستعد لتنظيف العالم من أي إنسان: من الأرمن، ومن الكولاك، ومن الغجر، ومن أعداء الثورة، ومن المثقفين، ومن اليهود، ومن شعب الإيبو في بيافرا، ومن الكمبوديين، ومن القساوسة، ومن السود، ومن المجانين، ومن الهندوس، ومن مالكي المصانع، ومن المسلمين،

ومن الفقراء، ومن أسرى الحرب. وهم سوف ينظفون العالم من الناس جميعاً في يوم لعله لم يعد بعيداً! نهاية العالم، يوم تنظيف العالم كله من بني البشر ومن الحياة كلها، إنها تغدو على نحو متزايد مجرد مسألة تقنية.

يقدم هوس وصفاً واقعياً للنار التي ترتفع صوب السماء أربعاً وعشرين ساعة في اليوم فتحرق جثث ضحاياها. كانت النار شديدة الارتفاع شديدة الاضطرام إلى حد جعل آمر وحدة المدفعية المضادة للطائرات يقدم شكوى. كان الدخان شديد الكثافة وكانت الرائحة قوية إلى حد جعل الذعر يدب في قلوب سكان المناطق المجاورة. وقد أدت هذه الأسباب كلها، كما سجَّلَ لنا هوس، إلى الإسراع في تصميم المحارق وإنشائها. لقد بنوا محرقتين وزودوا كل واحدة منها بخمسة أفران عملاقة كانت قادرة، كلها، على إحراق ألفي «وحدة» مقتولة. لكن هذا ما كان كافياً فأقاموا محرقتين إضافيتين. لكن هذا ما كان كافياً أيضاً! لقد كتب هوس أن أكبر عدد أمكن إنجازه من الأشخاص المقتولين بالغاز والمحروقين في هذه المحارق في يوم واحد لم يبلغ عشرة آلاف.

هكذا كانوا يفعلون. وإذا نظرنا إلى الأمر من وجهة النظر التقنية وحدها نرى أنه كان بدائياً تماماً. لكن الروح البشرية ليست في حالة عطالة في هذا العصر الثوروي: إن اللهيب الذي يستطيع منظفو العالم استخدامه اليوم قادر على إحراق أي عدد من بني البشر في منازلهم في لحظة واحدة.

لكن شيئاً لم يختف من هذا العالم، ولن يختفي منه! أرواح من قتلوا، وأرواح من قُدِّموا ضحايا، وأرواح كل من أُحرقوا أحياء أو قُتلوا بالغاز أو جُمِّدوا حتى الموت أو قُتلوا بالرصاص أو ماتوا ضرباً بالعصي أو سُحقوا أو شُنقوا أو جُوّعوا حتى ماتوا، أرواح كل من جرت خيانتهم أو من انتُزعوا من أرحام أمهاتهم، هذه الأرواح كلها ترتفع فوق الأرض وفوق البحار وتملأ الفضاء بآهات أصحابها.

في البداية فاجأتني وأخافتني محاولتي إسقاط الخالق الأعظم من السماء إلى الأرض. لكنني لا أعتقد أن هذا ممكن. إن سماواتنا متصلة بأرضنا بعد كل حساب! كيف يستطيع غير القادر على الاتصال بمن يحبهم أن يتوقع اتصالاً بمن لا يحبهم؟ لقد أدرك كافكا هذا، وكان وقوفه إلى جانب المرأة التي أحب يعني له وقوفاً إلى جانب الناس، أن يصبح واحداً منهم، مشاركاً في نظامهم. لقد أدرك أيضاً ما يخبئه أكثرنا عن أنفسهم: إن الاقتراب من كيان آخر وقبول كيان آخر، فضلاً عن نظام آخر، يعني التخلي عن الحرية. يتوق الإنسان إلى الاقتراب ممن يحب. وهو، بفعله هذا، يخون ويؤذي ذلك الشخص ونفسه معاً، أي أنه يرتكب جريمة.

كان محامياً، لكنه لم يكتب إلا عن قضية واحدة. وقد أعَدَّ بنفسه أدلة اتهامه هو ثم دافع عن نفسه دفاعاً حاراً أصدر بعده حكماً بالإدانة من غير رحمة. لم يهجر فكرته الرئيسية أبداً لكنه تمكن من ملامسة قمم الحياة وقيعانها عبر عيشها على نحو صادق كامل من خلال نفسه.

من أسفل الجبل انطلق سرب آخر من الغربان محلِّقاً في السماء فصبغها بالسواد وجعل الهواء يردد صدى خفقات الأجنحة. تحلقت الطيور حول صائدي الكنوز الذين كانوا قد فرغوا من عملهم في ذلك الوقت. لكن أياً من المجموعتين لم تبد اهتماماً بالمجموعة الأخرى.

نظر أحد الرجال صوبنا وصاح بشيء لم أستطع تمييزه. وعلى الفور راح البقية يصيحون نحونا أيضاً. رأيت الخوف يتسلل إلى زوجتي: «بم يصيحون؟».

لم أستطع فهم كلامهم. لعلهم يعرضون بيعنا بعض الأشياء.

«هل تريد الصعود إليهم؟».

كانت مستعدة للصعود إليهم معي رغم خوفها منهم. لقد كانت تحاول،

في السنوات الأخيرة على الأقل، تبنّي رغباتي كلها، بل حتى أفكاري الغريبة أيضاً. لم تبد اعتراضاً على عملي كَنَّاس شوارع في سترة برتقالية منذ شهور كثيرة رغم أنها، بالتأكيد، كانت تتساءل من غير راحة إن كان ثمة دافع خفي كامن، أو رغبة في الفرار من البيت على الأقل، خلف اختياري العمل في هذه المهنة. لأفترض أنها تشك في قيامي بعمل مختلف عما صرحت به! إن لديها أسباباً كثيرة تحملها على عدم الثقة بي، لكنها لم تجرؤ على سؤالي عن الأمر سؤالاً مباشراً لا الآن ولا في الماضي. كانت تعتبر عدم الثقة شيئاً وضيعاً، شيئاً يلوث من يسمح له بالتسرّب إلى عقله.

أعرف أنني خنت ثقتها هذه مرات كثيرة في الماضي. أحسست شعوراً مخجلاً بالذنب وحاجة إلى تعويضها عن ذلك على نحو ما. وعلى سبيل البداية قلت لها إن يومنا كان جميلاً وإننا فعلنا حسناً بخروجنا إلى الريف. بدا في كلامي شيء من المفارقة لأننا كنا واقفَيْن عند سفح جبل القمامة!

وجدنا ابنتنا وحفيدتنا الصغيرة منتظرتين في المنزل عندما عدنا. وكان ابننا أيضاً باقياً لتناول العشاء معنا. إنه يبحث عن مسكن منذ فترة طويلة. وكانت لديه، كما هو شأنه دائماً، كثرة من الخطط التي وضعها بعناية آملاً أن تقوده إلى أهدافه. أما ابنتنا، كعهدها دائماً، فلم تكن تلقي إلى مستقبلها بالاً. تمر بها لحظات تشعر فيها أن كل شيء، كل شيء على الإطلاق، لا يزال أمامها. وفي أحيان أخرى تشعر أن كل شيء، كل شيء على الإطلاق، قد صار خلفها، وأن لا شيء لديها إلا أن تعيش أيامها، على نحو محتمل قدر ما تستطيع. أما في أكثر الأوقات فهي تمنح نفسها للحظة الراهنة من غير أن تحمل هماً. أرادت أن ترسمني بعد أن تناولنا طعام العشاء. اقتطعت أوراقاً ضخمة من ورق التغليف وثبتت واحدة منها إلى مجلد صلب وجعلتني أجلس على الكرسي زمناً طويلاً.

كانت قرقعة الأطباق آتية من المطبخ. وكان يأتيني أيضاً صوت مكتوم

من مسجلة ابني. وكنت أسمع عبر الجدار صوت حفيدتي تروي مسرورة أحداثاً خرقاء شاهدتها في تلفزيون الحمقى. سألت ابنتي إن كنت أستطيع أن أغمض عينيّ فوافقت مع تحذيري من أن هذا سيجعل وجهي يبدو مثل قناع موتى.

جاءت من الخارج رائحة البحر وصوت موجة تلعق الشاطئ الرملي.

«ابقَ هكذا مزيداً من الوقت!».

كانت أصابعها تتحرك سريعاً في الرمل. كم أحب هذه الأصابع الجميلة التي لمستني لمساً رقيقاً مرات كثيرة والتي تعرف أيضاً كيف تحول اللاشكل إلى شكل.

لست أدري إن كان هذا يشبهني فأنا لم أعرف أبداً كيف أبدو على وجه التحديد. لقد جعلت لي جسم حيوان وأجنحة بجعة، لكنني بدوت سعيداً.

قالت موضحة: «هذا لأنك سعيد! أم، لعلك لست سعيداً معي!».

«ألا تخشين أن يحملني الماء بعيداً في الليل؟».

«هذا ما جعلني أعطيك أجنحة حتى تستطيع الطيران بعيداً عن الماء. لديك أجنحة حتى تستطيع أن تكون حراً، حتى تستطيع الذهاب أنّى شئت». كانت تقصد القول: حتى أستطيع أن أذهب إليها في أي وقت. لكن الماء جاء فأذابني، مع أجنحتي. لم تحملني الأجنحة إليها، ولست أدري إن كانت ستحملني إليها يوماً.

أسمع صوت احتكاك الفحم بورقة الرسم. صار صوت المسجلة أكثر ارتفاعاً الآن لأن ابني ترك باب غرفته مفتوحاً. زرناه العام الماضي في تلك البلدة الريفية حيث كان يؤدي خدمته العسكرية. انطلقنا صبيحة السبت معتزمين قضاء الليل في فندق قبل العودة مساء الأحد. لكن صداعاً أصاب ليدا فسافرت راجعة وحدها وبقيت في الفندق وحدي. وفي صباح الأحد

ذهبت بالحافلة إلى الثكنة حيث كان ابننا ينتظرنا عند بوابتها. أظن أن شكله في ملابسه العسكرية أعجبني رغم أنني لا أحب الملابس العسكرية.

سألني أين أريد الذهاب، لكنني تركت القرار له فهو يعرف طريقه هنا أكثر مني.

وهكذا ذهب بي صعوداً في طريق يقال إن تسينو هليدك سار فيها ذات يوم. طريق تمتد محاذية جدار مقبرة انتصبت خلفه تماماً صنوبرات رشيقة. ثم هبطنا عبر درب زراعي. كان الجو بارداً قليلاً مع بعض الريح. ومن حول الأجمات على امتداد دربنا كانت الريح تتقاذف أوراقاً صغيرة تبدو مثل ندفات ثلج ملونة.

حدثني ابني عن تجاربه في الجيش، ثم قال خجلاً بعض الشيء إن صديقته زارته هنا أيضاً وعاد من فوره إلى الحديث عن شؤونه العسكرية. ما كان لدينا ما يحملنا على الاستعجال في أحاديثنا لأن أمامنا اليوم كله. لا أذكر متى أمضينا معاً نهاراً كاملاً من قبل، هذا إن كنت قد وجدت هذا الوقت الحر كله في أي يوم أصلاً! بدا لي كما لو أن ابني كان يظهر أمامي من الظلام على نحو مفاجئ، أو كأنه يعود من مكان شديد البعد. لقد أمضيت وقتاً مع أناس كثيرين من قبل، وأمضيت أياماً وأسابيع مع حبيبتي، أما ابني فما كان إلا شخصاً عابراً في المساء أو الصباح أو أثناء عشاءات يوم الأحد. صحيح أنه كان يجلس في الغرفة أحياناً، إلى جانب ضيوف آخرين، ويصغي صامتاً أو يقول لي بضع كلمات، عن الأحداث السياسية أو عن دروسه أكثر الأحيان، لكن ليس عما يقلقه أو عن آماله الشخصية. وكنت دائماً، كما لو أنها قاعدة، أجلس إلى مكتبي بعد وقت قصير فأجعله ينصرف. وقد دعاني عدة مرات لأن أصغي إلى أغاني احتجاج سجّلها على آلته وكان واثقاً من أنها تثير اهتمامي، لكنني كنت أرفض الاستماع أو يغزوني النعاس سريعاً عندما أستمع إليها.

كنت أعرف أنه تماهى مع قدري إلى حد جعله، رغم دراسته للهندسة، شديد المتابعة (أشد من متابعتي أنا في واقع الأمر) لهلاك الأدب، في قسمنا نحن من العالم على أقل تقدير. وقد فكر في خطط لجعل الأعمال الممنوعة معروفة لدى الجمهور. وكان يشعر بالسعادة عندما يرى مؤشراً على أي تحول إلى الأفضل مهما يكن ذلك التحوّل طفيفاً.

أسفت لأنني لم أعرف أبداً طيلة هذه المدة، طيلة سنوات كثيرة، أن أجد مزيداً من الوقت والاهتمام بما كان يصوغ حياة ابني. كنت أسأله الآن عن أصدقائه، وعن صديقته تلك، وعما يفكر فيه بشأن المستقبل. كان واضحاً لي أن اهتمامي أسعده، وخطر في بالي أنه قد يكون شاعراً بالوحدة قدر ما كنت أشعر بالوحدة عندما كنت في سنه.

قررت أن أدعوه إلى تناول وجبة خاصة لكننا، عندما وصلنا إلى الحانة، لم نجد لديهم إلا نوعاً رخيصاً من السلامي إضافة إلى الخبز والبصل. استطعت أن أطلب نبيذاً على الأقل! كان حديثنا يقفز من حدث لآخر، ظلت الأشياء الأكثر أهمية التي كنا نواصل حملها محبوسة داخل كل منا. يصعب التعبير عن المشاعر التي يحملها الأب والابن، كل للآخر. ما كان والدي يستطيع التعبير عنها أيضاً، لم نتكلم أبداً في أي شيء شديد الخصوصية، وأما ما كنا نتكلم فيه فكان لا يمنحه فرصة إظهار أي عاطفة على الإطلاق. أعرف أنه كان يكنّ اعتزازاً طفولياً بما كان يراه نجاحاً أدبياً لي. لكنه لم يعلّق أبداً على أي شيء كتبته إلا بقدر تعليقه على طريقة حياتي، لا أكثر!

كانت رحلة عودتي مقررة في المساء. وقد حزن بيتر لذهابي في وقت مبكر لأنه كان خارج الخدمة حتى منتصف الليل. سألته عما سيفعله في الوقت الباقي، فقال إنه سيذهب إلى السينما أو سيعود إلى الثكنة ليقرأ أو ليستمع إلى الإذاعة. أعطيته بعض المال لمصاريفه الشخصية، ثم صعدت إلى الحافلة لأن الطقس صار شديد البرودة.

ظل ابني واقفاً في الخارج منتظراً من غير حركة. لاحظت أن جذوع الأشجار الكبيرة كانت تنحني تحت وقع الريح الصقيعية، لكن ابني ما زال واقفاً منتظراً. كان رافعاً رأسه ينظر إلى النافذة الصغيرة التي يرى وجهي من خلالها. كان واقفاً هناك في ملابس عسكرية غريبة، مُلقىً في عالم غريب، وكان ينتظر انطلاق الحافلة مثلما ينتظر المؤمنون. وعندما تحركت ودارت حول الساحة جرى ابني إلى الجهة الأخرى حتى أستطيع رؤيته مرة أخيرة واقفاً على حافة النافورة الحجر قرب الطريق ملوحاً لي بيده.

عندها، صرت وحيداً! كانت الحافلة مندفعة في ظلام الغابة فأغمضت عينيّ. لكنني، حتى في هذه الظلمة المضاعفة، استطعت رؤية صورة ابني محفورة متميزة عن اللون الرمادي الحجري لبيوت غريبة، استطعت رؤيته واقفاً هناك، تفصله عني مادة كتيمة، لكنه يلوح لي! في تلك اللحظة أحسست بالكرب بسبب أفعالي، بسبب حياتي المزدوجة التي اختفى منها الوفاء ليحل محله التظاهر والخداع.

إن ابني بالغ الآن. ولن تصيبه آثار ضارة إذا تركت البيت. يظل الطفل طفل أبويه حتى إن افترقت دربهما. لكن، أليس معقولاً أن تسدد مغادرتي النهائية ضربة إلى مفهومه عن الإخلاص، إلى إيمانه بمشاعر الرفقة إزاء أقرب الناس وأعزهم إليه، إلى فكرته عن المنزل؟

قالت ابنتي: «تستطيع أن تتحرك الآن». كانت تلقي نظرة فاحصة على إنتاجها.

«هل هي مثل قناع الموت؟». أردت أن أعرف هذا.

قالت متذمرة وهي تمد يدها بالورقة صوبي: «على نحو ما، هذا ليس أنت أبداً».

«لست أدري! كيف لي أن أعرف شكلي عندما أكون مغمضاً عينيّ؟».

لكن ملامح وجهي في الصورة كانت تحمل قدراً كبيراً من الحياة مقارنة مع قناع الموت!

لم يعرف والدي مرضاً في حياته. ومنذ سنة واحدة بدأ وزنه يتراجع ولم يعد يستمتع بالطعام. وعند ذلك عثروا على ورم خبيث في أمعائه وقرروا إجراء عمل جراحي على الفور. أخذته إلى المستشفى في اليوم الذي يسبق الجراحة. بحثت عن الجراح وحاولت أن أشرح له أن العمر لم يؤثر أبداً على قدرات والدي العقلية رغم بلوغه الثمانين تقريباً وأن طلبته لا يزالون يقصدونه طالبين مساعدته عندما تعترضهم مسائل معقدة.

كان الجراح قصير القامة ممتلئ الجسم. وكان في ثوبه الأبيض يبدو أشبه بطباخ منه بعامل في ميدان الطب. أصغى إلى ما قلته متأدباً، لا بد أنه أصغى كثيراً إلى أحاديث مماثلة تحاول إقناعه، وقبل مني مغلفاً فيه نقود، ثم طمأنني إلى أنه سوف يفعل كل ما يستطيع، وقال إنني أستطيع رؤيته مجدداً في اليوم التالي عند وقت الغداء تقريباً.

رأت ليدا أن عليَّ البقاء في المستشفى أثناء الجراحة. سوف يشعر والدي بقربي منه وسوف يطمئنه ذلك، بل لعل بقائي يجعل الانتظار أكثر سهولة بالنسبة لي أيضاً.

قدت سيارتي إلى المستشفى منذ الصباح. وصلت في الوقت المناسب لرؤية والدي على السرير المتحرك منتظراً في الممر أمام غرفة العمليات. ومن تلك المسافة البعيدة بدا لي أنه ابتسم ورفع يده بحركة واهية لا تكاد تُلحظ حتى أعرف أنه رآني.

بعد ذلك جلست على مسافة صغيرة من مكتب الاستقبال في ممر خافت الضوء، حيث كان عمال المستشفى يدفعون فيه أسرّة متحركة من غير انقطاع وحيث كان مرضى جدد يمرون بي. كانت الحركة كثيرة هناك

فجعلتني لا أستطيع التركيز على والدي.

قيل لي بعد ساعة من ذلك إن الجراحة لم تبدأ بعد.

اتصلت بزوجتي في عملها لأخبرها أنني أنتظر في المستشفى. حاولت أن تُطمئنني قائلة إن عليَّ ألا أقلق لأن الجراحة ستنجح نظراً لحالة والدي الجيدة، ذكّرتني أنه نجا من مسيرة الموت نفسها قبيل انتهاء الحرب.

اتصلت بحبيبتي أيضاً لأسمع صوتها فقط، لأخبرها بمكاني، ولأقول لها إن الوقت لن يسمح لي بالذهاب لرؤيتها، على الأرجح.

بعد فترة قصيرة من ذلك الاتصال لمحتها تمر عبر مكتب الاستقبال بخطواتها السريعة. قبَّلتني. جلبت لي ملاكاً من خبز الزنجبيل صنعته على اسم القديس نيكولاس. وجلبت أيضاً غصناً صغيراً يحمل أزهاراً صفراء كستنائية انتزعته من مكان ما.

فرغت غرفة الانتظار بعد وقت الغداء وبقينا وحدنا جالسَيْن على مقعد. ضمت يدي بين يديها وقالت: «سيكون بخير. أستطيع أن أشعر بهذا. لم يحن وقته بعد».

ثم صمتنا! بدا لي أنني أرى ممراً أبيض أمامي. لم أستطع رؤية الممر إلى نهايته لكنني رأيت سريراً متحركاً فيه. كان أبي فوق ذلك السرير. كان فاقد الوعي شاحباً، يتحرك مبتعداً عني. بم يشعر الإنسان، بم يفكر الإنسان، عندما يكون راسخ الاعتقاد بأن لا حياة أخرى أمامه غير تلك التي توشك أن تتفلت منه الآن؟ ماذا يكون لديه من آمال في هذا العمر؟ استولت مخاوفه هو عليّ. نهضت وذهبت لأسألهم إن كانت الجراحة قد انتهت فقالوا إنها لم تنته بعد وإن عليَّ أن أصبر.

عدت إلى غرفة الانتظار. رأيت داريا على مسافة مني لكنها كانت تتحدث ولم ترني. كانت جالسة هناك كأنها استحالت حجراً، كأنها غادرت

جسدها نفسه. وعندما سرت صوبها رفعت رأسها أخيراً فأحسست بأنني أرى الألم في قسمات وجهها. قالت: «إنه بخير الآن. بدا الأمر شديد السوء، لكنه بخير الآن! أستطيع الإحساس بهذا!».

أمسكت بيدي وسارت بي في الممر صوب باب الخروج. كانت ندفات ثلج خريفي ضخمة تتساقط في الخارج لكنها لا تستقر على الأرض إلا برهة قصيرة قبل أن تذوب. مضينا إلى الحديقة الصغيرة خلف المستشفى وكانت تحدثني حديثاً رقيقاً. قالت لي إن الإنسان لا يمضي إلا جزءاً تافهاً من الوقت في هذه الحياة ضمن الشكل الذي نعرفه للإنسان. لكن الأمر المهم هو أن عليه أن يمضي هذا الجزء على نحو جيد وأن يقوم بتطوير إمكاناته إلى أقصاها لأن هذا هو ما يحدد طريقه في ما بعد. ما كنت قادراً على التركيز جيداً على ما تقول، لكنني استوعبت دفء صوتها وحضورها المحب المريح.

قلت لها مرات كثيرة من قبل إنني أحبها. لم أقل لها شيئاً الآن، لكن هذه اللحظة دخلتني واستقرت فيّ إلى الأبد: هذه الحديقة الموحلة، وحفنة من أشجار ببللها المطر، ودنوّها مني، وصوتها، ويدها الضاغطة على يدي. إن كان لنا أن نتباعد فلا يعود أحد منا قادراً على الوصول إلى الآخر، وإذا ضاع صوتانا في المسافات، فإنها الآن مغروسة عميقاً في نفسي، إذا أنّت ألماً أو خوفاً ذات يوم فسوف أسمعها أينما كنت في هذا العالم. وإن كنت حياً وقتها فسأذهب إليها لأرد لها هذا الضغط على يدي الآن، على الأقل.

عدنا إلى المستشفى. استقبلني الطبيب الجراح وقال إن الورم كان ضخماً مؤذياً، لكنه أزيل الآن. كان والدي نائماً!

لاحظت وجود الشاب فور دخولي الصالة. كان واقفاً تحت المنصة يتحدث إلى أحد الموسيقيين. وكان يرتدي بنطالاً من الجينز وكنزة نروجية الطراز. لعل الأمر كان بسبب الإضاءة، لكنه بدا لي أكثر شحوباً في

تلك اللحظة وأكثر هزالاً ومرضاً من المعتاد. عرَّفته على ليدا. قالت إنها مسرورة برؤيته فقد حدثتها عنه كثيراً من قبل. كانت في شوق إلى حضور هذا الحفل الموسيقي، وكان لطفاً منه أن يفكر في دعوتنا.

احمرّ وجهه على نحو مفاجئ وأسرع يعدد أسماء المؤلفين والمقطوعات الموسيقية التي سوف نسمعها. ذكر لنا أيضاً اسميّ عازف الكلارينيت وعازف الطبول. ثم ذهبنا نبحث عن مقاعدنا.

سألتني زوجتي عندما جلسنا: «أليس هذا الشاب شديد المرض؟»

قلت لها ما أعرفه عن مرضه. وقلت لها أيضاً إن من المحتمل وجود دواء يستطيع شفاء مرضه، خارج البلاد. لكن هذا الدواء باهظ الثمن إلى حد يجعل وصفه لعلاجه مستحيلاً.

سألتني وقد دُهشت: «ألم تستطع تأمين الدواء له؟».

بدأت الموسيقى. أنا مستمع سيئ لا أستطيع التركيز حتى على الكلام، ناهيك عن الموسيقى! أما ليدا فهي تستجيب إلى الأنغام بكيانها كله. كنت أستطيع أن أرى الموسيقى تتخللها وتثير فيها دهشة مبتهجة، تحملها بعيداً عن هذه الصالة.

وأنا أيضاً، كنت قادراً، على الأقل، على سماع أصداء إيقاعات بدائية وعلى رؤية لمحات من انعكاسات نار تتلوى من حولها أجساد راقصين قَبَليين نصف عراة، من الرجال والنساء.

عندما رأى المبشرون الذاهبون إلى أفريقيا أولئك البرابرة أول مرة، بأقنعتهم وأصبغتهم، يرقصون حول نارهم، ظنوا أنهم يرون فيهم لمحات من شيء يشبه قبائل الجحيم. أما في الحقيقة فقد كانوا يرون آخر بقايا الفردوس على هذه الأرض. لعل أرواحاً شريرة كانت تعذب هؤلاء الراقصين، ولعل الجوع كان يعذبهم، أو القحط، لكنهم لم يكونوا مثقلين

بعبء أي خطيئة ماضية أو أي حساب في المستقبل، لم تكن صورة يوم القيامة منتصبة أمام أعينهم. كانوا لا يزالون في طفولة الجنس البشري.

لم تطأ قدماي أرض القارة السمراء من قبل. لكنني ركبت سفينة سياحية في نهر الميسيسيبي عندما ظفرت ببعض الوقت الفائض في سان لويس حيث كنت مدعواً إلى افتتاح عرض مسرحية من مسرحياتي. كانت فرقة من السود تعزف في تلك السفينة. كان حشد ملون يحتفل بشيء ما، لعله كان عرساً، أو ولادة، أو احتفالاً بيوم أحد القديسين أو بواقعة انطلاق مركبة فضائية في طريقها إلى القمر الذي كان أسلافهم غير البعيدين يُجلّونه ويعتبرونه مقدّساً. لكنني أحسست بقرب شديد إليهم، أحسست بأنني واقع تحت تأثير موسيقاهم. كنت أنزلق إلى عصر آخر، أكثر راحة للبال وأقل معرفة!

استمر هذا الإحساس حتى إلى اليوم التالي حين جلسنا نشاهد التلفزيون في المساء في بيت منتج المسرحية الذي كان من براغ في الأصل، مثلي، فرأيت تلك الشخوص الغريبة الضخمة تثب في براري القمر بخطوات خفيفة يصاحبها تهليل جذل نسمعه من الشارع. فكرت عند ذلك في أن الإنسان قد أفلح حقاً في الاقتراب من السماء، قد أفلح حقاً في ما كان يتوق إليه دائماً، في ما وعدني أبي بأن يحدث. بدا لي أن البشر يدخلون زمناً جديداً ملئه الوعد والأمل!

جاء الشاب إلينا أثناء الاستراحة. وبما أن زوجتي كانت أعلم مني بالموسيقى فقد تركتهما يتحدثان وذهبت إلى البار لأجلب شراباً لنا.

عندما عدت قبيل نهاية الاستراحة كان الشاب موشكاً على الذهاب ليعود إلى مقعده عند المنصة. أمسكت زوجتي بكأس العصير وأخذت رشفة منه. وقبل أن تبدأ الموسيقى من جديد، أخبرتني بما عرفته عن حياة هذا الشاب. لا حاجة للقول إنها عرفت عنه في هذه الدقائق القليلة أكثر

مما عرفته أنا في أسابيع كثيرة! الظاهر أن أباه هجر أمه قبل ولادته. وبما أن الأم كانت غريبة الأطوار بعض الشيء فقد ترعرع في ملاجئ الأطفال. أمه متوفاة الآن وليس له أقارب إلا أخ غير شقيق لا ينسجم معه. قالت إنه شاب حساس لكن نموه غير مكتمل تماماً بسبب ظروف حياته ولأنه لم يجد في حياته حتى الآن رجلاً يتمنى أن يصبح مثله. عليَّ أن أتذكر هذا فلعله يتعلّق بي!

لم أر سبباً يمكن أن يجعل هذا الشاب يتعلّق بي أنا من دون جميع الناس، لكنني وعدتها بالانتباه إلى هذا الأمر.

أعلن مقدم الحفل عن المقطوعة التالية وكانت مجموعة من ألحان غيرشوين. بدأ الموسيقيون العزف، وعند نقطة معينة استغل عازف الكلارينيت لحظة توقف قصيرة فأشار بآلته صوب الجمهور مومئاً إلى أحد ما. وفي اللحظة التالية رأينا صديقنا الشاب يقفز إلى الحلبة ويأخذ الكلارينيت.

قالت ليدا دهشة: «لا بد أنه هو!»، لم تكن تبصر جيداً على هذه المسافة فضلاً عن ضعف تذكرها وجوه الأشخاص.

من آلته الموسيقية المستعارة، أطلق الشاب سلسلة النغمات الافتتاحية للجزء الأول من مقطوعة «رابسودي إن بلو». رأيت وجهه الصلصالي محمراً بفعل الجهد أو الاستثارة.

كان الشتاء قارس البرد في تلك السنة. ظلت السماء زرقاء باردة طيلة الوقت. وكان الثلج المتجمد على الأرض يتكسر تحت الأقدام. أما الهواء فكان لاذعاً مؤلماً يجعل المرء يتمنى لو أنه سمكة. أذهب الآن لرؤية أبي كل يوم تقريباً. كان يتعافى سريعاً. عاد إلى العمل على حساباته. إياك أن تظن أنني انتهيت! هكذا قال لي ذات مرة وانغمس من

جديد في عالم الأعداد حيث يشعر بالراحة أكثر من أي مكان آخر. لقد كف عن تصميم المحركات الجديدة بعد أن توصل إلى أن في العالم محركات كثيرة جداً. إنه يبحث الآن عن حل جديد، عن آلات أفضل من أجل ذلك العالم الأفضل الذي لعله كان يراه بعين عقله. كان في بعض الأوقات يضع معطفه المؤطر بالفرو على كتفيه ويخرج للمشي معي في الشارع الصقيعي البشع. ما زال أبي مهتماً بمصير العالم. وقد كان يسرّ لي بمخاوفه وخيبات أمله. أسفت معه على أن الاشتراكية لم تجلب الحرية للناس وعلى أن التقنية لم تنر ظلماتهم بل صارت تهددهم بخطر الفناء أيضاً. وقفنا عند محل بيع الألبان. وهنا صار أبي أكثر دفئاً ونشاطاً لأن الفتاة الجميلة خلف منصة البيع ابتسمت له ابتسامة عذبة وسألته عن حاله وطمأنته إلى أن مظهره يبدو رائعاً. ما زال أبي مقتنعاً بأن النساء مخلوقات طيبة، عطوفة، تستحق الاهتمام والحب. مضى يثرثر مع تلك الفتاة؛ أما أنا فكنت أستعجل الذهاب إلى مخلوقتي الطيبة!

كنا في ذلك الوقت قد تركنا استوديو العلية المطل على القصر المقابل. كنا نلتقي في محترفها الذي أقامته في قبو بيتها، هناك حيث رأيتها أول مرة منذ زمن بعيد، بعيد. ومن النافذة كان يأتينا وقع لا ينقطع لخطوات أشخاص غرباء يمرون في الشارع. وكانت تأتينا من الزوايا رائحة رطوبة وعفونة خفيفة. كان سخان ماء ضخم منتصباً على أرض القبو الحجري. يصغرني هذا السخان عمراً سبع سنوات فقط، لكنه يماثلني عناداً لأنه يعمل أحياناً ويمتنع عن العمل طيلة الليل أحياناً أخرى لسبب لا سبيل إلى اكتشافه. من حسن حظنا أن تلك الجدران السميكة العائدة إلى القرون الوسطى تمنع المكان من التجمد تجمداً تاماً.

إنها تكتب لي! لم تكن قد خلعت معطفها بعد، لكن شفتيها كانتا حارَّتين. عادت لتضغط بجسدها على غلاف السخان المعدني الفاتر. أما

أنا فأسرعت بإعداد الشاي بينما راحت تقص عليَّ أخبارها. عندما أصغي إليها أحس بأن كل ما انتظرت حدوثه عبثاً يسكنها ويتجمع فيها، أحس بأن كل مقابلاتها مع الناس تحمل معنى خاصاً سامياً، تحمل شيئاً أساسياً، وتطلب منها أن تفتح، جزئياً على الأقل، نافذة إلى فضاءات لا حد لها في الحياة الداخلية للآخرين.

أرى أثناء كلامها غيمة صغيرة تصنعها أنفاسها أمام وجهها. الغرفة شبه مظلمة، وهذا ما يموِّه حتى تلك الخطوط الصغيرة على وجهها، خطوط ما كنت قادراً على رؤيتها، على الأرجح، بسبب مدّ النظر. بدت لي جميلة على نحو بالغ الروحانية والرقة. أعرف أنني ما زلت أحبها وأظن أنها تحبني أيضاً لأنها ترتضي البقاء معي في هذا القبو البارد غير المضياف.

لاحظت نظراتي فضغطت عليَّ بجسدها وانزلقنا معاً في السرير البارد. لكن جسدها دافئ، يتعلق كل منا بالآخر وتحجب الإثارة العالم الخارجي كله عنا. ليس مكاننا مهماً في هذه اللحظة فنحن في حمى حبنا، ونحن نعرف أن ليس في هذا العالم قصر نقبل أن نبادل وحدته بمكان وجودنا المشترك هنا.

يشبُّ جسدها الصغير قبالة جسدي، تهزها رعشات السعادة وتغدو عيناها رطبتين. ترجوني مخلصة ألا أذهب، ألا أتركها، وتريدني مرة بعد مرة. هي لا تعرف تعقلاً في حبها مثلما لا تعرف تعقلاً في عملها أو في أي شيء تفعله. تجرفني معها كأنها إعصار وتثير فيّ قوة ما كنت أظن أنني أملكها. تدور الدنيا من حولي، إنني في نشوة مطلقة، إنني على الأرض من أجل هذه اللحظة وحدها، من أجل هذا الفعل وحده.

لكن، حتى في هذه الحال، لا بد من مجيء لحظة إنهاكنا، لحظة دخول الصقيع المتسرب من الأرض والجدران بيننا، لحظة وصوله إلى عينيها. أعرف أنها تسأل نفسها عن طول الزمن الذي أنوي فيه مواصلة ممارسة

الحب معها من غير إعطائها أي أمل ومن غير العثور على حل يخرجها من وحدتها الباردة. لكنها لا تسألني إلا عما اعتزم فعله الليلة!

أقول لها إنني سأعمل رغم معرفتي أن إجابتي لن تبدو مرضية لها إن لم أقرر البقاء معها. أسألها عما تعتزم هي فعله.

ما الذي يجعلني أهتم بهذا؟ لن أبقى معها آخر الأمر لأن لي زوجة تنتظرني في البيت، عليَّ أن أكون معها وأن أمثِّل دور الزوجِ الوفي المحب، أن أخلق جواً في البيت! نعم، طبعاً، عليَّ أن أعمل أيضاً وأن أجني نقوداً حتى أستطيع إبقاء السيدة، زوجتي، في حالة لائقة! وعلي أيضاً ألا أنسى شراء شيء من أجل العشاء حتى لا تضطر زوجتي إلى الخروج. وعلي أن أجلب لها هدية صغيرة حتى تعرف مقدار روعة الزوج النموذجي الذي عندها! لا تريد أن تعرف الآن إلا السبب الذي جعلها تسقط معي في هذه الفوضى اللزجة الدبقة القذرة التي نعيشها! إنها تلعن اللحظة التي تقاطعت فيها طريقانا. لمَ لا أقول شيئاً؟ لماذا لا أتحدث مدافعاً عن نفسي، على الأقل؟

تناولت قميصي البارد فزعقت قائلة إن عليَّ أن أسرع، أن أعود بأسرع ما أستطيع إلى بقرتي المقدسة التي دمرت حياتها. وسوف تواصل هي محاولة إنقاذ نفسها لإخراجها من الحفرة التي جررتها إليها!

خيم الظلام في الخارج، وابتلعنا شدقاها الصقيعيان على الفور. استحال الثلج رمادياً وراح يتهشم تحت أقدامنا. وصلنا إلى محطة المترو فسألتني: «متى أراك؟».

وكما هي العادة دائماً، كان الأمل يطل علينا من تمثالها الحجري بابتسامته اللطيفة، بل الدافئة، دائماً.

عليّ أن آخذ أبي إلى الطبيب غداً. ماذا عن بعد غد؟

تمسك يدي الاثنتين معاً: «ألن أراك حقاً طيلة يوم غد؟».

انتهى الشاب من العزف وأعاد الكلارينيت إلى صاحبها. صفق أحد الحضور، وصفقت زوجتي أيضاً. انحنى الشاب بحركة خرقاء. وعندما قفز عن المنصة كان وجهه قد عاد إلى لونه المعتاد.

انتهت الأمسية الموسيقية. وكان الناس من حولنا يتدافعون صوب باب الخروج. صار الجو بارداً في الخارج، وتعلق البدر مكتملاً في سماء صافية.

في تلك اللحظة قال رائد الفضاء آلدرين مخاطباً إيانا، نحن من بقينا على الأرض:

«أود اغتنام هذه الفرصة لأطلب من كل من يسمعني، كائناً من كان وحيثما كان، أن يتوقف لحظة ليتأمل في أحداث الساعات القليلة الماضية ويقدم شكره بطريقته».

أخبرني منتج المسرحية في سان لويس، على نحو عرَضي، أنهم حكموا عليه بالإعدام منذ ثمانية عشرة عاماً، بعد فراره، بسبب جرائم سياسية ملفقة. أما الآن فهم راغبون في إعادة الاعتبار إليه! وعندما هممنا بالمضي إلى النوم في الثالثة صباحاً بعد ذلك اليوم الذي لا يُنسى، قال لي: «يا للحسرة! إنهم لا يستطيعون حتى أن يروا هذا على نحو ملائم في بلادنا فهم في العمل الآن». قال هذا مشيراً إلى ساعته. أدهشني أن تلك الساعة، بعد تلك السنين كلها، لا تزال تشير إلى توقيت أوروبا الوسطى!

قالت زوجتي، دليلي في الأماكن المشمسة والمظلمة: «كان يومنا لطيفاً». ضغطت بجسدها على جسدي لأنها كانت ترتجف برداً فأحسست بالراحة والأمان لقربها.

القسم الرابـع

مضى شطر من الخريف. وامتلأت الشوارع بأوراق الأشجار الجافة التي تزيد عبء عملنا. تتدلى من شبابيك البيوت رايات متعبة لا حماسة فيها، وتعرض المباني الحكومية لافتات تحمل شعارات بلغة الحمقى لا ريب في أنها قادرة على بعث السرور في نفس أي شامبانزي يراها. من حسن حظنا أننا غير مضطرين إلى إزالة أي شيء من هذه القمامة القماشية الملونة: يجري وضع الرايات واللافتات ونزعها من قبل وحدات خاصة تستخدم السيارات.

وعلى مسافة قصيرة قبل قصر الثقافة المزيَّن بالأعلام قابلنا الشرطيين اللذين صارا مألوفين عندنا. بدا البدين منهما متعباً بعض الشيء، ولعله جاء إلى عمله بعد ليلة ثقيلة. أما زميله فلم يظهر عليه أي تغيّر.

قال البدين لنا مشيراً برأسه على نحو غامض: «فوضى مزعجة، أليس كذلك؟».

قال رئيسنا موافقاً: «الناس خنازير!». ثم تذكّر فقال: «ماذا عن ذلك القاتل؟».

قال البدين من غير اهتمام خاص: «تم ضبطه وإحضاره وتسليمه. قام الشباب بعملهم جيداً».

قال زميله موضحاً: «اسمه جورج».

سأل رئيسنا بفضول: «جورج ماذا؟».

تثاءب البدين: «هل تصدق هذا؟ لقد كان شاباً صغيراً! قدم نفسه باسم جورج إلى فتاة أراد أن يخنقها وقال إنه من كلاندو. لكنه ارتكب غلطة فاستطاعت الفتاة الفرار».

«وهكذا، طارد زملاؤنا كل من اسمه جورج بين العمال المتمرنين في المنجم رغم معرفتهم أن الأمر يمكن أن يكون خدعة».

بدا زميلنا الشاب مسروراً: «هذا صحيح! فهل كانت خدعة حقاً؟».

«لم تكن خدعة طبعاً! كان الرجل بسيطاً. هل تعرفون عدد النساء اللواتي اغتصبهن؟». التفت إلى زميله مشجعاً: «هيا، أخبرهم أنت».

«ست عشرة امرأة».

«وقد تعرفن عليه جميعاً على نحو قاطع».

قال رئيسنا معبراً عن دهشته: «وهل كان عامل منجم متمرِّناً؟».

«قلت لك إنه كان شخصاً بسيطاً. يرتكب أمثاله جريمة فيندفعون في ارتكاب جرائم أخرى بعدها. لم تعد الأمور كلم تكن. صار العمل في المنجم مهنة محترمة!». قال هذا ثم تثاءب فاتحاً فمه على اتساعه قبل أن يستدير نحو القبطان قائلاً: «أما زلت مرتدياً بنطالك القصير؟».

قال القبطان: «لن أغيره حتى أموت». ربما لم أسمعه جيداً، لكنه قال أيضاً: «وفر جهودك».

لم يكلف البدين نفسه عناء الضحك. أومأ لرفيقه ثم تابعا سيرهما.

وضعت السيدة فينوس مجرفتها بين يديَّ وأمسكت بالعربة. وبيدها الحرة أخرجت سيجارة على الفور ثم أشعلتها. كانت الدموع في عينيها. وعندما كنا نفرغ القمامة في العربة سألتها إن كان قد حدث لها شيء.

نظرت إليّ كأنها تريد أن تعرف ما هو كامن خلف سؤالي وقالت: «حدث لي؟ لماذا يحدث لي أي شيء؟ لم يحدث إلا أن مات العجوز!».

مرت لحظات قبل أن أعرف قصدها: «الرجل الذي في ممرّك؟».

«نعم! لقد بلغ الثمانين، فمات!» أطفأت سيجارتها في سلة القمامة على العربة ثم أشعلت واحدة أخرى. وحتى نخرجِ من حديث الموت هذا أشارت إلى القصر: «يقولون إنهم وجدوا غجرياً مدفوناً في الإسمنت هناك!».

قال رئيسنا غاضباً: «أعرف هذا! يعمل صديقي في المرأب هناك. لقد جاؤوا في الشهر الماضي بآلات حفر تعمل بالهواء المضغوط وراحوا يحطمون الجدار. هل تعرفون عمن كانوا يبحثون؟ إنها المغنية في المسرح الوطني، تلك التي اختفت قبل ثماني سنوات!».

سألته: «وهل وجدوها؟».

«لم يجدوا شيئاً. لقد تعطلت حفاراتهم كلها!».

«هذه وحشية!». أعطى القبطان القصر الصفة اللائقة به، «يستطيعون دفع مليون شخص داخل هذا البناء، ثم يشغلون الإشعاع فيحولونهم إلى مليون رأس غنم». بصق بصقة شديدة لهذه الفكرة ثم أضاف متنبئاً: «سوف يضرم فيه أحد النار ذات يوم، وفقه الله!».

في تلك اللحظة ساورني شك في وجهة أحلامه الأخيرة.

ذهبت زوجتي إلى الجبال من أجل التزلج على الثلج في عطلة تمتد أسبوعاً ورافقتها ابنتنا وحفيدتنا لكنني لم أرغب في ترك أبي هذه المدة

كلها فبقيت في المنزل. لم أخرج إلى الريف مع حبيبتي إلا يوماً واحداً. أخذتني إلى صخور رملية حفر عليها نحات مجهول عبر عشرةات السنين تماثيل قديسين وفرسان وملوك تشيكيين إضافة إلى أسد ينتصب جسيماً فوق جرف صخري. تسلقنا دروباً جليدية ضيقة وهبطنا درجات شديدة الانحدار. اكتشفنا تماثيل جديدة نصف خبيئة خلف جذوع الأشجار وأجمات العنب البري. أدركت أنها تأثرت، ودهشت أيضاً، بتلك الإرادة الصلبة لشخص مجهول ما كان يعبأ بوجود جمهور له، أو لعله، على العكس، كان شديد الثقة في أعماله إلى حد جعله يجسِّد رؤاه فوق تلك الصخور المنعزلة.

تساءلت إن كانت قد خطرت لها فكرة خلق معرض مماثل لنفسها!

قالت إنها تفضِّل الحدائق والمنتزهات والبحر والأماكن الفسيحة المفتوحة. وقالت إنها تفضل الناس العاديين على القديسين.

ومن عساها تعتبرهم أناساً عاديين؟

الآخرين كلهم! لقد اخترع القداسة والقديسين أناس يخافون الحياة والعواطف الحقيقية. وهذا ما جعلهم يضفون سمواً وتعالياً على أشياء صار إجلالها لزاماً علينا، أشياء علينا اعتبارها نموذجاً.

وإذا أُعطيت الفسحة التي تريد، حديقة على شاطئ البحر، فبماذا تزينها؟

فاجأها سؤالي! لم تفكر في هذا الأمر. لكنها، بالتأكيد، لن تزينها بشيء يعطي الإنسان إحساساً بفقره ونقصه وخطيئته.

وجدنا غرفة لقضاء الليل في فندق صغير بُني قبل الحرب. كانت نوافذه الطويلة تبلغ الأرض تقريباً.

قالت إن ثمة شيئاً مقدساً طبعاً في كل إنسان. لم تكن في تلك النشوة

المخطط لها، في تلك اللمحة الباروكية، لكنها كانت تفكر في شيء لا سبيل إلى لمسه أو تصويره، في روح الإنسان. قد يستطيع المرء التقاط لمحة من روحه في لحظات إشراقية، وقد يستطيع رؤية وجهه كما لا يستطيع غيره أن يراه. إن أعطيتْ حديقة فسوف تملأها بأشكال قد تجعل الآتين لرؤيتها يرون أنفسهم، على نحو ما يرونها في لحظات إشراقهم.

وكيف ستكون تلك الأشكال؟

الأشكال الأكثر طبيعية، كما في قصيدة بريفير:

وقد يحدث للكنَّاس
عندما يجول بمكنسته الوسخة
هنا وهناك من غير أمل
بين الآثار المغبرة
في معرض استعماري مهمل
قد يحدث أن يقف مشدوهاً
أمام تمثال رائع
مصنوع من أوراق وأزهار جافة
يمثل أحلاماً نصدقها
وجرائم واحتفالاتٍ وبرقاً
وضحكاً وحنيناً أيضاً،
أشجاراً وعصافير
وكذلك قمراً وحباً وشمساً وموتاً...

أمضينا وقتاً طويلاً في البحث عن مأوى من أجل الليل. كانت الفنادق مغلقة، أو ممتلئة، أو مشغولة بأطفال من «مدارس الطبيعة». وفي النهاية

وجدنا نزلاً وافق على إيوائنا مقابل رشوة.

حاولت معانقتها عند دخولنا الغرفة الباردة سيئة الإضاءة، كما أفعل دائماً عندما نجد أنفسنا وحيدين، لكنها أوقفتني! لم تسمح لي حتى بوضع حقائبنا في الخزانة إلا بعد أن نظرت فيها بنفسها. بعد ذلك سحبت الستائر التي حال لونها وفتحت النافذة قليلاً ثم جلست على كرسي أصدر صريراً من تحتها رغم خفة وزنها. سألتني: «ألا تشعر بشيء غريب هنا؟»، ما كنت أشعر بشيء غير التعب!

غدت أكثر اضطراباً من قبل. أدركت أنها تصغي إلى شيء ما، أنها تركز على شيء من الواضح أنه كان خبيثاً بالنسبة لي. جلستُ على الكرسي الآخر. جاءت أصوات غريبة من النافذة المفتوحة. كان أحدهم يشغل دراجة آلية، وكان كلب يعوّل في البعيد. تحركت بقعة صامتة حادة الحواف من الضوء على الجدار، أدركت أن القنوط قد أصابني.

نهضت أخيراً. عانقتني وقبلتني قبلة سريعة. ثم سألتني إن كنت أمانع في الذهاب من هذا المكان.

لم أر أن من الحكمة مغادرة هذا المأوى فقد كنت أعرف أننا لن نجد غيره في هذه المنطقة.

قالت إننا نستطيع الجلوس في السيارة إن ساء الأمر إلى هذا الحد. وسيكون هذا أفضل من هذا المكان التعس.

رفعت كتفي وحملت الحقائب من جديد.

وفي السيارة، التصقت بي ورجتني ألا أغضب فمن المؤكد أنني أعرف أنها لم تفعل شيئاً مثل هذا من قبل، لكن في تلك الغرفة شيء شرير، شيء غير نظيف! لا بد أن أحداً مات مذعوراً فيها من غير أن يصل إلى سلامه الداخلي، أو لعله كان يعاني عذاباً عظيماً من نوع آخر.

قلت لها إنها تصرفت على نحو سليم فأنا لا أقبل أن تكون معي في مكان لا يسعدها.

أشفقوا علينا قبيل منتصف الليل تماماً في فندق لأحد نوادي تسلق الجبال. كان المهجع كبيراً يتسع لعشرة أشخاص، لكننا كنا فيه وحدنا. كانت الجدران مغطاة بصور ملونة لقمم جبلية. وكان في النافذة جبل حقيقي ينتصب ناهضاً صوب السماء. اخترنا سريراً عند النافذة تماماً. صرنا قادرين على العناق أخيراً.

انفجرت باكية على نحو مفاجئ!

كنت معتاداً على نوبات بكائها المفاجئة، لكنني كنت أتساءل كل مرة، كما لو أنها أول مرة، إن كنت أحسن الاستجابة لهذا البكاء.

قبلتني من بين دموعها. لا، لست أنا المخطئ هذه المرة، بل على العكس تماماً، كانت شاكرة لأنني أظهرت هذا القدر من التفهم ووافقت على عدم البقاء في تلك الغرفة المخيفة. لقد مسّها الموت هناك وما زالت غير قادرة على نفضه عنها. أعرف طبعاً أنها غير خائفة من الموت وأنها ليست شديدة التعلق بالحياة، بل لم تكن كذلك أبداً. لكنها أدركت فجأة أن الموت سوف يفرِّق بيننا.

حاولت أن تبتسم. صحيح أن عرافةً أخبرتها أنها ستعيش حتى السابعة والثمانين، وصحيح أن خط الحياة على راحة كفيَّ طويل، لكن الموت سيحدث ذات يوم ولن يرى أحدنا الآخر بعد ذلك بصرف النظر عن المكان الذي تذهب إليه أرواحنا بعد الموت، أو عن المصير الذي ستلاقيه. عانقتها كأنني أحاول حملها بين ذراعيَّ فوق نهر النسيان الذي سيفرق بيننا، لا محالة.

همست: «أنا بخير الآن. أنا بخير معك، أشعر بأنني بخير معك هنا».

وأضافت أنها تشعر بالقوة والهدوء يشعان مني وأنني بدأت أنفتح أخيراً وأصغي إلى صوتي الخاص لا إلى الأصوات التي من حولي فحسب.

همست وهي تستسلم للنوم: «أنت لي بصرف النظر عن كل شيء. لن تكون هنا، معي، لو لم تكن لي».

لم أقل لها شيئاً ولم أطمئنها رغم أني أردت أن أكون معها ذلك المساء، أن أبقى معها، أن أحميها من المياه الجليدية التي أفلحت في سماع هديرها بنفسي في لحظة صمت كامل. حدقت عبر النافذة في كتلة الجبل السوداء ورحت أنظر إلى ندفات الثلج يسوقها الهواء تحت ضوء مصباح وحيد في الشارع.

خطر لي أنها قد ساعدتني حقاً في الخروج من حالة عدم الإصغاء إلى نفسي، حالة كنت فيها أتوق إلى الهرب من صوتي أنا الذي حثّني على الصدق ذات مرة. كانت مؤمنة أن ذلك الصوت سيقودني إليها. كيف يكون الأمر غير هذا عندما نكون معاً بهذه الكثرة وإلى هذا الحد من الكمال؟

لكن ذلك الصوت كان يدعوني أيضاً لأن أعود إلى توق قديم لا صلة له بها، إلى زمن كانت حياتي تبدو لي فيه أكثر نقاء مما تبدو لي الآن.

نظرت إليها. كانت نائمة. كانت معي هنا. ما زلت أستطيع لمسها واحتضانها بقوة. وما زلت أستطيع الاستسلام لصوتها، لقوتها. ما زلت أستطيع الإحساس بنشوة قربها مني. لكنني، بدلاً من ذلك، كنت في حالة اندفاع كامل، كنت عائداً إلى زوجتي. كنت عائداً من أجل محاولة أخرى لأن أكون معها تماماً كما لم أفلح في أن أكون معها من قبل، كما لم يفلح أيّ منا من قبل، لكن، كما كنا نتوق كلانا إلى أن نكون ذات يوم.

لعلها ستكون رحلة عبثية يسوقها توق معاند يائس إلى الرجوع، توق إلى براءة الماضي البعيد! سوف أضرب على غير هدى في براري جففها

الظمأ أكثر من أي وقت مضى، براري لا يُرى فيها إنسان، ناهيك عن شخص قريب محبوب. أما ما سوف أعثر عليه في النهاية فهو ذلك النهر الذي لا مهرب منه، لكنني لن أكون قادراً على التوقف. عند تلك النقطة فهمت أن النهر ليس هو ما سيفرق بيننا، إنه أنا!

أطلقت زفرة خفيفة في نومها فتجمدت عندما خطر لي أنها كانت مصغية إليّ طيلة الوقت. كيف أخبرها؟ إن كنت الشخص الذي أرادت رؤيته فيّ، الشخص الذي أريد أن أكون، فسوف أوقظها الآن لأقول لها إنني ذاهب: وداعاً يا حبيبتي فما من سبيل آخر. لا أستطيع اتخاذ غير هذا القرار رغم أنني أحبك أنت، أنت من أحببتها أكثر من أي امرأة لقيتها في حياتي. لكنني لم أفعل هذا! ذلك الصوت في داخلي ما كان قوياً إلى الحد الكافي بعد.

قبل التاسعة بوقت قصير كنا نستعد لوضع أدواتنا في الحيز المخصص لحاويات القمامة عند المتجر قبل أن نتوجه إلى الحانة، فهذا هو الوقت الملائم لذلك. توقفت إلى جانبنا سيارة قمامة قفز منها الأحمق الصغير فرانتا. جعلنا منظره بقبعته المائلة الغريبة والمنديل الأحمر حول رقبته نبتسم جميعاً. اتجه رئيسنا صوبه، لكن فرانتا، قبل أن يقول شيئاً، أخرج من جيبه علبة سجائر بنسون أند هيدجز ومد يده بها إلى السيدة فينوس أولاً ثم إلى الرئيس ثم إلينا جميعاً واحداً بعد الآخر. بعد ذلك فقط تنحى برئيسنا جانباً فتحدث معه بعض الوقت. كنت أسمعه بشكل واضح ينطق كلمات متداخلة بصوته المخصي الحاد.

قالت فينوس لحظة قاد فرانتا سيارته مبتعداً عنا في اتجاه سجن بانكراك: «يا إلهي! ما هذه الرائحة؟ كأنه محل لبيع العطور! لا بد أنه يصاحب كيميائياً في مكان ما. والسجائر أيضاً». أضافت هذا وقد تذكرت علبة السجائر الذهبية.

«لا يعجبني هذا!»، كان رئيسنا يحدق في إثر الشاحنة المتلاشية كأنه يتوقع رسالة من ذلك الاتجاه.

أردت أن أعرف ما الذي لا يعجبه، لكن شيئاً من ذلك كله لم يعجبني: لا السيجارة ولا المنديل الأحمر ولا الزيارة غير المنتظرة.

سألته: «هل قال لك شيئاً؟».

«ماذا يستطيع أن يقول؟ أتظن أنه قادر على الكلام؟»، استعاد رئيسنا مجرفته: «إن ذلك الوسخ يستعد للعبة وسخة ما. من الأفضل ألا نذهب إلى أي مكان. سنشرب البيرة أثناء سيرنا!».

انطلق الشاب لإحضار بعض البيرة من المتجر فانضممت إليه قائلاً إنني أريد أن أجلب شيئاً آكله. طلبت منا السيدة فينوس أن نحضر لها علبة من سجائرها المفضلة. أما القبطان فأراد علبة ثقاب.

«أنا متشائم بعض الشيء!»، كان الشاب محنيّ الظهر مثل من أصابته حمى مفاجئة، «لكن، الليلة الماضية، هل سمعت؟».

ثمة فرقة حقيقية من نيو أورليانز ستعزف في براغ! لم يسمع بها أحد تقريباً، فالدعوة ليست عامة. لكنه استطاع الذهاب. «كان يجب أن تسمعهم! عازف البيانو الذي لديهم، إنه سكوت جوبلين آخر حقاً. والمقطوعات التي عزفوها! وفي النهاية سألونا إن كنا نود العزف معهم. فكر فيها، هم ونحن!». كانت وجنتا الشاب محمرتين لشدة الإثارة. توقف عند باب المتجر وراح يمثل كيف عزف واحد من أصدقائه على إحدى آلاتهم. «لم أستطع منع نفسي من العزف قليلاً على الكلارينيت، لكن نوبة أصابتني. لا بد أن تتوقف هذه النوبات يوماً، ألا تعتقد هذا؟».

قلت له إنني واثق من توقفها، لكن عليه أن يكون صبوراً.

قال: «أستطيع الانضمام إلى الشباب متى أردت. لقد كنا مجموعة سعيدة. رأيت بنفسك كيف سمحوا لي بالعزف منفرداً في غيرشوين!».

«كان عزفك رائعاً».

«لا يمكن العزف على غير هذا النحو. أتخيل أنه كان يفكر بشيء نبيل عندما ألّف تلك الموسيقى، بشيء،». راح يبحث عبثاً عن الكلمة الملائمة التي تصف نشوة خلق الروح.

روت لنا ابنتي حلماً جاءها. كانت تمشي في الغابة مع زوجها عندما سمعا موسيقا ناعمة غريبة. خرجا عن الطريق إلى فسحة في الغابة شاهدا فيها زنجياً طويلاً عارياً يعزف على مزمار ذهبي. كان المزمار شديد التألق فأنار الفسحة كلها، ملأها بالضياء إلى حد جعل الأشياء تفقد ظلالها. وعلى نحو مفاجئ، جاءت من جميع الجهات طيور زاهية الألوان واندفعت إلى الفسحة. طيور طنانة وببغاوات وطيور الحب! لم تر ابنتي هذه الكمية من الطيور الحقيقية من قبل. لكن زوجها لاحظ أرجوحة معلّقة بين الأغصان. أجلسها على الأرجوحة ثم اختفى في مكان ما. لكن الأرجوحة بدأت تتحرك وحدها، تتأرجح بإيقاعها الخاص. ما زالت الموسيقى مستمرة، موسيقى لم تسمع مثلها من قبل. نظرت من حولها لتعرف مصدرها لكنها لم تر موسيقياً واحداً! عند ذلك أدركت أن الموسيقى آتية من الأرض مباشرة وأن الحجارة تهمهم بها وأن الأشجار تغنيها كأنها كمان عملاق. وفي الفسحة وقف عدد من الناس العراة. كنا بينهم! وعلى أكتاف الناس، على رؤوسهم وعلى أصابعهم الممدودة كانت تلك الطيور الزاهية جاثمة. كانت هي عارية أيضاً لكنها لم تحس خجلاً لأنها ما زالت صغيرة السن. وفي تلك اللحظة اقترب أحد الطيور الملونة منها ووقف على إصبعها. كانت لريشه ألوان لم ترها من قبل. وأحست أيضاً برائحة عطرية لذيذة لم تشمها من قبل. عند ذلك فهمت أنها في الجنة.

«وما الذي بدا لك أجمل شيء في ذلك الحلم؟». أرادت زوجتي أن تعرف.

فكرت ابنتنا قليلاً ثم قالت: «أجمل شيء هو أنني كنت طفلة صغيرة من جديد».

كانت داريا تعزو وحدتي وترددي في التعلق بأي إنسان إلى النجوم. زحل هو كوكبي، وهو يسير عكس الكواكب في الواقع، وأنا من برج الجدي أيضاً، وثمة رائحة عظام تأتي من هذا البرج. الحب وحده هو ما يستطيع تحريري من وحدتي واحتضان وجودي كله. كان ذلك هو الحب الذي تعرضه عليّ، لإنقاذي. قدمت لي قربها، قدمت لي مشاركة جعلتني أستشعر خطراً! يخاف الرجل دائماً من الحصول على ما يتوق إليه، تماماً مثلما يتوق في لا وعيه إلى ما يخافه. نخاف أن نفقد شخصاً نحبه. وحتى لا نفقد ذلك الشخص فنحن ندفعه بعيداً عنا!

أرادت أن نكون معاً عدة أيام، مرة على الأقل في كل حين. كانت تلح متحسرة: «بعض الحركة على الأقل، بعض التغيير في ذلك السكون». لكنني كنت أقاوم حتى لا أضطر إلى اختراع مزيد من الأكاذيب في المنزل، لقد قضينا بعض الوقت معاً منذ فترة!

كيف لي أن أقول هذا لها؟ أن أواجهها به؟ تلك الليلة اليتيمة!، «أنت معها طيلة الوقت». تقصد زوجتي، «أنت تلعب دور الزوج المثالي! يا للنفاق! أي حياة تعيش؟ هذا بائس جداً، ومشين!».

لم أستطع العثور على عذر لنفسي. حاولت تهدءتها بالهدايا.

«لا أريد أن تشتريني. أريد أن تحبني!».

«أنا أحبك حقاً، لكنني لا أستطيع الاستمرار هكذا. أتمنى أن أعثر على تسوية، معها ومع كل من أحب. لكنني لا أملك الشجاعة لأكشف الحقيقة أمامهم جميعاً. وهي لا تنفك تحثني: متى تحزم أمرك أخيراً؟ أليس لديك إحساس بالشفقة؟».

«الشفقة على من؟».

تصرخ بي: «على نفسك! عليَّ أنا! كيف تستطيع أن تعاملني هكذا؟».

سافر زوجها. وتخلَّفَتْ عنه أسبوعاً، أسبوعاً كاملاً تمضيه وحدها. سوف تمضي يوماً كاملاً مع حجارتها، وحدها! إنها أكثر رحمة مني. ما هذه الحياة التي صنعتها لها؟ هكذا تسألني صارخة. لا بأس إذاً، أكذب من أجلي إن كنت لا تستطيع قول الحقيقة من أجلي!

في البيت أقول إنني ذاهب لزيارة صديق لحضور عرس ابنته.

تقول زوجتي: «فكرة جيدة! أنت وحدك في البيت دائماً. وهذا سيكون تغييراً بالنسبة لك على الأقل». ثم تروح تتساءل عن الهدية التي يستحسن أن آخذها لابنة صديقي. وسوف تصنع لي كعكاً من أجل الرحلة أيضاً.

«لكنهم سيقدمون طعاماً كثيراً في العرس!»، نتبادل قبلات الوداع، شيء مخزٍ! كيف أستطيع معاملتها هكذا؟

وصلنا إلى بيت جبلي صغير عند السفوح. وفي الصالة الصغيرة المبطنة بألواح خشبية كانت نباتات استوائية تنمو ومعها نباتات متسلقة رغم أن الربيع لم يبدأ في الخارج بعد. وكان كلب صيد أسود راقداً، كسولاً مخلصاً، عند قدميّ المرأة الواقفة عند الباب. تجمدت لحظة عندما أبرزت لها هويتي لأنها تثبت ذنبي. لكن موظفة الاستقبال لا تهتم كثيراً بعدم إخلاص الناس. لديها مخاوفها الخاصة، وقد أوحت لها حبيبتي بالثقة. والواقع أن المرأتين راحتا تثرثران كأنهما على معرفة بأن عمرها سنوات. أما كلب الصيد المستلقي على الأرض فكان ينظر صوبي من غير اهتمام بينما رحت أنتظر في هذه الصالة الغريبة مثل كلب غير مخلص.

كانت غرفتنا مشرفة على البحيرة. نظرنا إلى صفحة المياه المهجورة بعض الوقت، ثم تعانقنا. أرادت أن تعرف إن أحببت هذا المكان، إن كنت سعيداً بوجودي هنا معها. أكدت لها أنني سعيد بالمكان وسعيد بوجودها. وفي لحظات النشوة نتهامس في ما بيننا ويقول كل منا إنه يحب الآخر، مثلما نفعل منذ سنوات.

ذهبنا في نزهة على الأقدام قبل الغداء. درنا حول البحيرة ثم تابعنا السير عبر الغابة حتى وجدنا أنفسنا في منبسط واسع من الأرض تنتصب في وسطه، كما في حلم، منشأة خشبية ضخمة: مجموعة من السقوف والأبراج الصغيرة والخزانات وأوعية النقل المعلقة. لعلها كسّارة للحجارة أو مبنى لإتلاف الأوراق النقدية القديمة والوثائق السرية التي يأتون بها إلى هنا بشاحنات مصطفة الآن في الباحة المهجورة. لم نر كائناً حياً في أي مكان إلا بضعة غربان تنعب من برج خشبي طويل. بقينا واقفين ننتظر بعض الوقت لعل وجهاً يظهر في إحدى النوافذ أو لعل شخصاً يصيح بنا أن نذهب من هذا المكان. أما هي فكانت تتلفت من حولها مرتقبة ظهور رؤيا من مكان ما في الظلمة. لكن شيئاً لم يحدث إلا هبوب الريح التي جعلت باباً نصف مفتوح يصرّ من حين لآخر. دخلنا عبر الباب. وفي الردهة، حيث غطت طبقة من غبار رمادي كل شيء، انتصب هيكل معدني لآلة من الآلات. كان الشحم على دواليبها الضخمة الساكنة يلمع في ضوء الغسق. صعدنا بضع درجات معدنية صدئة تفضي إلى منصة مرتفعة فوق الآلة. ومن النافذة الضيقة كنا نرى الغابة وجزءاً من البحيرة من خلفها وقد بدأت تظلم في ضوء النهار المتناقص. وعبر السماء طفت وجوه سكرى محمرة الأنوف. صفرت الريح عبر شقوق الجدران والسقف.

تسألني: «أما زلت تحبني؟». تلتقط بيدها بعض الأكياس والخرق القديمة. ثم تخلع معطفها وتنورتها الجلد الناعمة فتضعهما فوق الألواح الخشبية المسودّة. ثم نمارس الحب على منصة المصنع المهجور.

غامت قسمات وجهها في الغسق. أراها الآن مثلما رأيتها أول مرة! أشعر كأنني عدت إلى تلك الأيام، أو كأنني صرت خارج أي زمن محدد. عندما أكون معها أكون خارج كل شيء، هذا الخواء يسحرني! تتقاذفني الأمواج فأعلو في شبكتي حتى لا أعود أرى شيئاً.

تصرّ ألواح الأرضية الخشب، وتقرقع قطعة حديد بالية في الريح، وتدوّم ذرات من غبار الصدأ في الهواء. لكن هذه الأصوات لا تكاد تبدد شيئاً من الصمت هنا، لا تكاد تبدد شيئاً من العزلة المطلقة. أقول لها كلمات لطيفة فتجيبني بمثلها. ثم نظل راقدين متجاورين في الظلمة. أحس عبير جسدها المألوف وأشم رائحة الحجارة والخشب. وفجأة يأتيني شعور مفاجئ بأنني أعرف هذا المكان، لقد كنت فيه من قبل. أحس لسعة الذعر الباردة رغم أنني، على الأرجح، كنت أتذكر فقط تلك الأكواخ الخشبية في القلعة أيام طفولتي، أو لعلها الأرضيات الخشبية في الثكنات حيث احتجزوني غصباً، وحيث يخيم الموت. في هذه اللحظة تماماً عليَّ أن أفكر في الموت!

لن يزول كربي! نمارس الحب من جديد، وأتمسك بها، أشدها إليّ في ظلمة هذا المكان المعزول، أشدها في نشوتي وأشد نفسي إليها ممتناً لوجودها هنا معي، ممتناً لأنها تسلقت معي حتى هذه النقطة التي توحي إيحاء شديداً بجحيم مرفوع عن الأرض، حيث تطحن عظام الخاطئين فتصير غباراً، ثم يصير المكان مكاناً لممارسة الحب.

تسألني على نحو مفاجئ: «هل تمارس الحب مع زوجتك أيضاً؟».

يقذفني سؤالها إلى الحاضر من جديد.

«لا أريدك أن تنام مع امرأة غيري. أريد أن تكون معي فقط!»، تبتعد عني، «أتسمع ما أقول؟».

أسمعها! ماذا يمكن أن أقول؟ كيف أستطيع إبعاد أسئلتها عني؟ كيف أستطيع إبعادها عني؟ تلك المستلقية إلى جانبي! كيف أستطيع هذا عندما لا تطلب شيئاً إلا أن أقبل عاقبة حقيقة أنني أعانقها، حقيقة أنني أعانقها منذ سنوات كثيرة، حقيقة أنني أدعوها إليّ وأسرع إليها كلما دعتني. تغلبني

وضاعة حالتي وسلوكي وتختنق الكلمات في داخلي.

تدفعني عنها وتنهض مسرعة تنفض الغبار عن تنورتها ومعطفها. تنقّب في حقيبتها بعض الوقت ثم تشعل عود ثقاب وتجري هابطة الدرجات ذات الصرير. تسألني عندما نعود إلى غرفتنا: «قل لي، من عساك تظن نفسك؟». أأظن أنها لم تستطع العثور على رجل آخر يعاملها مثلما أفعل، شخص يعاملها مثلما يعامل مومساً من الشارع؟

لم أسألها أبداً كيف تعيش مع زوجها، لكنني أقول لها الآن إنها لا تعيش وحدها أيضاً.

ما الذي أعنيه بقولي هذا؟ إن حقيقة وجود زوجها تناسبني تماماً! لو كانت تعيش وحدها لألقيتُ بها منذ وقت بعيد خوفاً على زواجي الرائع!

كنا في السينما معاً منذ بضعة أسابيع. وفي الاستراحة لاحظت زوجها جالساً في الصف الذي أمامنا مع امرأة غريبة. وبعد تلك اللحظة رأيت أنها لم تعد قادرة على إبقاء عينيها على الشاشة. وعندما انتهى الفيلم قبلتني مسرعة وقالت إن عليها أن تتركني ثم جرت تلحق بهما. التقينا في اليوم التالي، كعادتنا. كانت عيناها منتفختين من البكاء وقلة النوم. قالت لي إن زوجها كان ينكر وجود تلك المرأة على الدوام، وقد أمسكت به الآن! ظلا مستيقظين طيلة الليل. قالت له أشياء قد لا ينساها في حياته كلها، وذكّرته بما سيكون عليه من دونها. وفي النهاية قدمت له خياراً: إما أن يبقى معها وحدها أو أن يحزم أمتعته ويرحل. اضطر إلى أن يعدها بالبقاء معها.

خشيت أن تكون قد اضطرت إلى تقديم وعد مماثل في ما يخصها. لكنها لم تقبل أي كلام عنها وعني: هذا شيء مختلف تماماً! هي لم تنكر وجودي أو تخفيه أبداً.

تصرخ بي الآن قائلة إنني مقزز: وضعتها أولاً في هذه الحالة المُذلَّة

المخزية، لم تفكر أبداً في إمكانية حدوث هذا الشيء لها. والآن، أملك الوقاحة للومها على ذلك.

تبدأ البكاء!

كم مضى عليَّ الآن أستمع إلى اتهاماتها الثائرة التي لا ترى فيها خللاً؟ إنني الطرف المذنب الوحيد. ولا أمل عندي في الدفاع عن نفسي!

تغير ملابسها وتجفف عينيها. سوف تمضي لتناول الشراب في مكان ما، لكنها لا تريدني معها.

تريد أن أقنعها بالبقاء معي أو بأن تسمح لي بمرافقتها. إنها تحبني ولا تطالبني إلا باتخاذ قرار من أجلها، تخاف أن تفقدني بغير ذلك. إنها تخرج بدلاً من أن تفقدني. تخرج وتصفق الباب من خلفها.

وعلى السرير الآخر، على مسافة تسمح لي بلمسها، ترقد حقيبتها المفتوحة. ومن بعدها مباشرة ترقد تنورتها الجلد، ما زال غبار الحجارة عليها!

إن لجنة عدن، كما وصفها حاخام مطّلع قبل ألفي سنة، بوابتين مزينتين بالعقيق. وعند كل منهما يقف ستون ألف ملاك شفوق تشع قسمات وجه كل واحد منهم مثلما يشع النور في قبة السماء الزرقاء. وعندما يقترب شخص صالح مؤمن ينزعون عنه ثيابه التي نهض بها من القبر ثم يلبسونه ثمانية أثواب من غمام المجد ويضعون تاجين على رأسه: واحد من الجواهر واللؤلؤ وآخر من الذهب. ويضعون بين يديه ثمانية أغصان من الآس ثم يقولون له: تقدم وكُل نصيبك من الفرح!

ويكون لكل شخص غرفته، وفق ما يستحق من تقدير. تنبثق من الغرفة ينابيع أربعة: ينبوع من حليب وآخر من خمر وآخر من بلسم وآخر من عسل. ويتحلّق حول كل مؤمن صالح ستون ملاكاً يكررون على مسامعه:

تقدم وكُل العسل فرحاً لأنك كرّست نفسك للتوراة فهذا مثل تكريس نفسك للعسل؛ اشرب الخمر لأنك كرّست نفسك للتوراة فهذا مثل تكريس نفسك للخمر.

لا ليل للصالحين بعد هذا. يستحيل زمن الليل عندهم ثلاث فترات من اليقظة: أثناء الفترة الأولى يصير التقي طفلاً يدخل بين الأطفال ويتمتع معهم بألعابهم. وفي الثانية يصير شاباً فيدخل بين الشباب ويتمتع معهم بألعابهم. وفي الثالثة يصير كهلاً فيدخل بين الكهول ويتمتع معهم بألعابهم. وفي وسط جنة عدن تنتصب شجرة الحياة فتمتد غصونها فوق الجنة كلها وتطرح خمسمائة ألف نوع من الثمار لكل منها شكله وطعمه المميَّزيْن.

ينقسم المؤمنون الصالحون إلى طبقات سبع. ويقوم بينهم جميعاً القدوس القيوم يشرح لهم الآية القائلة: «سأختار المؤمنين الصالحين من الأرض كلها حتى يسكنوا معي».

أدركت أنني وحيد في الغرفة عندما استيقظت في الصباح. اختفت حقيبتها وتنورتها. غريب أنني لم أستيقظ عندما حزمت أشياءها، فأنا من ذوي النوم الخفيف!

نزلت إلى الصالة فوجدت موظفة الاستقبال الثرثارة تسقي النباتات.

قالت لي إن السيدة كانت مستعجلة لتلحق بقطار الصباح. وسألتني عن المدة التي أعتزم البقاء فيها عندهم. لكنني لم أجد سبباً يجعلني أبقى. عدت فصعدت إلى الغرفة ورحت أحزم أشيائي. لاحظت أن الارتياح هو الإحساس المسيطر عندي في تلك اللحظة.

كتب كافكا: نحن مطرودون من الجنة، لكن الجنة لم تُهدم. ثم أضاف: بمعنى من المعاني، كان الطرد من الجنة نعمة لأننا لو لم نطرد منها لكان دمارها محتَّماً!

تصاحبنا صورة الجنة دائماً، ومعها صورة اللاوحدة أيضاً. وهذا لأن لا وجود للوحدة في الجنة فالناس يعيشون هناك بصحبة الملائكة وفي جوار الله. وفي الجنة سنكون مرتبين ضمن نظام أبدي سام يتفلت من بين أيدينا هنا على الأرض حيث نحن مطروحون، حيث نحن مَنبوذون!

نحن نتوق إلى الجنة، نحن نتوق إلى الفرار من الوحدة.

نحن نحاول الفرار منها بأن نبحث عن حب كبير أو بأن نمضي من شخص إلى آخر آملين أن يلاحظنا أحد آخر الأمر، أن يتوق أحد إلى ملاقاتنا، أو إلى الحديث معنا على الأقل. يكتب بعضنا شعراً لهذا السبب، أو يخرج في مسيرات احتجاج، أو يهلل لشخصية من الشخصيات، أو يصادق أبطال المسلسلات التلفزيونية، أو يؤمن بالآلهة أو بالرفاقية الثورية، أو يتحول إلى مخبر حتى يضمن على الأقل استقبالاً لائقاً في أقسام الشرطة، أو يخنق أحداً! القتل نفسه لقاء بين إنسان وآخر!

يستطيع الإنسان أن يتحرر من وحدته لا بالحب فحسب، بل بالكره أيضاً. يخطئ من يرى في الكره نقيضاً للحب، فالحقيقة هي أنه يقف إلى جانب الحب ليكونا نقيضين للوحدة. نعتقد في أحيان كثيرة أن الحب هو ما يربطنا بشخص ما، لكننا لا نكون مرتبطين به إلا بالكره، الكره الذي نفضله على الوحدة!

سيظل الكره معنا طالما لا نقبل أن الوحدة هي قدرنا الممكن الوحيد، أو الضروري في واقع الأمر.

عندما عدنا من المتجر وجدنا أن الآخرين قد سبقونا قليلاً مع أدوات العمل متجهين إلى المقاعد التي يستطيع المرء أن يضع عليها زجاجات البيرة فحسب لأن الجلوس ما كان مسموحاً أثناء وقت العمل.

كان رئيسنا يدخن ويتكلم كثيراً. وعد بوظائف أفضل لنا جميعاً شريطة

أن يفلح في اكتساب نفوذ في المؤسسة. سوف يرسلنا للعمل في مناطق سكنية حيث يمكن أن يكون العمل أكثر صعوبة، لا بد من الاعتراف بهذا، لكن المرء يمكن أن يكسب أكثر. وقد أكد أيضاً أنني أستطيع أن أترقى فأحتل مكانه في الفريق. وسوف يجري تغييرات مهمة من غير تأخير. سيحاول إدخال بعض الآلات الخفيفة وسيحرص على جعلهم ينقلوننا بالسيارة إلى مكان العمل مباشرة. سوف يوفر هذا وقتاً كثيراً، وسنجني مالاً أكثر، وسيزداد دخلنا حقاً. هذا ما سوف يفعله، أما ما يفعله من يتولون الأمور الآن فهو عدم الاهتمام بشيء إلا بزيادة علاواتهم، وهم يعتمدون على أشخاص منحرفين تفوح منهم روائح مومسات العملة الصعبة.

راح رئيسنا يزداد إثارة واضطراباً ويغدو أقل اطمئناناً وثقة. لم يكن يكف عن الكلام إلا لكي يعب من زجاجته أو لينظر في اتجاه السجن حتى بدا كأنه يتوقع هجوماً غادراً من تلك الناحية.

ما كان يريدنا أن نظنه خائفاً من أي شيء فهو عارف بالأمور وقد مر بأوقات صعبة في حياته. ألم يقص علينا ما جرى منذ سنوات بعيدة، عندما أدخلوا طائرات ميغ 19 الأسرع من الصوت؟ لقد حدث أن دخلت حمامة، أو طائر آخر، محرك إحدى تلك الطائرات بعيد إقلاعها فهوت عائدة إلى الأرض من جديد. كان يقودها صديقه لوجا هافراد! كان عليه أن يقذف بنفسه من الطائرة على الفور، هكذا يقول العقل! لكنه لم يُرد ترك الطائرة لأنها كانت جديدة. لقد خرج عن مدرج المطار فجرفت الطائرة قبل أن يستطيع إيقافها كل ما صادفته في طريقها: الأجمات والعبوات الفارغة وهياكل الطائرات المزيفة قرب ملجأ الطائرات. لكن أسوأ ما في الأمر هو أن الطائرة اتجهت مباشرة صوب مقر الطيارين الجديد. كانوا في استراحة منتصف النهار عندما صاح أحدهم: «اخرجوا فوراً!». لقد نظر من نافذته فرأى الطائرة الضخمة ذات الأطنان الثمانية مندفعة صوبهم بحمولتها

الكاملة من الوقود. لم يعرف أحد ما كان يجري على وجه الضبط، فقفزوا من النوافذ الخلفية جميعاً. أما رئيسنا فقد تخلّف عنهم وظل هناك يراقب لوجا يصارع تلك الطائرة. كان ذلك يشبه حلماً، لكن الطائرة توقفت قبل أمتار قليلة من المبنى. الآن، كان على الطيار أن يخرج من طائرته بأسرع ما يستطيع، لكن لوجا لم يخرج! لم يضع صاحبنا وقتاً في تلك اللحظة إذ قفز من النافذة وجرى إلى الطائرة فوجد لوجا في قمرتها. كانت الدماء تغطيه وما كان قادراً على الحركة بنفسه. فك أحزمته وحمله على ظهره. لم يخطر في باله أن كل شيء يمكن أن ينفجر مودياً بهم جميعاً إلا عندما وصل بصديقه إلى مقر الطيارين.

سألته: «هل انفجرت الطائرة؟».

تردد رئيسنا كما لو أنه لم يستطع التذكر ثم هز رأسه: «جاء فريق الإطفاء ورش الطائرة بالرغوة».

قالت لي فينوس: «هل تعرف أنه أعطاني لوحة؟».

لم أفهم: «من؟».

«جاري العجوز طبعاً! كان ذلك منذ شهر. لوحة كبيرة كانت معلقة فوق سريره».

«لوحة زيتية؟».

«صورة العذراء مع يسوع الطفل. قال لي: خذي هذه الصورة يا سيدتي العزيزة فأنا لم أعد قادراً على رؤيتها».

انتهت البيرة. التقط الشاب الزجاجات الفارغة فوضعها في حقيبته الكبيرة. سوف يعيدها إلى المتجر. كان يسير بطيئاً كأن سيرنا في تلك الطريق الصاعدة أنهكه. . .

أحسست بأن التنفس صار صعباً عليَّ أيضاً. كانت غمامة قد امتدت

فوق المدينة، غمامة من ضباب ودخان انخفضت حتى بلغت الشوارع.

ظننت أننا لن نلتقي في وقت قريب. وظننت أنها اتخذت قراراً في ما يخصني أيضاً. هي لم تترك ذلك البيت الجبلي فحسب، بل تركتني أنا أيضاً. من الحكمة أن تتركني! لم يبارحني إحساسي بالارتياح مع أن كل إشراقة شمس ستلاقيني بعينين ميتتين بعد الآن.

بقينا صامتين نحو شهر تقريباً. وبعد ذلك اتصلت بها لأسألها عن حالها.

قالت لي إنها لازمت الفراش معظم الأسبوع الأخير. لم تكن قادرة على الحركة، كانت شديدة الاعتلال. كان صوتها مليئاً بالألم، باللوم، وبالرقة أيضاً. أدركت فجأة أنني كنت أنتظر هذا الصوت طوال الوقت. ما زلت قريباً منها، قريباً منها إلى درجة تجعلها قادرة على تحريكي بكلمات قليلة.

سألتني: «لماذا انتظرت كل هذا الوقت قبل أن تتصل؟ هل شعرت بالإساءة؟ أأنا قادرة على الإساءة إليك بعد كل ما فعلته بي؟».

هذه طريقة لإخباري بأنها لا تزال تحبني، بأنها تنتظرني. وبعد ساعة واحدة قدمت لها وردة قرمزية وقبلتها. كانت شفتاها جافتين.

لقد ذهبت إلى الريف عندما لم أتصل بها وغرست بعض الأشجار. من الواضح أنها آذت ظهرها فقد استلقت ثلاثة أيام من غير حركة في كوخها، وحدها!

سارت تعرج صوب السرير أما أنا فملأت المزهرية ماء.

وجدها أحد الجيران فاستدعى الإسعاف. وفي المستشفى وضعوا لها جبيرة حتى تستطيع تحمل السفر بالباص. أما أنا فلم أتصل بها. سألتني: «هل استطعت حقاً أن تنساني بهذه السرعة؟».

أعرف أنني لن أنساها طالما حييت، لكنني أعرف أن السؤال الذي لا

تستطيع تجنبه هو: ما فائدة أن يستلقي المرء في مكان ما إن كان وحده؟

«ألم تفكر أبداً في البقاء معي طيلة الوقت؟».

إنها تختبر تصميمي، إخلاصي، وتنسى أنني لا أستطيع أبداً أن أبقى معها حتى إن أردت. إن لها زوجاً بعد كل حساب! لعلها استعدت للتخلي عنه، لكنني لم أطلب منها أبداً أن تفعل هذا ولم أرغب أبداً في هذا النوع من الترتيب!

«أيعقل أنني لم أفكر في هذا الأمر؟».

تسألني: «لكن ما فائدة هذا لي؟».

ما فائدة هذا لها إن كان عليَّ قضاء الليالي مفكراً كيف أستطيع، كيف نستطيع، العيش، ما فائدة ذلك لها عندما لا يتغير شيء حقاً، عندما لا أكون معها حقاً، عندما لا أراها إلا سراً؟

أذهب إلى المتجر ثم أعود حاملاً طعاماً لنا.

تقول لي: «أنت طيب جداً معي! عندما يكون لديك وقت لذلك! عندما تستطيع أن تجد مكاناً لي!».

أريد أن أغسل الأطباق لكنها تطلب مني أن أترك كل شيء وآتي إليها. إنها مستلقية. أمسك يدها. تنظر إليّ فتشدني عيناها، كما يحدث دائماً، إلى أعماق ليس فيها مكان لشيء آخر، ليس فيها مكان إلا لها.

تسألني عما كنت أفعله طيلة ذلك الوقت.

أخبرها عن أبي وعن ابني، وأحاول أن أشرح لها ما كنت أكتب عنها. لكنها تريد أن تعرف إن كنت أفكر فيها، إن كنت قد فكرت فيها كل يوم.

لقد تركتني في منتصف الليل، تركتني وحيداً في فندق غريب، ثم تركتني عدة أسابيع بعد ذلك. عليَّ إذاً أن أحسّ بعبثية العيش من غيرها! بدأت أفهم أنها تركتني حتى تدفعني، بعد حين، إلى اتخاذ قراري.

تسألني: «كيف تستطيع العيش هكذا؟ كيف تستطيع تصديق أنك ستكتب أي شيء بينما تعيش كذبةً طوال الوقت؟».

تعاينني بحبها القلق المضطرب. إنها تأمل أن أجد في نهاية الأمر قوة للعيش بصدق. هذا يعني أن أبقى معها كما يأمرني قلبي. تعتقد أنها تفهمني. وهي تتوسل إليّ منذ زمن طويل حتى أترك حياة الكذب التي لا قيمة لها، ولم يخطر لها أنها، بفعلها هذا، تتوسل أن أتركها. إنها محقة، عليَّ أن أحزم أمري على فعل ذلك.

ثمة بعض الكتب مكومة على الطاولة الصغيرة عند السرير. ألتقط أعلاها. إنه قصص قصيرة لبورخيس. أقرأ لها قصة من الكتاب. تدور القصة عن شاب يُصلَب من أجل علاقة غرامية محرَّمة.

تبدو حبكة القصة فظيعة في أسماعنا فقد اعتدنا على فكرة تقول إن لا وجود لحب محرم أو، لمزيد من الدقة، إن كل شيء مشروع في الحب.

تصغي إليّ بانتباه. أسألها إن كانت تريد أن أقرأ لها قصة أخرى.

«من الأفضل أن تأتي إليّ».

إنها لا تفكر في ظهرها الذي يؤلمها! تضغط نفسها عليَّ وتئن متعة: «حبيبي! أحبك كثيراً، وأنت تعذبني! لماذا تواصل تعذيبي وأنت تعرف أنك لن تجد هذه المتعة مع غيري أبداً، وأن أحداً لن يحبك مثلما أحبك؟».

أعانقها من جديد ثم يكون عليَّ أن أسرع فزوجها سيصل عما قريب.

«هل تأتي غداً؟».

تقول أصابعها الرقيقة، شفتاها، عيناها: «لن يحبك أحد مثلي أبداً! لن يمارس الحب معك أحد مثلما أفعل! لماذا تقاوم وأنت تعرف أن هذا لا بد أن يحدث؟ من المؤكد أن الأمر لا يمكن أن يكون على هذا القدر من الكمال إن كان فيه أي شيء سيئ».

تنظر إليّ، أنظر إلى وجهها. لقد تغيرت في هذه السنين. صار فيها الآن سحر أقل ورقّة أقل. وصار فيها تعب أكثر، بل مرارة أكثر أيضاً! لقد تقدمت في السن. تقدمت في السن إلى جانبي في السنوات القليلة الماضية، بين ذراعي، في انتظارها العبثي وفي أحلامها السيئة وفي نوبات بكائها. وظهرت خلال ليالي سهادها خطوط صغيرة جديدة على وجهها، وما كنت قادراً على تقبيل هذه الخطوط لإزالتها، إلا موقتاً!

أحسست بفورة ندم، بل حتى شفقة. ووعدتها أن أجيء في اليوم التالي بكل تأكيد.

كنا نقترب من محطة المترو. وكنا ننظر إلى حشود الناس الهابطين إلى ذلك العالم السفلي غير المريح لحاجتهم إلى الانتقال من مكان إلى آخر بأسرع ما يمكنهم. ثمة قمامة كثيرة حول المحطات دائماً. ولا يكاد العشب يظهر من تحت الأوساخ والأوراق المرمية. نحن لا نكنس العشب طبعاً حتى لو كان مغطى بالقمامة. لاحظت أن رفيقنا الشاب تأخر عنا ثم توقف تماماً واستند إلى عمود النور في الشارع وظل هناك من غير حركة.

سرت عائداً إليه. كان وجهه الشاحب قد صار أكثر شحوباً من قبل وظهرت قطرات عرق على جبهته.

سألته: «ما بك؟».

نظر إليّ من غير إجابة. ما زال ممسكاً مجرفته بيده اليمنى لكن يده اليسرى كانت تضغط على بطنه تحت معدته.

«أيؤلمك بطنك؟».

«هذا لا شيء! إنه يحدث لي من وقت لآخر».

«أليس عليك الذهاب إلى الطبيب؟».

قال لي إن هذا الألم يزول من تلقاء نفسه معظم الأحيان.

لكن ألمه لم يبد لي موشكاً على الزوال من تلقاء نفسه. عرضت عليه أن أذهب معه إلى الطبيب. سمح لنا رئيسنا بالذهاب من غير اعتراض: «إن انتهيتما من ذلك ضمن وقت العمل فأنتما تعرفان أين تعثران علينا».

لم يستغرق وصولنا إلى المستشفى أكثر من 20 دقيقة، لكن هذا الزمن بدا لي طويلاً. وفي الباص، جعلت الشاب يجلس في المقعد المخصص للعجزة. ظل صامتاً. أخرج من جيب سترة ساعي البريد التي يرتديها منديلاً قذراً كاكي اللون مسح به جبهته. من يغسل له ثيابه؟ ما كنت أعرف عنه شيئاً، ولم أستطع تصور المكان الذي ينام فيه.

نزلنا من الباص عند المستشفى. اقترحت عليه أن يستند إليّ في سيره لكنه هزَّ رأسه. صرّ على أسنانه ألماً، لكنه كتم شكواه. غضبت الممرضة الشابة المسؤولة عن تسجيل دخول المرضى لأننا لا نحمل أي وثائق إثبات شخصية لكنها قبلت في النهاية المعلومات التي قدمها الشاب عن نفسه وأرسلتنا إلى غرفة الانتظار بجوِّها الكئيب، جو الصمت واللون الرمادي! جلسنا على مقعد تقشَّر طلاؤه. كان العرق يتصبب على وجنتيه.

«لعل الإثارة كانت أشد مما تحتمل ليلة أمس، في الحفل الموسيقي!».

«على العكس! كانت رائعة تماماً». وبعد قليل أضاف: «وددت دائماً أن أعزف مع فرقة محترمة. لكن المدير الذي كان لدينا في ملجأ الأطفال، ما كان يرى في الموسيقى مهنة مناسبة. وكان علينا جميعاً أن نتعلم مهناً مناسبة من قبيل تشغيل الآلات العاملة بالهواء المضغوط أو صناعة النعال. كان ذلك الرجل حذّاءً ماهراً».

خلع الشاب سترته البرتقالية ووضعها على المقعد إلى جانبه: «لم أخبر الشباب أبداً بطبيعة عملي الآن. أقصد هذا العمل!».

«وهل عليك أن تخبرهم؟».

«لقد خفضوا راتبي التقاعدي. وهو لا يكفي للمحافظة على الجسد والروح معاً!»، جاءته نوبة ألم جديدة فابيضّ لونه.

أنا واثق من أنني كنت سأشعر بالإذلال والمهانة لعملي كَنَّاس شوارع لو كنت في مثل سنه. بل إنه عمل مهين لي الآن أيضاً لو لم يكن لي خيار آخر، لو كنت كَنَّاساً دائماً مثله.

وعلى نحو مفاجئ، أدركت قلة ما هو مشترك بين ما هو عندي وبين ما أدّعيه لنفسي. ما هو المشترك حقاً بين قَدَري وأقدار الناس الذين أعمل معهم الآن؟ ما كان خياراً يائساً بالنسبة لهذا الشاب كان بالنسبة لي نوعاً من لعبة كالحة، في أحسن الأحوال، أمتحن بها ثباتي الذي كنت فخوراً به فعلاً، لعبة تتيح لي نوعاً من التسلية وتجعلني أعثر على أفكار غير متوقعة. أحسست بالخجل من نفسي! خلعت سترتي البرتقالية بدوري وطويتها ثم وضعتها إلى جانبي وقررت ألا أرتديها بعد الآن.

تقلص وجهه من جديد.

خطر لي أن أسأله: «ألست عطشاً؟».

«لا بأس بكأس من الماء، في الحقيقة».

ذهبت أبحث عن كأس.

كنت أعمل في البناء المجاور منذ عشرة سنوات. كنت أجيء ثلاث مرات في الأسبوع مرتدياً بنطالاً أبيض وسترة بيضاء كان أحد أزرارها مفقوداً على الدوام. لكنني لم أصبح أبداً عامل مستشفى حقيقياً.

متى يصبح الإنسان حقاً ما يتظاهر بأنه عليه؟ الأرجح أن هذا يحدث عندما يجد نفسه في بقعة لا يستطيع، أو لا يريد، تركها، عندما يجد نفسه في مكان عذابه. الأصالة مرتبطة بالعذاب دائماً لأنها تغلق أبواب الهرب كلها، ولأنها تقود المرء إلى حافة هاوية يمكن أن يسقط فيها ويتحطم في أي لحظة.

أعارتني ممرضة الاستقبال وعاء مربى زجاجياً فارغاً ملأته ماءً بنفسها وأعطتني إياه. لكنني، عندما عدت إلى غرفة الانتظار، وجدت أن الشاب قد دخل إلى غرفة الفحص.

جلست ووضعت كأس الماء على الكرسي المجاور.

حتى الإنسان الذي يفلح في شق طريقه بالكذب طيلة حياته لا يستطيع الإفلات من لحظة الحقيقة تلك، اللحظة التي لا مهرب منها، اللحظة التي لا يستطيع عندها الكذب أو شراء الطريق بأي وسيلة.

تذكرت يوم كنت أجلس في غرفة انتظار مماثلة في مستشفى آخر، «إذا اتصلت بك الآن فهل تأتي إليّ من جديد؟».

«أنت تنتظر في المستشفى من جديد؟ هل حدث شيء لوالدك؟».

«والدي ليس في أحسن حال، لكنني في المستشفى مع شخص آخر الآن! كنا نكنس معاً ففاجأه المرض في الشارع».

«وأنت، أخذته إلى المستشفى! أرأيت كم أنت شخص طيب؟ لم تغيِّرك السنين أبداً».

«لقد كانت في حاجة حقيقية إلى المساعدة. لقد تلف كبده تماماً. كتبت إلى الخارج من أجل الدواء لكنه لم يصل بعد».

«أكون مريضة أكثر الأحيان، مريضة إلى درجة تجعلني أظن أن نهايتي قد أتت».

«ما كنت أعرف».

«وكيف يمكن أن تعرف؟ كان عليك أن تتصل بي على الأقل! لكنك لم تكن تملك وقتاً لذلك طبعاً. لم يبق لديك وقت لذلك لأنك تعتني بالمرضى. لا بد أن مساعدة الآخرين تمنح المرء إحساساً رائعاً، خاصة إذا كانوا فقراء أو محتاجين. هل كانت فكرة زوجتك، فكرة طلب الدواء؟».

«يؤسفني أنك كنت مريضة».

«لا حاجة إلى الأسف. كنت شديدة المرض، لكنك تكون أسوأ على الأرجح إن قمت بأعمال جيدة. ما الذي تحاول جعل نفسك تظنه عن نفسك؟ هل يبدو رخيصاً بعض الشيء أن تشق لنفسك بالكذب طريق الخروج من كل شيء؟».

«لست أشق طريقي بالكذب خارج أي شيء! لا يحق لك أن تحكمي عليَّ من وجهة نظركِ».

«كيف أحكم عليك إذاً؟ هل تذكر ما كنت تقوله لي عندما كنا معاً؟ ظننت أن ذلك الكلام يعني شيئاً لك أيضاً، شيئاً حقيقياً، شيئاً لا يستطيع المرء أن يتركه ويمضي هكذا! وأنت الآن تحاول استبدال بعض الأفعال الطيبة بي أنا! لمَ لا تقول شيئاً؟ ألا يخطر في بالك أبداً أنك خذلتني؟».

حاول كافكا جاهداً أن يكون صادقاً في كتابته وفي مهنته وفي حُبِّه. وقد أدرك في الوقت عينه، أو لعله شعر على الأقل، أن من يريد أن يعيش في صدق يختار العذاب والنكران، يختار حياة راهب دير مكرَّسة لإله وحيد، ويضحي بكل شيء من أجل هذا الإله. لم يستطع أن يكون كاتباً صادقاً وعاشقاً صادقاً في وقت واحد، فضلاً عن أن يكون زوجاً صادقاً، رغم أنه أراد أن يكون الاثنين معاً. توهَّم فصدّق لحظة قصيرة جداً أنه استطاع تحقيق الأمرين، وكان ذلك عندما كتب معظم أعماله. لكنه كان يتجمد كلما استطاع الرؤية عبر ذلك الوهم ثم يتوقف من غير حركة غارقاً في العذاب. وعند ذلك كان يضع ما يكتبه جانباً ولا يعود إليه أبداً أو يقطع جميع علاقاته ويطلب من كل من تحبُّه أن تتركه.

وحدهم الحمقى، الذين يعجّ بهم عصرنا الثوروي اللارهباني، يظنون أنهم يستطيعون جمع أي شيء إلى أي شيء، الحصول على شيء من كل شيء، التراجع خطوة صغيرة إلى الوراء مع استمرار القدرة على إبداع شيء أو عيش شيء على نحو كامل. ويطمئن كل واحد من الحمقى غيره،

بل يكافئ بعضهم بعضاً بأوسمة غير صادقة مثلما هم أنفسهم تماماً.

وأنا أيضاً سلكت سلوكاً أحمق في حياتي حتى أريح نفسي من عذابي. ما كنت قادراً على الحب حباً صادقاً أو على الذهاب بعيداً أو على تكريس نفسي كلها لعملي. ولعلي أهدرت كل ما تقت إليه في حياتي. وقبل كل شيء، خذلت الناس الذين أردت أن أحبهم.

ظهر الشاب في الباب أخيراً: «هل انتظرتني بكأس الماء هذه طيلة الوقت؟». لقد أعطاه الطبيب حقنة وأمر له بالراحة يومين. عرضت عليه أن أصحبه إلى بيته لكنه رفض وقال إنه يود أن يجلس هنا برهة إن لم يكن عندي مانع، وقد ينضم إلى بقية الفريق بعد ذلك.

قال حزيناً: «عندما كنت ولداً صغيراً كانت جدتي تنتظرني عند المدرسة أحياناً. وكانت تأخذني دائماً إلى متجر لبيع الأطعمة السريعة، متجر دوكلا في ليبين الذي يبعد مسافة قليلة عن نادي سوكول الرياضي إن كنت تعرف الحي. كانت تشرب البيرة وكنت أتناول بعض المثلجات. وكنت أحصل على مثلجات إضافية إذا طلبت لنفسها بيرة إضافية. لقد كانت عادلة حقاً! وكم كانت ماهرة في العزف على الأكورديون!»، تنهد الشاب. فضلت ألا أسأله عما حدث لها فقد بدا لي أن كل ما يتصل بهذا الرجل مشوب بمأساة.

كان مطر خفيف قد بدأ يتساقط في الخارج. ارتدى الشاب سترته البرتقالية. أما أنا فظللت أحملها تحت ذراعي وفاء للعهد الذي قطعته على نفسي منذ قليل.

كل شيء في الحياة يسير صوب نهاية. وكل من يحاول التمرد على تلك النهاية ليس إلا شخصاً يتصرف على نحو أحمق. السؤال الوحيد هو ما تعنيه النهاية فعلاً، ما التغيير الذي تسببه في عالم لا يمكن أن يفنى فيه شيء، ولا حتى ذرة من غبار، ولا فورة واحدة من الرقة أو العطف، ولا

فعل واحد من أفعال الكره أو الخذلان؟

كان عليَّ أن أسافر إلى الجبال نزولاً عند تعليمات الطبيب. وقد كانت حبيبتي في حاجة إلى استراحة أيضاً. كان عملها يرهقها وكانت تقول شاكية إنها قد أنهكت إنهاكاً لا يزول. كان العمل على تلك المواد، وهو في معظم الأحيان العمل بالمطرقة على الحجر طيلة ساعات لا تنتهي، كافياً لإرهاق رجل قوي! لكنني كنت أعرف أن لديها نوعاً آخر من الإرهاق في ذهنها. كانت تلومني على اضطرارها إلى البقاء في منطقة حدودية بين الحب والخذلان، بين اللقاء والفراق، في مكان تزعم أنني أقمته من أجلها، مكان سرعان ما تذوي القوة فيه إذ يستنفدها توقٌ من غير أمل وتمردٌ من غير نتيجة.

كنا نستطيع أن نذهب إلى مكان ما. وكنت أعرف أنها تريد أن تكون معي على نحو تام مرة كل حين. ذكرت لها إمكانية الذهاب إلى الجبال فوافقت. وبعد لحظة واحدة وجدت نفسي أتساءل إن كنت أريد تلك الرحلة المشتركة حقاً، أتساءل إن كنت أفضِّل أن أكون وحدي. ثم لأفترض أن زوجتي عرضت أن ترافقني! أثارت الفكرة ذعري. أي أعذار، أي أكاذيب يمكن أن أخترع؟ إنني خائف مثل أي مجرم يعرف أنهم سيمسكون به آخر الأمر.

لكن زوجتي لم تقترح شيئاً من هذا، فهي لا تشك بي. قالت إن مكوثي في الجبال يفيدني. يحتاج كل إنسان إلى شيء من تغيير المناظر من وقت لآخر. سوف تزور أبي بدلاً مني وليس عليَّ أن أقلق من أجله، ثم إنه في صحة جيدة هذه الأيام.

أعرف أن زوجتي منغمسة في عالمها الخاص الذي لا يشبه العالم الحقيقي، وهذا ما يحدث في أي عمل يضع المرء وجهاً لوجه أمام ما تسببه العقول المريضة من ألم ومعاناة. في عالمها هذا، لا يريد أحد أن

يؤلم أحداً، ولا يظهر الشر فيه إلا بصفة خير مكبوت أو نائم أو ضال، وفيه يكون الخذلان والخيانة شيئين غير متصورين، مثلما القتل!

من هو الذي تراه فيّ عندما تستلقي إلى جانبي، عندما تلتصق بي وتهمس قائلة إنها مرتاحة وسعيدة معي؟ ما الذي يعزز ثقتها التي تؤكد عليها دائماً، وأخونها دائماً؟ أم لعلها تظن أنني، رغم كل شيء، سأبرهن على استحقاقي تلك الثقة ذات يوم!

تلاحظ حبيبتي حرجي: «أتريدني أن أذهب معك حقاً؟».

لا أجيبها بالسرعة الكافية، ولا أقول لها كلمة نعم بالقدر الكافي من الإقناع، إن تقلقلي مقروء في عينيّ، إنها تبكي. تتوقع مني أن أخاف في اللحظة الأخيرة. إنها تعرفني الآن، تعرف أنني فقدت فكرة الحرية وأنني ما عدت أملك أي احترام لذاتي، أنني قد صرت عبداً لسراب زواجي المقيت، أنني ما عدت أستطيع العيش من دون ذلك النير، أنني أحاول الآن أن أفرضه عليها أيضاً. إن ما أحاول فعله بها، وتجرؤي على معاملتها على هذا النحو، مهين لها كثيراً.

أحاول تهدئتها لكن بكاءها يزداد. يهز النشيج جسدها، لا سبيل إلى تهدئتها! إنها النهاية، النهاية المطلقة، لن تذهب معي إلى أي مكان أبداً بعد الآن، ولا تريد أن تراني بعد اليوم أبداً!

أعي أنني أشعر بالارتياح، وبالأسف، في الوقت عينه.

ترفع رأسها فتنظر إليّ مرة أخرى. عيناها الجميلتان اللتان تغرياني بالاندفاع إلى الأعماق دائماً صارتا حمراوين الآن بلون الدم كما لو أن شمساً تغرب فيهما. أقبّل عينيها المنتفختين، البشعتين الآن، وأقبّل أيضاً يديها اللتين عانقتاني مرات كثيرة ولمستاني لمساً رقيقاً. أقول لها إنني لا أفهم بكاءها فأنا أريدها أن تذهب معي، أرجوها أن تذهب معي.

تقول إنها ستفكر في الأمر، فلأتصل بها من هناك!

ها أنا الآن وحدي في جبال تاترا السفلى! أمشي عبر مروج عطّرها الدفء. ومن فوقي، لا يزال الثلج هناك على السفوح الجبلية. أتحدث على الغداء مع طبيب كهل عن رياضة اليوغا، ويخبرني عن الخصائص البارزة للأعشاب الطبية. أمشي في دروب الغابة وأستمتع بالصمت من حولي. إنني أتعافى في هذا العزلة وإن كنت أعرف أنها قصيرة العمر كمثل الارتياح الذي أحسه الآن. إن العذاب الذي ربطت نفسي إليه ينتظرني، إنه في داخلي!

أحدّق في القمم البعيدة. يرتفع ضباب من الوهاد. أستعيد ذكرى مكان تتدحرج فيه الأمواج ويزمجر البحر فيغسل تشكيلاً رملياً يشبهني ويزيله، هي تستحم في برك صخرية مهجورة، التربة سوداء، تعترض الدرب جذور متشابكة أكثر ثخانة، وتنعق غربان تطير أشباحها السوداء فوق ذرى الأشجار. أسير معها بين الصخور حتى نجد أنفسنا وسط فسحة مستوية غطاها الثلج، أعانقها: أيعقل أننا متحابان إلى هذا الحد؟

تحل الليالي، ليالي السجن، ليالٍ طويلة بطول الحياة نفسها. وجهها فوقي، وزوجتي إلى جانبي، وأنا وحدي مع حبي، مع خيانتي. هي تنحني فوقي في الليل، تدعوني إليها، تدعوني إليها، إلى الأبد: سنذهب بعيداً معاً يا حبيبي، وسنكون سعيدين. أنطلق صوبها فعلاً، أجري عبر شوارع باردة، عبر شوارع مهجورة خالية من البشر، خاوية على نحو لا يستطيع أشد ليل فعله بها. أجر نفسي عبر شوارع المدينة الميتة التي غطاها الثلج ويتصاعد الكرب في نفسي. أسمع فجأة صوتاً في داخلي، آتياً من أعمق أعماق وجودي، يسألني: ماذا فعلت؟ أتوقف في غمرة اندفاعي فأعود من حيث أتيت، أعود إلى جانب زوجتي. أفعل هذا ليلة بعد ليلة إلى أن أدرك فجأة أنني لا أريد الذهاب وأنني ما عدت أود السير عبر هذه المدينة الميتة،

ليس الآن على الأقل! وأقول: في هذه اللحظة يغمرني ارتياح النوم أخيراً.

هي تقبل الآن أيضاً، في اللحظة الراهنة، أنها انتظرت عبثاً. لكنها تعاود سؤالي بعد حين عن السبب الذي يجعلني لا أجيء، عما يحدث لي! ألست أحبها؟ ألسنا في نعيم السعادة عندما نكون معاً؟ فلماذا لا أستطيع أن أحسم أمري؟ إنها تبحث عن إجابة، وهي تضع أسباباً حقيقية أو مفترضة لسلوكي ثم تزيحها جانباً من فورها. هي غاضبة مني، هي تبكي، هي في قنوط بسبب سكوني وعنادي وقلة حساسيتي وإحجامي عن أي تغيير. وهي تؤكد لي أنني لست في حاجة إلى اتخاذ قرار: لن أهجر زوجتي الآن لأنني هجرتها منذ زمن بعيد ولم أعد إلا عبئاً عليها. وقد كبر أطفالي، وهم سيبقون أطفالي حيثما كنت. أستمع إليها صامتاً، ولا أجادلها. إن الصوت الذي يحملني عائداً مرة بعد مرة ليس سبباً منطقياً بعد كل حساب: لا سبيل حتى إلى تحليله إلى أسباب منطقية فهو فوق التفكير المنطقي! أتساءل: أمن الممكن أنها لا تسمع صوتاً مماثلاً في داخلها، صوتاً من شك، إن لم يكن صوت نذير؟

لست أستطيع، حتى في هذه اللحظة، حتى هنا وسط الجبال من غير وجود أحد يحثني على فعل أي شيء، لست أستطيع تحليل ذلك الصوت إلى أسباب منطقية مستقلة: إلى حب لزوجتي أو أطفالي، أو إلى أسف وندم، أو إلى إحساس بالواجب! لكنني أعرف أنني لو لم أمتثل له لشعرت بأسوأ مما أشعر به الآن بكل تأكيد.

لعل فينا جميعاً قانون عتيق يعلو كل شيء آخر، قانون يتجاوز المنطق ويحرم علينا هجران من هم قريبون منا أعزاء على قلوبنا. نحن مدركون لهذا القانون على نحو غامض لكننا ندَّعي عدم معرفته، ندعي أنه لم يعد ساري المفعول منذ زمن بعيد مما يسمح لنا بغضّ الطرف عنه. ونحن أيضاً نقصي الصوت الذي في داخلنا فنعتبره صوتاً من أصوات الحماقة

أو الرجعية وأنه يمنعنا من تذوق شيء من نعيم الفردوس ونحن لا نزال في هذه الحياة الأرضية.

نحن نخرق القوانين العتيقة التي يتردد صداها في أنفسنا ثم نصدِّق أننا نستطيع أن نفعل هذا من غير عقاب! من المؤكد أن الإنسان، في طريقه صوب الحرية الكبرى، في طريقه صوب فردوسه الذي يحلم به، يجب أن يكون مسموحاً له بكل شيء! ونحن جميعاً، كلٌّ بمفرده وكلنا معاً، نطارد فكرة الفردوس الأرضي، لكننا إذ نفعل هذا نكوِّم على أنفسنا ذنوباً رغم رفضنا الاعتراف بهذا. لكن، ما عسانا نحوز من نعيم مع تلك الأرواح التي أثقلتها الذنوب؟ ليس لدى الإنسان مخرج من هذا إلا أن يقتل الروح فيه وينضم إلى حشد من يجوبون العالم باحثين عن شيء يملأ تلك الهوة فيهم بعد موت أرواحهم. لم يعد الإنسان يدرك الرابط بين طريقة عيشه حياته هو ومصير العالم كله، المصير الذي يأسف له ويخشاه لأنه يكاد يرى أنه يدخل، مع هذا العالم كله، زمن نهاية العالم.

يرتفع ضباب من الوادي الذي تحتي ويكاد يبلغني. أعرف أن عليَّ تغيير أسلوب حياتي الذي يكوّم الذنوب على روحي، لكنني لست أقود حياتي وحدي من غير مشاركة أحد. أحس بأنني مقيَّد من جميع الجهات، تركت نفسي أقيَّد إلى الصخرة بالسلاسل من غير أن أجلب ناراً إلى أحد.

ماذا بقي في صالحي؟ ماذا يمكن أن أقول في دفاعي عن نفسي؟ أي نظام، أي صدق، أي وفاء؟

وعلى نحو مفاجئ يظهر شكل مألوف من الضباب فأتجمَّد في مكاني. تنظر عيناها السماويتان إليّ من الضباب وتقولان: هل استطعت أن تتخلى عني؟

ما من منطق يستطيع التماسك أمام عينيها! قد أستطيع في أحسن

الأحوال أن أخرج بأعذار، أن أتوسل إليها أن تفهمني، أن أرجوها صفحاً أو عقاباً. لكن، لا معنى لأيٍّ من هذا كله فلا شيء منه يمكن أن يريحها.

اتصلت بها مثلما وعدت. قالت إنها ستنضم إليّ مدة عشرة أيام وإنها تتوق إلى هذا. وأضافت: «سنمضي عطلة وداع جميلة». لكنني لم أصدق أنها تعني ما تقول.

وجدنا رفاقنا في المكان، أي في الحانة. كان القبطان أول من رآنا. رفع الرجل إصبعين إلى حافة قبعته.

انضممت إليه ولاحظت أن على الطاولة أمامه أربع زجاجات فارغة.

قال موضحاً: «إنني أحتفل!».

لكنه لم يبدُ لي محتفلاً بل رجل يحاول إغراق أحزانه في الشراب. سألته رغم هذا: «هل قُبِل أحد اختراعاتك؟».

«ألم أقل لك؟ لقد وجدوا التايتانك!». قال هذا وأطلق ضحكة قصيرة ثم بصق على الأرض.

«التايتانك؟».

«وجدوها بكل ما كان عليها. لم يذهب منها إلا الناس».

«هل هذا صحيح؟ فماذا حدث لهم إذاً؟»، لم يعد الشاب يشعر بألمٍ الآن، أي أنه صار قادراً على إبداء اهتمامه بألم الآخرين أو موتهم.

قال القبطان موضحاً من غير اهتمام: «لعلهم قفزوا منها».

«لا يظل أحد على متن سفينة تغرق. يعتقد كل واحد بأنه يمكن أن يفلح في إنقاذ نفسه على نحو ما».

قرر رئيسنا، وكان واضحاً أنه ما زال مشغول البال بتلك الزيارة الصباحية، أن يكتشف حقيقة الوضع. سوف يتصل مع المكتب! راح

يبحث في جيوبه بعض الوقت ثم استعار كراونين من السيد رادا واتجه صوب الهاتف بخطوات تتعمد إظهار الثقة في النفس.

«لا بد أن هذا مرعب حقاً، أن تجد نفسك في خضم الماء على ذلك النحو»، كان الشاب يفكر في تلك الصورة، «ولا شيء صلباً في أي مكان».

قال القبطان: «تلك هي الحياة! تكون في لحظة مبحراً على سفينة ويخاطبك الجميع بكلمة سيدي. وقد تكون في رأسك أكاديمية كاملة من العلوم. وفجأة تصبح في الماء. تغرق، وتنتهي».

جلب النادل مزيداً من البيرة ووضع أمام القبطان قدحاً من الروم أيضاً.

تناول القبطان رشفة من قدحه: «وتغرق معك أفكارك كلها، طواحين الهواء والموسوعات ونهاية عصر الجليد، يغرق كل شيء معك». نهض وسار من غير اتزان إلى طاولة البليارد الملطخة. برز من كم سترته الجلد السوداء خطافه المعدني الأشد سواداً. وبحركة ماهرة التقط بخطافه كرة ثم ضربها فاندفعت.

راقبت الكرة تتحرك في الاتجاه المطلوب تماماً.

قال لي عندلم يعد إلى الطاولة: «هل تعرف أنني كتبت لها؟».

«كتبت لمن؟».

«كتبت لماري. سألتها إن كانت تريد العودة».

«وهل أتتك إجابة منها؟».

«أتت الإجابة أمس: العنوان غير معروف! إذاً، هي مجهولة الآن!».

«لعلها انتقلت».

«يكون الشخص هنا في لحظة ثم يرحل في اللحظة التالية. والكل يمضي إلى القاع!». أشاح القبطان بوجهه عن قدحه. تمتم شيئاً لنفسه

ونطق بعض الأرقام بصوت منخفض. لعل هذا اختراع ثوروي آخر من اختراعاته، أو لعله عدد الأيام التي قضاها وحيداً! أو لعله عدد النقاط التي سجلها في لعبة الورق التي أنهاها قبل قليل! كان في ملامحه حزن، ولعل في عقله الشعري شيء من رؤية واضحة، أو لعل آخر رؤية واضحة لديه كانت تذوي وتتفكك في تلك اللحظة! ومن جديد، أحسست بالخجل من جلوسي هناك ودراستي إياه. لقد حان وقت نهوضي وابتعادي عن كِناسة الشوارع هذه كلها. نظرت إلى الآخرين من حولي كأنني أتوقع منهم قراءة أفكاري، لكنهم كانوا جميعاً غارقين في مشاكلهم الخاصة.

كانوا ينادون القبطان مجدداً من طاولة البليارد. تظاهر بعدم سماعهم حيناً من الوقت ثم وقف ممسكاً بمسند كرسيه، ثم بمسند الكرسي التي أجلس أنا عليها، ثم استند إلى الطاولة، ثم سار مع الجدار حتى وصل إلى طاولة البليارد. التقط كرة بخطافه وراح يركز لحظة قبل أن يعطي كرته السرعة المناسبة. راقبت الكرة الحمراء تتحرك فوق القماش الأخضر مارة بالكرات الأخرى من غير أن تلمس أياً منها.

قلت له عندلم يعد: «من الأفضل ألا تشرب المزيد».

حوّل عينيه الغائمتين صوبي قائلاً: «لم لا؟». ذكّرتني إجابته بزميل ابنتي في المدرسة الذي أنهى حياته عند الطرف الشمالي لجزيرة زوفين منذ سنوات كثيرة.

عند ذلك عاد رئيسنا من الهاتف قرمزي الوجه كأنه على وشك الإصابة بنوبة قلبية. جلس ثقيلاً على الكرسي والتقط كأسه ورفعها إلى شفتيه ثم أعادها إلى الطاولة من جديد: «طيب يا أصحاب! لقد صار لدينا مسؤول جديد لتوزيع العمال».

قالت السيدة زولوفا مخمنة: «أهو أنت؟».

«لا تتظارفي معي يا زولوفا فأنا لست في مزاج مناسب لهذا».

صمت حتى يمنحنا وقتاً للتخمين ثم أعلن قائلاً: «إنه ابن الحرام الملعون ذاك!».

فوجئت السيدة فينوس فقالت: «فرانتا! لكنه أحمق معتوه».

قال رادا موضحاً: «هذا هو السبب تماماً». أما القبطان فراح يضحك، يضحك ضحكة هادئة منخفضة كما لو أن في ذلك الخبر شيئاً جلب له سروراً خاصاً. لعله توصل في تلك اللحظة إلى فهم أوضح لذلك الإشعاع الذي يحيلنا كلنا خرافاً!

وأخيراً ابتلع رئيسنا آخر جرعة من بيرته ثم أفرغ قدحه وأعلن بعد ذلك كله: «إن كانوا يظنون أنني سأترك ذلك الوسخ يضع برنامج عملي فإن عليهم أن يفكروا في غير هذا! إنها نهاية عملي في هذه المؤسسة».

حاولت السيدة فينوس تهدئته: «لا تكن هكذا! لن يظل في هذا الموقع طويلاً! سوف يشي بهم أيضاً. وسوف يُرفس إلى موقع أعلى من جديد!».

كانوا يدعون القبطان إلى طاولة البليارد من جديد لكنه لم يعد قادراً على النهوض بسهولة. استدار صوب زاوية الصالة ملوحاً بيده وعاد إلى الجلوس.

قال رئيسنا: «لا! لقد اتخذت قراري».

قال الشاب: «إن الطقس يزداد برودة على أي حال. أظن أن هذا هو سبب النوبة التي أصابتني». من الواضح أن هذه هي طريقته في إعلان اعتزامه الرحيل أيضاً. عليَّ أن أنضم إليهم، لكنني ما زلت غريباً في هذه الجماعة إلى حد يجعلني أرى التأكيد على رحيلي أمراً غير مناسب. وعندما نهضت بعد قليلٍ لم أقل لرئيسنا إلا: «حظاً طيباً! لا بد أن نلتقي من جديد». لكنه نهض واقفاً على قدميه وصافحني على نحو احتفالي مخاطباً

إياي باسمي الكامل ثم قال: «أشكرك على عملك!».

مضى وقت طويل منذ أن شكرني أي رئيس لي على عملي!

انضم إليّ السيد رادا كعادته: «أترى تلك الأشياء التي يقاتلون من أجلها؟».

بدا لي منقبضاً اليوم. وحتى أبهجه قليلاً رحت أستفسر عن شقيقه وأسأله إن كان يهم بالسفر إلى أي بلاد أجنبية من جديد.

قال: «لا تحدثني عنه! هذا كل ما أستطيع التفكير فيه على أي حال. تخيل فقط، لقد انضم إلى الحزب! انضم إلى الحزب حتى يجعلونه كبير الجراحين. أتصدق هذا؟ رجل يتحدث اثنتي عشرة لغة، بعد كل ما رآه في العالم، بعد ما قاله لي بنفسه منذ وقت ليس بعيد!».

قلت له إن الأمر قد يكون جيداً، أن يجري اختيار رجال من هذا النوع ليكونوا كبار الجراحين. وليس ذنبه أن هذا المنصب يتطلب وجود بطاقة حزبية.

قال: «لا يكون الإنسان مسؤولاً عن أوضاع وُلد فيها. لكنه مسؤول عن قراراته وأفعاله. كادت نوبة قلبية تصيب أمي عندما سمعت بالأمر. هل لديك أي فكرة عما مرت به في حياتها بسبب هؤلاء الناس؟ وأنا، أنا الذي كنت أفخر به وأظن أن الله وهبه قدراً خاصاً، حتى إن لم يكن يقر بهذا، حتى إن كان يتصرف كما لو أنه لا يقر بالله نفسه، كنت أظن أنه سيرى الحقيقة ذات يوم».

وفي قنوطه راح يتحسر على سنوات أمضاها في معسكر العمل القسري. كان بين السجناء شخصيات كثيرة لا سبيل إلى نسيانها، أشخاص يتطلعون ويهدفون إلى أشياء أكثر سمواً، حتى في تلك الظروف! لقد تلقى بعض هؤلاء سر التعميد، هناك في المعسكر؛ وقام هو نفسه بتعميد عدد

غير قليل منهم في الخفاء. عندما يعود بعقله إلى تلك الأيام يبدو واضحاً له، رغم كل ما قاساه، أن الله لم يترك بني البشر! وقد آمن، لهذا السبب تحديداً، أنه أمضى في ذلك المكان أفضل سنوات حياته، أو أكثرها معنى على الأقل.

كنا قد وصلنا إلى الشارع الصغير حيث يعيش فناننا المجهول ويعرض أعماله. ألقيت نظرة فضولية إلى نافذته لكنها كانت خالية من أي عمل فني هذه المرة. بدلاً من ذلك ظهر في النافذة شخص حي، لعله الفنان نفسه! كان واقفاً ضمن إطار النافذة. ولم يكن مرتدياً إلا شريطاً قماشياً ضيقاً مقتطعاً من كيس كبير. كانت على رأسه «قبعة المجانين» وعليها أجراس صغيرة. وقد وضع على قمتها أيضاً إكليلاً من الغار وحمل في يده اليمنى زهرة ضخمة على شكل جرس لعلها مصنوعة من مصباح ليلي تالف.

هناك وقف من غير حراك. كانت جبهته مضغوطة تقريباً على الزجاج كما لو أنه ينتظر وصولنا. فوجئت لرؤية أنه لا يزال شاباً. كانت خصلات شعره البارزة من تحت القبعة داكنة اللون ومثلها كان لون جلده داكناً أيضاً. نظرنا إليه فنظر إلينا من غير إبداء إشارة تفيد أنه رآنا أو أنه لاحظ وجودنا أصلاً.

قال السيد رادا غاضباً: «رائع! هذا كثير بعض الشيء!».

لكنني لمست لديه شيئاً من التعاطف مع هذا الشاب الذي وقف هناك عارضاً نفسه أمام أعيننا المحدقة والذي ما كان عنده أي تردد في عرض بؤسه وتوقه وأمله. أمله في ماذا؟ أمله في الشهرة أو في أن يُفهم، أو على الأقل أمله في أن يجعل أحداً يتوقف وينظر ويرى. بم أختلف عنه عندما أقف هناك مرتدياً سترة الحمقى البرتقالية هذه؟ بم أختلف عنه في بؤسي وتوقي، وربما أملي أيضاً؟

وهكذا انتظرت حبيبتي في محطة القطار الصغيرة عند سفوح التلال.

وكان من حولي غجريون نصف سكارى يتحدثون صاخبين.

دعاني شخص غريب عني تماماً إلى تناول كأس معه، شخص يفوح برائحة القذارة والشراب.

هربت إلى نهاية رصيف المحطة حيث وقفت أنتظر القطار.

هل كنت أنتظره بأمل أم بخوف، بدافع الشوق أم بدافع الإحساس بالواجب؟ ماذا بقي لي حتى أنتظره؟ ماذا بقي لي حتى آمل في حدوثه؟

لعلي كنت أنتظر شيئاً من تأخير مشروط يمكن أن يطيل قليلاً عذابنا، أو نعيمنا!

دخل القطار المحطة فلمحتها تهبط من العربة الأخيرة حاملة حقيبة ظهرية منتفخة. رأتني ولوحت لي، ورأيت، حتى على هذه المسافة، أنها جاءت عاشقة.

غمرني شعور مفاجئ بالشكر والعرفان. نلت مكافأة لا أستحقها، عانقتها.

كان الظلام قد بدأ يرخي سدله. خلت المحطة وكانت أضواء قطار آخر تقترب في البعيد.

وددت لو أنه كان قطاراً خاصاً، قطاراً لنا نحن الاثنين فقط. لو كان كذلك لركبناه، لأغلقنا النوافذ بالستائر وأقفلنا الباب. وسوف يتحرك القطار ويسرع منطلقاً خلال الليل والنهار وفوق الجسور وعبر الوديان. سيحملنا متجاوزاً سبعة حدود، بعيداً عن حياتنا السابقة. سيأخذنا إلى الحديقة العتيقة حيث يمكن أن يعيش المرء من غير خطيئة.

لكن السكة الحديد جاءت بقطار من الصهاريج ملأ الهواء برائحة النفط الخام. حملت حقيبتها وسرنا خارجين من المحطة.

اتصلت مع زوجتي ذلك المساء من فندق أخذنا غرفة فيه. وفي صوتها

أيضاً أحسست حباً وسروراً بسماع صوتي قالت لي إنها تلقت دعوة لحضور مؤتمر عن أنماط سلوك الحيوانات في مكان قريب من مكان إقامتي أنا. لا، ليس الآن بل بعد أسبوع. لكننا قد نلتقي عند ذاك وسيكون هذا لطيفاً لأنني، لا بد أن أكون حزيناً بعض الشيء لبقائي وحدي طيلة هذه المدة. وسنذهب أيضاً إلى المكان الذي ذهبنا إليه من قبل، لا بد أنني أتذكره، في شهر عسلنا.

أصابني الذعر. ما كنت واثقاً! كيف لي أن أتوقع هذا؟ أسبوع من الآن! بدا في صوتها شيء من الصدمة أيضاً وقالت إنني لست مضطراً، طبعاً، إلى الذهاب لرؤيتها إن كان هذا لا يناسبني. لقد ظنت أن هذا يسرني لكنها لا تريد أن تضغط عليَّ أو أن تجعل الأمور صعبة بالنسبة لي.

وعدتها أن أتصل بها لأجيبها ثم وضعت السماعة.

وقعت في الفخ أخيراً! لا يزال دماغي يعمل على اختلاق الأعذار فقد تدرَّب على هذا، لكنني شككت في إمكانية نجاتي هذه المرة، ما كنت راغباً في النجاة!

لماذا لم تسألني على نحو مباشر؟ لماذا لم تعترض؟ ما زال ذلك الإحساس الغريب بالمهانة في صوتها يرن في أذني. غمرني إحساس بالحزن والأسف وأحسست أيضاً بالرقة والعطف تجاه زوجتي التي أرادت أن تبث في نفسي شيئاً من الراحة في وحدتي التي أدّعيها الآن. هي التي وعدتني من تلك المسافة البعيدة بأننا سوف نتمشى بين الصخور حيث أحسسنا بالسعادة منذ زمن بعيد جداً، عندما بدأنا حياتنا معاً. لو كنت هنا وحدي لذهبت إليها من فوري وأخبرتها أنني، رغم كل شيء فعلتُه، لم أتوقف أبداً عن افتتاني بها وأنني لم أرد أبداً أن أتركها. لو كنت هنا وحدي لما اضطررت إلى صدها، ولكنت سعيداً بأن تأتي إليّ.

ما عدت أطيق البقاء في الداخل. كان ضياء القمر مشعاً على سفوح الجبال. وهبَّت من تلك السفوح ريح منحدرة عاتية. أرادت داريا أن تعرف ما كنت أفعله هناك لكنني أحسست بأن مشاعري أوقعتني في كمين، أحسست بانعدام القدرة على التأكيد لها بأنني أتشوق إلى البقاء معها.

واجهتني على الدرب الضيق: «لكنك دعوتني إلى هنا! أتوسل إليك، لعلها آخر مرة أتوسل إليك من أجل أي شيء، أتوسل إليك أن تتصرف، على الأقل،، تصرف مضيف لائق، على الأقل!».

كانت الريح تقذف بشعرها على وجهها. الآن بدت مثل ساحرة حقاً، مثل عرافة انبثقت من مكان ما في أعماق تلك الجبال.

«سوف أحزم أشيائي وأرحل في هذه اللحظة إن كان هذا ما تريد!».

لا حاجة إلى ذهابها الفوري. نستطيع البقاء هنا أسبوعاً كاملاً. أقل بثلاثة أيام فقط مما كنا نريد.

«أتريد المساومة معي؟». صرخت بي وسط تلك الطبيعة الليلية الصامتة: قالت إنني جبان وإنني كاذب ومنافق. قالت إنني متاجر بالعواطف، متاجر من غير مشاعر، من غير مشاعر نحوها هي على الأقل. كيف استطعت أن أكون قاسياً هكذا معها، عديم الحياء إلى هذا الحد؟

لقد كانت محقة! أخذتها من يدها وسرت بها على تلك الدرب تحت الجبال. وفي ضوء الغسق كنا نتعثر بحجارة وجذور ناتئة. حاولت الحديث كما لو أن شيئاً لم يحدث. نحن هنا معاً، ونحن معاً بعد كل هذه الشهور.

وفي اليوم التالي انتقلنا إلى مكان آخر في الجبال.

أحسست بالمهانة لمعرفتي أنني كنت أفر، أفر متأخراً، أفر في لحظة لم أعد عندها راغباً في الفرار من أي شيء أو من أي شخص، إلا من نفسي!

كان جمال الربيع استثنائياً ذلك العام. صار لون المروج أرجوانياً

لكثرة الزعفران البري ونمت أجمات من نباتات أنبوبية الشكل على امتداد الدروب. لكننا تسلقنا إلى ارتفاع أكبر. كنا نتسلق جنباً إلى جنب، للمرة الأخيرة! خضنا عبر مساحات من ثلج تصلّب على الأرض، وتقافزنا فوق صخور كبيرة، ووقفنا نتفرج على طيران النسور وقفزات الغزلان. وعندما عدنا إلى غروب البيت الجبلي الصغير مارسنا الحب، تماماً مثلما كنا نفعل كلما التقينا في هذه السنين كلها.

وبعد ذلك نامت مستنفدة القوى، أما أنا فرقدت ساكناً على السرير أصغي إلى صوت قطرات ماء خفيض في الخارج وأحدِّق عبر النافذة إلى الجبل الذي تألق في ضياء القمر وأتساءل عما أفعله عندما أعود إلى البيت، كيف أعيش، حتى إن استطعت العيش؟ لكن أفكاري تعثرت منذ خطوتها الأولى إذ اصطدمت بحجر كبير يعترض طريقي.

أصغيت إلى تنفسها الهادئ وغمرني الندم: ماذا فعلت بك يا أليفتي؟ عندما تبعتِني، وعندما انطلقنا معاً، عندما سرنا في البراري الثلجية، وكان الليل عميقاً شديد البرودة، وكان صمت الكون يحيق بنا. أردتِ إنقاذي، وأردت أن أكون معك في لحظاتك الصعبة كلها. لعلي لم أحبك مثلما كان عليَّ أن أحبك، ما كنت قادراً على هذا، ما كنت راغباً في أن أحبك أكثر. ما زلت مولعاً بك أشد الولع، فقد نموتِ نمواً مؤلماً في داخلي. لو كنتُ أكثر قوة، لو كنتُ أكثر حكمة، لو كان عندي من الحكمة ما يكفي لمعرفة كل ما هو أساسي عني أنا لكنت دفعتك بعيداً عني فور اقترابك مني فأنا أعرف أنني لن أظل معك مثلما تريدين أن أفعل. لو كنت كذلك لعرفت كم سأكون سعيداً لو بقيت وحدي لأنني ما كنت ساعتها سألقى امرأة أتوق إليها كل هذا التوق. لم أقرر أن أدفعك بعيداً. لم تكن حكمتي كافية لهذا، كنت خائفاً من حياة ما كنتِ حاضرة فيها وظننت أن حياتي معك ستكون كلها أمل وأنني سأجد أماناً جديداً يمتد ليفصل بين نفسي وبين العدم.

بدأت قمم الجبال تظهر من الظلمات وراحت السماء السوداء تبيضّ من فوقها. نهض الجبل منتصباً وارتفع أبدياً حقاً ناهضاً صوب سماء أكثر أبدية. أما نحن الفانون الموجودون هنا برهة فقط، زمناً لا يعادل إلا طرفة عين إلهية، فإننا نملأ برهة حياتنا الصغيرة هذه معاناة وألماً في حُمى سعينا إلى ملئها بشيء ما، في حمى توقنا إلى نشوة الوجود.

عدنا إلى البيت في اليوم العاشر، كلٌّ إلى بيته. كان وداعاً، تبادلنا قبلات أخيرة. تمنت أن أكون قوياً فلا أفعل شيئاً يؤذيها.

لكنني لست قوياً!، على الأقل لست قوياً على النحو الذي كانت تعنيه. ما كنت أريد أن أُظْهِرَ قوَّتي تجاه المرأة التي قاسمتني السراء والضراء طيلة سنوات كثيرة. أعودَ إلى الوراء وأحاول أن أستعيد في ذهني بعض الجمل محاولاً التماس تفسير.

قالت زوجتي متحسّرة: «كم كنت حمقاء حتى أثق فيك من جديد!»

إنها واقفة هنا تواجهني وعيناها مسبلتان إلى الأرض. لا تعرف ما تقول، ولا تعرف ما تفعل. قالت إنها قررت الرحيل وإنها تبحث عن مكان تعيش فيه.

أطلب منها ألا تفعل شيئاً سخيفاً.

«أسخف ما فعلت هو أنني وثقت فيك من جديد».

هي تريد مني، على الأقل، أن أفسِّر لها كيف استطعت أن أفعل ما فعلت. أما أنا فرحت أؤكد لها أنني لم أتوقف عن حبها قط.

لكنني أحببت المرأة الأخرى أيضاً!

«أترى كم هو أمر محرج؟ لا معنى للأمر بعد الآن. كيف استطعت أن تخونني هكذا؟».

بقيت صامتاً. ما كان عندي إجابة إلا أن الأمر حدث: «لكنني لن أخدعك من جديد».

«لأفرض أنك تعني ما تقول، فكيف تبرهن لي ذلك؟».

«لا أعرف كيف أبرهن أي شيء، سأظل معك».

«هذا ما تقوله الآن، لكن ما الذي ستقوله لها؟».

«سأقول لها الشيء نفسه».

«عظيم! سنذهب لرؤيتها. وعندها ستقول لها ذلك على نحو مباشر. أريد أن أكون موجودة».

«لا! لا أستطيع هذا».

«لم لا؟ لم لا تستطيع أن تقول لها هذا في حضوري إن كنت تريد قوله حقاً؟».

أظل صامتاً. لقد وقعت في الفخ.

«هل رأيت؟ أنت تعتزم خداعي من جديد».

«ما كنت أريد خداعك».

«وتريدني أن أصدقك!».

«ليس لدي شيء أقوله. لا أستطيع أن أعد أو أن أقسم».

«إنني حمقاء، كيف أمكنني أن أكون حمقاء إلى هذا الحد؟ لا أستطيع أن أصدقك بعد الآن حتى إذا أردت ذلك».

تطالبني من جديد بالذهاب معي لرؤية المرأة الأخرى. أستطيع أن أقول لها ما شئت، لكن لعلني أقول الحقيقة في تلك اللحظة!

لكنني لن أكون خائفاً من الحقيقة في تلك اللحظة. أعرف أنني لا أستطيع مفارقة المرأة التي أحببتها طيلة هذه المدة، المرأة التي مارست الحب معها من غير شهود، التي نسيت معها وحدتي، لا أستطيع الافتراق عنها في مشهد مسرحي.

«سأقول لها ذلك بنفسي. أو يمكن أن أكتب لها رسالة».

«ولماذا أصدق أنك ستفعل هذا؟».

أرفع كتفي صامتاً.

إنه الليل. زوجتي تبكي في الغرفة الأخرى. إنها تنتظر أن آتي إليها. سأقول لها إنني آسف لكل شيء حدث وإنني أدركت عدم قدرتي على أن أكون سعيداً إلا معها. وسأقول ذلك للمرأة الأخرى في حضورها حتى تستطيع أن تسمع كلامي وحتى يفهم كل من يعرف بالأمر أننا ما زلنا متحابين.

لكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً من هذا. لا أستطيع حتى أن أقول شيئاً أكثر مما قلته بالفعل. أستطيع الآن أن أرى نفسي، أن أرى نفسي من ارتفاع عظيم. لم أتوقف بعد، لكن لدي بعض الشيب على الصدغين! أقف عند زاوية. في البقعة المألوفة التي فيها شجرة وحيدة أستطيع الاستناد إليها. لقد توقفت الساعة عند الزاوية. أنتظر وأنتظر فلا يأتي أحد. أنتظر أن تظهر، هي على الأقل، لكنها ليست آتية.

أركع أرضاً وأضغط بجبهتي على جذع الشجرة فلا أفلح في البكاء. أعانق الجذع أشده إليّ شداً عنيفاً كما لو أن أحداً يحاول انتزاعي عنه. أود أن أهمس لها، لكنني لا أستطيع. ألاحظ أن الساعة قد تحركت، لكنني أعرف أنها الحركة الوحيدة، لن يأتي أحد من جديد.

ماذا تنتظر إذاً؟ ماذا تريد؟ ماذا تحس؟ ماذا تتمنى؟

كتبت لها رسالة في اليوم التالي. لن أعود إلى حياة الكذب. لن أترك زوجتي. ولا أستطيع أيضاً أن أعيش إلى جانبها وأعذبها بإخبارها أنني أحب امرأة أخرى حتى إن كانت هي نفسها قادرة على العيش مع هذا العذاب. كتبت أيضاً أن ما عشناه سيظل معي طيلة العمر. تمنيت أن

أستطيع إضافة شيء لطيف رقيق كأن أقول إن وقتاً قد يأتي فأذهب إليها في لحظة صعبة، مختلفة عما يمكن أن تتخيل. وددت أن أقول أيضاً إن ما عشناه معاً لا يمكن أن يكون خالياً من المعنى وأن جزءاً منه يمكن أن يلقي ضوءاً على حياتنا في المستقبل، وأنني لا يمكن أبداً أن أخفي هذا الضوء في نفسي. لكنني أحسست بأن الكلمات كلها عبث لا طائل منه وأنني كنت أحاول إراحتها وإراحة نفسي، لا أكثر.

بعثت بالرسالة بعد يومين. وعندما انطبق باب فتحة الصندوق خلف رسالتي أحسست بالدوار القديم المألوف يستولي عليّ. كنت أعرف أنني لن أراها ولن أسمع صوتها بعد الآن. لكنني، من وقت لآخر، في منتصف الليل، كنت أصحو من نومي وألمس جبهتها المرتفعة بأطراف أصابعي وأحس ألماً بعيداً غريباً يتسلل إليّ يتلوه صوت تقطّع خفيض في داخلي. كانت شبكتي تتمزق. ما كنت أعرف عدد الخيوط الباقية فيها، لكنها ليست كثيرة، لا يمكن أن تكون كثيرة!

لا بد أنني كنت أحب معرفة إن كان ذلك الرجل في النافذة قد عاش شيئاً مماثلاً، إن كان قد جاءه إحساس مفاجئ بالراحة من هذا اللقاء غير المتوقع. أظن أنه قد يخرج من إطاره فيفتح النافذة، وقد يدعونا إلى الدخول أيضاً أو يلوح لنا بزهرته الضخمة على الأقل. لكن ذلك سيعكر، على الأرجح، شيئاً رقيقاً غامضاً كان ممتداً بيننا، بيني وبينه. لو فعل هذا لاجتاز الفاصل اللامرئي الذي لا يكاد يُدرك والذي يفصل الفن عن الحماقة، وهذا ما جعلني سعيداً فعلاً لرؤيته يظل ساكناً في مكانه.

قال السيد رادا مطلقاً حكمه على ما رآه: «إنهم لا يعرفون بم يفكرون بعد ذلك».

بدت ملاحظته لي غير منصفة. فقبل أن يبدأ واحدنا الحكم على الآخر وإدانته، يتعين على الناس فعل المزيد حتى يفهم بعضهم بعضاً.

عدنا إلى المكتب. ظننت أن من الممكن أن أرى ذلك الأحمق الصغير فرانتا في الداخل، لكنني رأيت المرأة نفسها التي أراها دائماً. استلمت سترتي البرتقالية وأعادت لي هويتي ثم ناولتني آخر أجر لي.

عندما افترقنا قال لي السيد رادا: «أنت محق. لسنا هنا من أجل أن يحكم أحدنا على الآخر». لكنني كنت واثقاً من أنه كان يفكر في شقيقه في تلك اللحظة لا في الفنان الغريب في النافذة.

تابعته بعيني. توقف عند موقف الباص. كان رجلاً طويلاً حسن البنيان مع انحناءة بسيطة كما لو أنه يحمل ثقلاً على ظهره. حتى إن كان يحمل هذا العبء من أجل الآخرين فمن الممكن أنه قد حمله من غير لزوم. من عساه يستطيع رؤية ما في نفس إنسان آخر، حتى أقرب الناس إليه، حتى ابنه أو شقيقه الذي في منزلة الابن؟

لعلي ما زلت قادراً على اللحاق به، لكن الباص جاء في تلك اللحظة فصعد إليه. الأرجح أنني لن أراه من جديد، ولن ألتقي بأخيه أيضاً إلا إذا وجدت نفسي تحت رعايته الطبية.

خطر لي أن أنفق الورقة النقدية التي حصلت عليها قبل قليل، آخر خمسين كروناً أكسبها من كناسة الشوارع. خطر لي أن أنفقها على نحو احتفالي ما فمضيت هابطاً إلى نوزل حيث توجد متاجر كثيرة.

كانوا يبيعون الأزهار في سوق صغيرة. وكان أجري البسيط يكفي لشراء خمس أقحوانات فحسب. اخترت ثلاثاً منها بلون الزبدة الصفراء واثنتين بلون أصفر محمر، ألوان تحبها زوجتي! وفي البيت وضعت الباقة في إناء وضعته على طاولتها. حملت حقيبة التسوق وحملت معها غدائي الذي أعدَّته لي في الصباح وانطلقت لزيارة أبي في المستشفى.

فتح عينيه ورآني فحرَّك شفتيه قليلاً محاولاً الابتسام ثم أغمض عينيه

من جديد. كان لا يتكلم إلا نادراً في الأيام القليلة الماضية إما لأن الكلام يتعبه كثيراً أو لأنه لم يكن يجد شيئاً ذا أهمية تجعله يستحق الكلام. في آخر مرة تحدث معي كان يتذكر توبيخ أمي له بسبب قلة اهتمامه بي، بسبب عدم اعتنائه الكافي بتنشئتي. سألني: «أنت لم تكن تتوقع مني أي شعائر تنشئة بالتأكيد؟». أسرعت فأجبته قائلاً إنه كان مثالاً لي على الدوام: طريقة عيشه، وطريقة عمله فوق كل شيء. قال لي: «لكنني كنت أبقى معك وقتاً طويلاً رغم ذلك». غامت عيناه بالدموع. وفهمت أن خلف هذه الكلمات القليلة يختفي قرار صعب اتخذ في ماض بعيد، أو ربما تضحية أيضاً!

فتحت الوعاء الحافظ للحرارة وأخذت بالملعقة قليلاً من الكاسترد. ابتلع أبي بضع ملاعق من دون أن يفتح عينيه ثم قال: «أصابني ضعف اليوم فلم أستطع النهوض. وقد صاحت بي الأخت، تلك الجميلة، تأمرني بالنهوض فوراً وقالت إنها لن تحملني حملاً. قل لي، كيف يمكن أن تكون امرأة شريرة إلى هذا الحد؟». ظل أبي صامتاً وقتاً طويلاً ثم فتح عينيه فجأة وقال: «هل تذكر عندما طارت قبعتي عن رأسي فوق ذلك الجسر؟ كم ضحكنا آنذاك!». أغمض عينيه من جديد. قلت إنني أذكر ذلك لكنه لم يعد يسمعني.

عندما كنت أرتب أشياءه على الطاولة الصغيرة إلى جانب سريره رأيت دفتر ملاحظاته. كان قد سجل فيه بيد تزداد ارتجافاً درجة حرارته والأدوية التي يتناولها يوماً بعد يوم. لكن آخر ما سجله كان قبل ثلاثة أيام وكانت الكتابة مضطربة فلم أستطع قراءة الأرقام. أحسست بغصَّة الشفقة في حنجرتي. مسَّدت بيدي على جبهة أبي ثم خرجت. لم أذهب إلى الباب الرئيسي عندما صرت في الخارج بل سرت في ممر ضيق حتى بلغت المدخل الخلفي. كان ممراً متعرجاً بين رقعات من المرج النامي أكثر من الحد المعتاد، وكان يمر من جانب المشرحة. وخلف المشرحة تماماً

نهضت كومة من قطع الآجر المكسرة والعلب المعدنية الصدئة والأواني الطبية التالفة إضافة إلى محرك كهربائي عتيق صدئ لعله واحد من المحركات التي قام والدي بتصميمها وحسابها. كان يمضي أياماً وليالي كاملة في حساب المحركات. وكنت أخشى أن أشوِّش عليه عمله عندما أزوره. هذا ما كان يجعلنا نسرع في استعراض ما لدينا من أخبار العالم وأخبار حياتنا. أما عن أهم شيء، عن مقامنا ها هنا، فما كنا نتحدث إلا قليلاً جداً.

وعند منعطف الممر ظهر رجل كهل يدفع العربة المعدنية التي يضعون عليها الموتى. لقد كنت أدفع هذه العربة أيضاً في ما مضى. أفسحت له طريق المرور لكنني لم أستطع التخلص من فكرة أنه ماضٍ إلى كومة المهملات تلك ليفرغ حمولة عربته فوقها.

عدت إلى جسر المشاة الخشبي.

مر القطار مزمجراً من تحتنا فطارت القبعة وراحت تبحر عبر غمامة من الدخان.

ضحك أبي وأحسست بالسعادة. كانت لحظة قرب كامل بيننا، لمسة من شيء يربط بين حياتينا، لم يلوثها أو يؤثر فيها شيء طيلة تلك السنين كلها.

انحنى والدي ليصطاد قبعته الطائرة التي صارت سوداء كلها، سخاماً ودخاناً.

لم يتردد في وضعها على رأسه ثم لوح لي تلويحة أخيرة بيده وسار بعيداً، ضاحكاً.

القسم الخامس

انطلق منبه الساعة عند السادسة صباحاً. كان على زوجتي وابني أن ينهضا باكراً للذهاب إلى العمل. وكان عليَّ أن أنهض أيضاً. توفي أبي منذ يومين. وعليّ الآن أن أذهب لرؤية تلاميذه في الأكاديمية وأجلب واحداً ممن كان يحبهم حتى يلقي كلمة في جنازته. تلقيت بعد ظهر الأمس طرداً فيه الدواء الذي كتبت أطلبه منذ بعض الوقت من أجل ذلك الشاب ستيشا. وعليّ الآن أن أعطيه إياه بأسرع ما يمكن. لم أكتب لأطلب أي دواء لوالدي فالأرجح أن لا وجود لشيء من هذا القبيل.

صار الوقت متأخراً كثيراً الآن على اللحاق بأصحابي في غرفة تبديل الملابس. لو كان لدي بعض الوقت لوجدتهم في الحانة يشربون أثناء استراحتهم النهارية.

ذهبنا، أنا وبيتر، إلى المستشفى منذ الصباح في آخر يوم من حياة والدي. كان يوم الأحد، ولم يكن في القسم غير ممرضتين مناوبتين. قالت لي إحداهما إن الأمر «يمكن أن يحدث» في أي لحظة.

كان أبي مستلقياً في فراشه بشفتين مفتوحتين قليلاً. وكان تنفسه ثقيلاً. بدت لي لحظات التوقف الفاصلة بين الأنفاس طويلة إلى حد لا يصدق.

وكانت عيناه مغمضتين. لم يأكل أو يشرب شيئاً منذ يومين. وكانت عروقه ممزقة لكثرة وخزات الإبر مما جعلهم عاجزين عن إطعامه على نحو اصطناعي. حاولت إعطاءه ملعقة من شاي حلو لكنه ما كان قادراً على ابتلاع ذلك الشاي في البداية. وعندما استطاع الابتلاع أخيراً كان واضحاً أن هذه المهمة استنفدت قواه كلها وأن قطرة أخرى من السائل يمكن أن تجعله يختنق. جفت آخر قطرة من أمل واختفت في الغبار. كل ما استطعت فعله هو أن أمسح شفتي أبي ولسانه بقطعة قطنية مبللة. ثم جلست إلى جانب سريره وأمسكت يده كما كان يمسك يدي لما كنت صبياً صغيراً ليأخذني في نزهة على الأقدام إلى المطار. كان ابني، الذي كبر الآن، واقفاً يبكي عند الباب.

وعند ذلك زفر والدي ما بجوفه من هواء لكنه لم يستنشق غيره. رأيت الجهد المخيف الذي بذلته رئتاه عندما حاولتا التقاط نفس آخر. أظلم وجهه بتكشيرة ألم مضت إلى داخلي. أيُّ ابنٍ أنا إن كنت لا أستطيع إعطاءه حتى نفحة صغيرة من الهواء؟

نهضت واقفاً ورحت أتوسل في سري: «يا إلهي، تقبّل روحه فأنت تعرف كم كانت روحاً طيبة!». ثم مشيت خارجاً إلى الممر الخاوي في يوم الأحد ذاك وما كان من حولي غير جدران، وجدار آخر أيضاً، جدار رقيق شفاف لكنه عصيٌّ على الاختراق رغم ذلك، كان هذا الجدار ينزلق بين تلك اللحظة وكل ما سبقها.

كان ابني يستمع إلى الأخبار في الغرفة المجاورة. ثار بركان في كولومبيا ليلة وفاة والدي. أذابت الحمم الحارة الحمراء الجليد في المنطقة المحيطة بالبركان. وشكل الماء مع الرماد البركاني سيلاً طينياً انحدر إلى الوادي فغمر القرى. يقدر أن اثني عشرة ألفاً من البشر ظلوا مدفونين تحت ذلك الانزلاق الطيني.

انحنت زوجتي فوقي وقبلتني مودعة. همست تقول إن عليَّ أن أنام وإنها ستعود إلى البيت باكراً.

لم أستطع أن أغفو من جديد. عندما أغمضت عينيّ عاد إليّ وجه أبي بشكله الأخير الذي شوهه الألم وجاء صوت انقطاع تنفسه إليّ من الزوايا كلها.

رُن جرس من جديد. كان جرس الباب في هذه المرة.

تملأني زيارات الصباح الباكر برعب شديد. لكن الواقف بالباب ما كان إلا ذلك الشاب أشقر الشعر من سفاتا هورا، وكان في قسمات وجهه قلق مؤلم أكثر من المعتاد. من الواضح أن شيئاً خطيراً حدث وإلا لما جاء في هذه الساعة.

طلب مني الذهاب معه وقال إنه سيكلمني أثناء سيرنا. أخبرني في الشارع أنهم استدعوه مع أصدقائه لاستجوابهم. في حالته هو استمر الاستجواب نصف نهار وتطرق إلى إلقائي قصصاً قبل سنتين من الآن، وإلى قصصي وآرائي إضافة إلى آراء الكتاب الآخرين الذين يرفضون الكتابة بلغة الحمقى، عن آرائهم في المجتمع الذي ينجز «أعظم حرية حققها الإنسان والجنس البشري كله». سألوه أيضاً عن كيفية زياراته إليّ وتواترها وذكروا عدة مرات في ذلك السياق حكاية النصب التذكاري المحطم.

تابعت الحياة سيرها، أي أن الموت تابع سيره أيضاً!

حاولت الهدوء. من المؤكد أنهم لن يتهموه ولن يتهموني بنسف ذلك التمثال. لم يقصدوا بكلامهم إلا الربط بين الجريمتين: قراءة قصص قصيرة مكتوبة بلغة لا يفهمها إلا البشر، وتدمير تمثال يُزعم رسمياً أنه تمثال شخص عملاق. حتى هؤلاء الناس يستطيعون إدراك أن الجريمة الثانية أكبر بكثير من الجريمة الأولى.

لكن الشاب كان في هوة قنوط شديد. إنها المرة الأولى التي يتعرض فيها للاستجواب ويعيش تجربة روح الحمقى الشكاكة التي تبتعد عن المصالحة ابتعاداً عنيداً. كنت أدرك هذا منذ سنوات طويلة وأسجِّل كيف راحت الأصوات الحيةُ تصمت في ظل نفوذ تلك الروح وكيف بدأت اللغة تضيع. كان هذا يغزو كل شيء، يدخل في المياه وفي الهواء ويمتزج بدمنا.

تلد الأمهات أقزاماً مقعدين، وتلد الطبيعة أشجاراً ميتة، وتسقط الطيور غير قادرة على الطيران، وتصاب أجساد الأطفال بأورام خبيثة.

سار إلى جانبي خائفاً. كان قد استقال من عمله قبل وقت وجيز ووجد عملاً في عرض الأفلام السينمائية. وكان يأمل أن يقبلوه طالباً يدرس أدب الحمقى عن طريق المراسلة. صحيح، لقد تعلم هناك أن تشارلي شابلن ترك الولايات المتحدة، معقل اللاحرية، لكنه ما كان يملك وقتاً فائضاً لقراءة الكتب والتفكير. ماذا إن لم يقبلوه الآن؟ لقد أراد أن يعرف أين يستطيع العثور على شبكة أمان لنفسه لأن العمل الذي أسندوه إليه، وكذلك العمل الذي عُرض عليه في متجر، ما كان إلا شبكة أمان واسعة الفتحات إلى حد يجعل الإنسان يسقط منها على الفور. على كل إنسان أن ينسج شبكة أمانه بنفسه طبعاً، كان يعرف هذا. لكن إذا اندفعوا إليه، إذا اقتحموا بيته ومزقوه إرباً، فماذا يفعل؟ أيقاتلهم أم ينسج لنفسه من الصفر شبكة أضيق ثقوباً؟

إنها التاسعة صباحاً فحسب! إن أسرعت فقد أتمكن من اللحاق بالشاب في حانة بوزينا لأعطيه الدواء ثم أذهب للعثور على الطالب الذي سيتحدث في الجنازة.

كانت الحانة نصف خاوية في تلك الساعة المبكرة فما كنت مضطراً إلى التفتيش عليه في حشد من الناس: كان رفاقي السابقون، عدا القبطان والشاب، جالسين إلى طاولة قرب الباب. فوجئت عندما رأيت رئيسنا نفسه جالساً على رأس الطاولة، بل كان مرتدياً ثياباً جديدة أيضاً.

دخلت فلم يلاحظوني وأفلحت في سماع رئيسنا يروي كيف أن طياراً شديد الولع بالظهور ولفت الانتباه كان ينقض رأسياً بطائرته صوب الأرض فلا يخرج من الانقضاض حتى يبلل المتفرجون الواقفون على الأرض سراويلهم خوفاً.

رأتني السيدة فينوس فقالت لي: «وما الذي تفعله هنا؟ هل أتيت لمساعدتنا؟».

التفت رئيسنا منزعجاً لأنه لم يكن يحب أن يفسد أحد قصصه البطولية. أخرجت الدواء من جيبي وسألتهم عن الشاب. سألتهم إن كان أحد منهم يستطيع أن يدلني عليه.

قال لي الرئيس: «هذه ليست روضة أطفال. إن أتى فهو هنا، وإن لم يأت فهو ليس هنا. لم نره». استدار إلى السيدة فينوس كأنها شاهد على ما يقول، «لم نره منذ أسبوع على الأقل».

قالت السيدة فينوس: «ليس الطقس مناسباً له فأنت تذكر تلك النوبة المرضية التي أصابته. قد يعطونك عنوانه في المكتب. لا بد أنه موجود لديهم. لم لا تجلس معنا؟».

طلبت لنفسي شاياً مع الروم.

تابعت السيدة فينوس: «لعلك لا تعرف بعد أنهم حبسوا السيد بنز في مستشفى المجانين!».

من الواضح أنني لم أسمع بما حدث للكابتن.

«أراد أن يضرم النار في مكان عيشه. لقد كسر رؤوس عدد كبير من أعواد الثقاب محاولاً أن يصنع بها قنبلة. لو تم له ما أراد فالله وحده يعرف ماذا كان سيفعل. لكن تلك المرأة التي اسمها ماري ظهرت بعد كل هذه السنوات. وعندما سألها إن كانت تعتزم البقاء معه أجابته قائلة إنه مجنون وإنها سرعان ما ستشنق نفسها. وهكذا قرر صاحبنا تفجير تلك القنبلة عند بابه».

قال رئيسنا بقرف: «يا للحماقة! أن يكسر رؤوس ألفي عود ثقاب ويضعها كلها في علبة صودا معدنية ثم يستخدمها في مبنى من ذلك النوع! لكنني لن أذهب إلى ذلك المكتب لو كنت مكانه فثمة أحمق آخر جالس هناك». قال هذا ثم عاد إلى حديثه عن المطار حيث لم يتمكن صديقه من الخروج من الانقضاض ذات مرة فدفن نفسه مع طائرته الميغ عميقاً في الأرض، عميقاً إلى حد أنهم، بعد إطفاء النار وقص الحطام، حصلوا على

حفرة ضخمة يمكن أن يختبئ فيها عشرون رجلاً.

عندما وصلت فرق الإنقاذ إلى منطقة الكارثة البركانية وجدوا، إضافة إلى آلاف الموتى، عدداً من الناجين على أسطح البيوت أو فوق الأشجار، وكذلك عدداً ممن علقوا في الوحل فلم يعدوا قادرين على الخروج منه وحدهم. وكان من بين هؤلاء فتاة صغيرة لم يبق ظاهراً فوق الوحل إلا رأسها. وكانت عمتها التي غرقت وماتت في الوحل لا تزال ممسكة بساقيها من الأسفل. أمضى المنقذون ساعات طويلة في محاولة تحرير الفتاة لكنهم علقوا في الوحل بدورهم آخر الأمر. وطيلة ذلك الوقت كان مراسل صحافي يحمل كاميرا تلفزيونية يصورهم حتى يتمكن من نقلِ مصير الفتاة الصغيرة إلى أولئك الضجرين، أو المتعاطفين، العالقين كلٌ في شبكته، والذين يريدون أن يكونوا شهوداً على ما حدث. وبعد ستين ساعة انتهى عذاب الفتاة الصغيرة وصار في وسع المراسل المرهق أن يعود إلى شبكته التلفزيونية. وخلال الوقت الذي مر حتى اقتطعوا من الشريطِ المسجّل المقطع الذي يهمهم كانت روح الفتاة الصغيرة قد صعدت فحلّقت فوق الوحل والماء الأسود، فوق مخروط البركان الحار، وأيضاً فوق مليون شاشة تلفزيونية تلمع في مختلف أنحاء العالم وتعرض الموت المؤثر لتلك الفتاة وصراع المنقذين العقيم لإنقاذها. لم تخرج الفتاة من وحل الرماد، لكنها صارت مشهورة في تلك الثواني المثيرة القليلة. لكن، من سمع نداء روحها؟ من هزه بكاؤها؟ من قام، على الأقل، بتصور ملامحها لحظة كانت رئتاها تحاولان الحصول على النفس الأخير من غير طائل؟

عادت السيدة فينوس إلى الحديث عن الشاب: «إن لم تحصل على عنوانه عندها يمكنك أن تجرب الذهاب إلى صديقته دانا، فقد يكون هناك». ثم وصفت لي المنزل الذي تعيش فيه دانا. ليست لدي فكرة عن كيفية معرفتها هذه المعلومات! كان المنزل واقعاً في منطقة اسمها «الحي الصغير».

بث الشاي مع الروم دفئاً لطيفاً في جسدي وصرت قادراً الآن على

الانطلاق إلى المكتب. قادتني طريقي عبر الشارع الصغير ذي البيوت. وعندما وصلت إلى نافذة الفنان حدقت دهشاً إلى السترة المعلقة بخيط. كان لونها البرتقالي يشع متألقاً في النافذة. ومن خلف السترة رأيت في عمق الغرفة جذوعاً وسيقاناً لنباتات غريبة. كانت مرتبة بيد الفنان على نحو يوحي بهيئة إنسان. وعندما حدقت في النافذة استطعت أن أرى شيئاً يشبه امرأة لها ملامح وجه مألوفة. كانت امرأة تضع قبعة خيّال. لا شك في أنها تمثل السيدة فينوس، لكن من غير غضون وجهها التي تجعله شبيهاً بوجوه الهنود الحمر. لكن ذلك التعبير الحزين حول فمها كان واضحاً. وفي الوقت عينه، كان في هيئتها شيء فَرِح، وكذلك في وضعية يديها. لعل الفنان رآها لحظة كانت تهم بامتطاء المهرة التي عالجتها. وبعد هنيهة استطعت تمييز ما يشبه رئيسنا أيضاً. كان يحمل طياراً جريحاً ليخرجه من طائرة محطمة متخيلة، وكان في الوقت نفسه يكاد يحلق عالياً بأجنحة شجاعته. استطعت تمييز القبطان أيضاً. بدا جسده الضخم غير المنحني حسن الهيئة في ملابسه البحرية. لعله، رغم كل شيء، كان فيه مزيج من المخترع غريب الأطوار والشخصية الفكاهية العظيمة. لعل حلماً طفولياً كان يقف عند بداية أفعاله كلها، حلماً كان سراباً لرحلات بعيدة! ومن الناحية الأخرى وقف السيد رادا في ثياب سجين بنية بشعة وكان يصب الماء من علبة معدنية فوق رأس سجين آخر. كان وجهه متجمداً عند لحظة كشف داخلي مفاجئة، عند لمسة من نعيم. وفي تلك اللحظة سمعت نغمات موسيقى غيرشوين. كان قدر كبير من التركيز ظاهراً على وجه الشاب أثناء عزفه، وكان مع التركيز أيضاً سعادة كبيرة جعلته يبدو متحولاً. كانت آلة الكلارينيت في يده لا توحي كثيراً بآلة موسيقية بقدر ما توحي بعصا ساحر تستطيع جعل الصخور تنشق في مكانها وتستطيع حمل البشر إلى ممالك أحلامهم.

أدركت عند ذاك أن هذه الوجوه كلها، في تشابهها، كانت حقيقية وغير

حقيقية معاً. كانت تبدو أكثر شباباً وأكثر جاذبية كما لو أن أفعال الزمان أو الحياة لم تترك أثرها عليها. وفي الوقت نفسه فهمت أن فناناً آخر هو من أعد هذا العرض، إنها فنانة! لم يفعل النحات الذي هنا إلا أن سمح لها باستخدام نافذة العرض هذه. أما هي فقد حدست خط سيري وأقامت حديقتها هنا من أجلي، حديقة يمكن أن يرى المرء نفسه فيها، أن يرى شبهاً لنفسه يماثل ما يتمنى أن يكون عليه في لحظة نشوة. لعلها فعلت هذا لتذكرني بنفسها، أو لتبين لي حبها ورؤيتها السخية لما يجب أن يعرضه الفن من الحياة.

ما زلت أبحث عن نفسي بين هذه الشخوص، لكنني لم أر وجهي: لم أر إلا عموداً طويلاً كما لو أنه قُدَّ من حجر. لكنني لم أستطع رؤية قمته عبر النافذة. تذكرت، وتساءلت إن كان يحمل ابتسامة، هناك عند القمة! لكنني عرفت أنني لن أجد ابتسامة، عليَّ أن أكون في سلام مع نفسي أولاً!

الآن بدأت الأشكال تتحلل رويداً رويداً أمام عينيّ. فوجئت بأن أجد نفسي في قبضة الحنين. قد يظن الإنسان أن قدر الناس البعيدين عنه إلى حد كافٍ لا يمسُّه. لكنه يراهم على نحو مفاجئ تماماً، يراهم في وضع غير متوقع فيدرك تشابههم المفاجئ معه، تشابه جميل أو مخيف، يدرك أنهم لا يمسّون روحه فحسب بل يدخلونها أيضاً. هذا ما يحدث طالما لم تنقرض الحياة في الإنسان. لقد عانى والدي، في لمحة منطفئة من الوعي، جراء فكرة أن تكون امرأة غريبة أكثر شراً مما ظنه ممكناً.

منذ زمن بعيد، في طفولتي، أقنعني أبي بأن الجنة اختراع بشري. لكنه ظل يتوق إليها، يتوق إلى تواصل بشري، ويتوق إلى الخلود. لقد أراد اقتلاع نفسه من الأرض، أراد أن يعلو إلى السماء، أن يصل إلى حافة اللغز. أتراه أدرك أنه ينحدر إلى أسفل؟

على الرصيف المقابل، جاءت الدورية بلباسها الرسمي. لكن الشرطي البدين كان مصحوباً هذه المرة بشرطي لم أره من قبل. كنت أعتزم المرور بهما من غير لقاء لكن البدين غيَّر اتجاهه على نحو مفاجئ وسار صوبي.

تجمدت، كما يحدث معي دائماً. لماذا يزعجهم وجودي في هذا العالم في هذه اللحظة؟

رفع البدين يده إلى حافة قبعته بحركة مهملة وسألني: «أنت في إجازة اليوم؟».

أجبته مراوغاً: «نوعاً ما».

«وماذا عن ذلك الذي يرتدي سروال البحارة؟».

قلت إنني سمعت أنه وُضع في الحجْر الصحي.

قال البدين موضحاً: «ماذا يمكن أن نفعل غير هذا. لم نكن نريد أن نفعل هذا. وقد قلنا له: توقف عن هذا الهراء في منتصف الليل يا جدي. كان ذلك سيقتله لو لم نتمكن من اللحاق به. كانت القنبلة على بعد متر واحد منه». قال هذا بغضب مهني، «لكنهم سيطلقون سراحه فالكل يعرف أنه غير سوي وأنه يسير بهذا السروال السخيف حتى في الثلج. أريد أن أسألك،». قال الكلمات الأخيرة مستديراً إلى صاحبه لكنه كان قد سار مبتعداً فلم يسمعه. «لكن، هل تعلم أنه ارتدى سروالاً طويلاً تلك الليلة، سروالاً حقيقياً سميكاً، سروالاً ممتازاً، مع ربطة عنق أيضاً!». رفع البدين كتفيه مستغرباً ثم حيَّاني رافعاً يده إلى قبعته من جديد وقال: «لقد كان ممسوساً فعلاً!»، قالها مشيراً إلى جبهته ثم سار مغادراً.

كان الأحمق الصغير جالساً خلف طاولته في المكتب حقاً. ولم يعرف عنوان الشاب، أو رفض معرفته إن شئنا الدقة. لعل هذا كان يوجب عليه أن ينهض من كرسيه وينظر في أحد الملفات. ارتسمت ابتسامة على شفتيه اللحيمتين: ابتسامة الثقة بالنفس عند رجل أعطي السلطة. سلطةً على من يكنسون القمامة، أي سلطة على القمامة نفسها، أي سلطة على عالم الأشياء! راح يشرح لي شيئاً بلغة الحمقى، لكنني لم أفهم. كان لا بد لنا من مترجم بيننا.

لا بأس، قلت لنفسي في فورة من الحنق والغل: سأجد الشاب من غير

مساعدته! صعدت إلى ترام يأخذني إلى الحي الصغير.

كنت على معرفة جيدة بالمنطقة التي وصفتها السيدة فينوس. إن المكان موجود إلى الناحية الأخرى من القصر الذي كنت أرى نوافذه من العلية الصغيرة التي زرتها كثيراً.

حدث لي مرات كثيرة أن اضطررت إلى السير حول ذلك المبنى لكنني لم ألحظه أبداً. كانت جدرانه ثخينة، وكان الدرج معتماً. أظن أنني شممت رائحة الغاز المألوفة.

كنت محظوظاً على الأقل لأن السيدة صديقة الشاب كانت تعمل بنظام الورديات، أي أنها كانت في البيت في هذه الساعة. دعتني للدخول إلى صالة البيت. ما كنت أعرف إن كانت وحدها لأن الأصوات الأخرى كلها كانت غارقة في ضجيج فرقة موسيقا عسكرية. وجاء من مكان ما صوت آلة غسيل الملابس.

«لكنه ليس هنا!»، هكذا أخبرتني عندما قلت لها عمن أبحث. كانت امرأة قوية ضخمة الجسم في سنوات النضج. لم أستطع تصورها في أحضان صديقي الشاب. قالت معلنة: «وسوف لن يأتي بعد الآن».

قلت إنني جلبت له الدواء الذي ينتظره. لعل من الممكن أن أتركه عندها ريثما يزورها.

قالت بنبرة قاطعة يستخدمها المرء عند الحديث عن الموتى: «لكنه لن يزورني. قلت له ألا يأتي بعد الآن».

سألتها أين أستطيع العثور عليه.

«لا أعرف أين يمكن أن يكون. لم يقل لي أبداً من أين هو». ثم تذكرت فجأة: «أما كان يعزف في مكان ما؟ لعل رفاقه الموسيقيين يستطيعون إخبارك».

شكرتها. كنت قد وصلت إلى الباب عندما أضافت: «لقد كان مسكيناً

بائساً، إن كنت تعرفه. كان يجلس وينظر، فقط! ما كان يستطيع حتى أن يأكل شيئاً مناسباً، وما كان يشرب إلا العصير. جاء من مكان ما ذات يوم، وكان مبللاً كله فأعددت له شراباً كحولياً. لم يقل لي إن الكحول غير مسموح له، كاد يموت عندي».

لقد ذهب الشاب وانطبقت فوقه المياه. لم أعرف ما أفعله بدوائه. لعل المرأة التي كانت تعمل في المكتب يمكن أن تساعدني. لعلها تتذكر اسم شارعه على الأقل أو اسم البلدة التي جاء منها. لكنني ما كنت في مزاج يسمح لي بالبحث عنها. بدأ يخطر لي أن الدواء سيفسد قبل أن أعثر على ذلك الشاب.

غادرت المنزل. كان الوقت منتصف النهار. أنارت الشمس المنخفضة جانب القصر. وعلى حافة النافذة كانت الحمامات تدفئ أجسامها في الشمس، كما في الماضي. لعلها غير تلك الحمامات، لكن من عساه يستطيع تمييزها؟

خطر لي فجأة أن لا مكان عندي لأذهب إليه، لا أحد لأراه. ليس لدي إلا مسألة ترتيب جنازة والدي. لا بد أنهم في استراحتهم النهارية في الأكاديمية الآن، لكن ماذا عند ذلك، ماذا بعد ذلك؟ إنني هنا أحمل دواء لا فائدة منه، ومن حولي أناس يسرعون لا فائدة منهم لي بدورهم. بدأت شبكتي تتأرجح على نحو مفاجئ، تقطع بعض خيوطها، ومن تحتي رأيت الظلام.

أخبرتني ابنتي بحلمها عن نهاية العالم. كانت تسير مع زوجها في الطبيعة. بدا المكان متسعاً فسيحاً لا يحده غير الأفق. كان يوماً صافياً. وعلى نحو مفاجئ، بدأ ضوء النهار يتحول إلى اللون الأصفر حتى صار فوسفورياً. في تلك اللحظة، بدأ الأفق إلى يسارها يقترب من جزئه الأيمن. ومع اقتراب الجزأين راح الضوء يخبو. بدأت تظلم، وراحت الأرض ترتعد. استلقت مع زوجها جنباً إلى جنب ثم أغمضا عيونهما وراحا يتلوان صلاة: «اسمعي يا إسرائيل. الرب إلهنا. الرب واحد». وعندما فتحا عيونهما مجدداً رأت

فوقها الكون كله وفيه شمسنا مع كواكبها بما فيها أرضنا وقمرنا. من يرى هذا لا يمكن أن يكون حياً، هذا ما أدركته. وقد أدركت أيضاً أن لا حياة باقية على الأرض. انهار الأفق وانطبقت جوانبه وانفجرت كتلة الأرض وفاض الماء في كل مكان. عند ذلك لاحظت بين الكواكب حجر نرد أحمر ناري اللون حاد الحواف يسبح في مداره ويدو حول نفسه أيضاً، استطاعت أن ترى النقاط البيضاء على وجوهه. تساءلت: من عساه يكون ألقى هذا النرد؟ هل هم البشر أم هو القدوس القيوم تبارك اسمه؟

سرت من حول القصر ودخلت ساحة صغيرة. مشيت على الرصيف المألوف غير المستوي ودفعت الباب الثقيل ففتحته. أحاطت بي رائحة مألوفة في ردهة المدخل. صعدت الدرجات الخشب. رأيت حفاضات تتأرجح على حبل، حفاضات طفلة ولدت حديثاً! لكنني لم أر الطفلة، ما كان لدي عينان من أجلها. كان سقف الدير مرتفعاً مثلما كان من قبل، إلى الحد الذي يمكن القول معه إن أي شيء يمكن أن يكون مثلما كان في لحظتين مختلفتين. صعدت الدرجات حتى العلية. كان الباب مزيناً من الخارج بملصق كان هنا من قبل، لكن رائحة الزيت والغاز لا تزال تأتي عبر الشقوق كلها. أما الاسم على زر الجرس فما كان يعني شيئاً لي.

لم أقرع الجرس. لم أجد معنى لهذا. حتى لو كنت قادراً على قرع جرس إلى الماضي، وحتى لو ظهرت لي عند الباب حقاً، فماذا أقول لها؟ لم تكن لدي جملة جاهزة واحدة، لم تكن لدي جملة واحدة جديدة!

أمام المبنى، وقفت مجموعة صغيرة من السياح تحدق باهتمام لائق بجدار القصر. ما الذي يستطيعون رؤيته هنا؟ ما الذي يستطيعون الإحساس به؟ إن هذه الجدران لا تتحدّث إليهم، ولا تذكّرهم بتنفس أو بصيحة أو بدمعة سقطت. رغم كل شيء، لدي أشياء ليست لديهم!

رحت أهيم بطيئاً في الشوارع الضيقة سالكاً المسار عينه، تقريباً، الذي يمكن أن يسلكه الكاتب الذي أكتب عنه في تلك اللحظة، إلى القلعة.

ما كان يسحرني أكثر من أي شيء آخر في الأدب ذات يوم هو أن الخيال الأدبي لا يعرف حدوداً، إنه غير محدد، تماماً مثلما هو الكون الذي قد نسقط فيه. وكنت أظن أن هذا ما يسحرني في كافكا ويجذبني إليه. عند كافكا، يمكن أن يتحول الإنسان إلى حيوان وأن يتحول الحيوان إلى إنسان، وعنده يبدو الحلم واقعاً ويكون الواقع حلماً في الآن عينه. ومن كتبه يتكلم لغزاً غامضاً كان يثيرني.

لكنني فهمت في ما بعد أن لا شيء أكثر غموضاً، ولا شيء أكثر روعة، من الحياة نفسها. وأما من يعلو فوقها، من لا يكون راضياً بالأهوال التي بلغها وبالعواطف التي عاشها، فلا بد له عاجلاً أو آجلاً من أن يكشف عن كونه غواصاً زائفاً، غواصاً لا يتجاوز في غوصه قبواً صلب البناء لشدة خوفه مما يمكن أن يكتشفه في الأعماق.

كافكا أيضاً لم يصوّر أي شيء غير الواقع في حياته نفسها. لقد قدّم نفسه حيواناً، أو استلقى على السرير في آلة إعدام متقنة الصنعة حتى يعاقب نفسه على ذنوبه. كان يشعر بالذنب لعدم قدرته على الحب، أو لعدم قدرته على الحب كما أراد أن يحب على الأقل. لم يكن قادراً على القرب من أبيه، ولم يكن قادراً على أن يصل مع امرأة، معاً. كان يعرف أنه، في توقه إلى الصدق، كان يشبه من يطير، وكانت حياته مثل طيران تحت سماء لا تنتهي حيث يكون الطائر وحيداً على الدوام وحيث يتوق عبثاً إلى تواصل بشري. وكلما طار أكثر كلما ازداد ثقل الذنوب على روحه فأجبره على الانخفاض صوب الأرض. يستطيع هذا الطائر إلقاء روحه عن نفسه ليطير من غيرها، أو أن يتحطم. لقد تحطم كافكا، لكنه نجح على الأقل في الارتفاع من الرماد حتى يصف سقوطه ثانية بعد ثانية، حركة بعد حركة.

مثل كل من يتعلق لحظةً فوق الهاوية، أو من يرتفع من الرماد فيدرك كم هي واهية شبكته، كان كافكا نقياً بريئاً من الحنق والكره، تماماً مثلما كانت لغته غنية فائضة بالكلمات. يقف الكاتب الآن عند حافة الحفرة السوداء،

لكنه لا يزال يتوق إلى النظر في عينيّ إنسان آخر، نظرة صدق وحب، إلى التحدث معه بلغة طهّرها سقوطه من كل كره ومن كل باطل.

كل من يتوق إلى أن يكون كاتباً، حتى لبضع لحظات في حياته، سوف ينسج، عبثاً، أحداثاً رائعة لا معنى لها إلا إذا كان يعيش ذلك السقوط الذي لا يعرف إلى أين ينتهي ولا يعرف إن كان سينتهي، إلا إذا كان توقه إلى تواصل بشري يوقظ فيه قوة حتى يرتفع من الرماد، حتى يتطهر منه.

كان توتر ينمو في داخلي، يمزق أفكاري. كنت في حاجة إلى فعل شيء، أن أمشي، أن أصرخ، أن أبكي، أن أكتب شيئاً، أن أخط على الأقل بالطباشير فوق جدار أسماء أولئك الذين لن أراهم بعد الآن.

كنت أمر أمام مخبز انبعثت منه رائحة الكعك الحلوة. لا يصنع هذا الكعك مخبز غير هذا المخبز الواقع على مسافة قصيرة من الجسر الحجري، على مسافة قصيرة من قصرنا. كانت آخر مرة آتي إلى هنا لأشتري بعض الكعك في اليوم الذي سبق بداية عملي في كنس الشوارع. وعندها، عندما دخلت المخبز، داهمني التوق والحنين. كنت خائفاً من أن الوقت الذي حُبيت فيه بنعمة التواصل البشري كان على وشك الانتهاء، ولم أر إلا حافة الهاوية من أمامي. أما خوفي الأكبر فكان من أنني جررتها إلى تلك الهاوية معي.

اشتريت من كشك الصحف صحيفة مسائية من صحف لغة الحمقى لأرى إن كانوا قد أشاروا إلى موت أبي. دفعت الصحيفة في جيبي واستندت إلى حافة الجسر الحجر. ومن تحتي، فوق شرفة تزيينية صغيرة، كانت صورة مريم العذراء التي يقولون إن موجات طوفان عظيم جاءت بها إلى هنا. وإلى جانبي وقف تمثال، تركيٌّ من بروكوف مرتدياً سترته ذات الأزرار الكثيرة المزدوجة ومعه كلب يحرس سجناءه المسيحيين. ومن فوقه كان المؤسسون الثلاثة لجمعية الثالوث الأقدس. لاحظ يا عزيزي كيف أن معظم الحياة موجود في الكلب وفي التركي. ليس لدى

الحيوانات والكفرة حركات موصوفة محددة، فهم أحياء، ليسوا قديسين! إن اللاقداسة لا تنتمي إلى الحياة؛ لقد اخترعت من جانب مختلف أنواع العجزة الذين كانوا غير قادرين على العيش، أو كانوا خائفين من العيش، فأرادوا تعذيب من يعرفون كيف يعيشون.

كانت الشمس متألقة على أسقف البيوت وعلى أغصان شجرة الكستناء شبه العارية فألقى ضوؤها على الأرض رسوماً مزركشة من الظلال. ومن الجسر أتى وقع أقدامٍ غير متصل. خلت أنني أستطيع سماع همهمة المياه عند حاجز السد أيضاً.

انتزعت نفسي من ذلك الحاجز الحجر. كان الزمن يسير، وكان عليَّ العثور على متحدث الجنازة. ألقيت نظرة أخيرة إلى الحي، إلى حيث كنا نمشي أحياناً صوب الحديقة القريبة، وعند ذلك رأيتها. ما كنت قادراً على تمييز ملامحها من ذلك الارتفاع، لكنني عرفت مشيتها المتعجلة الجائعة إلى الحياة. رحت أنظر في إثرها، أتبعها بعينيّ أثناء مرورها تحت قوس الجسر. كنت أستطيع أن أتركها تفقد نفسها مجدداً في البعيد الذي ظهرت منه لكنني هبطت الدرجات جرياً ولحقت بها ثم نطقت اسمها.

توقّفت! ظلت برهة من الزمن تنظر إليّ كأنني ظهور شبحي غريب. سألتني والدم يندفع إلى وجهها: «من أين ظهرت؟».

حاولت أن أشرح لها أنني كنت أحمل دواء إلى شخص ما لكن ذلك الشخص اختفى عن وجه الأرض، بل إن صديقته السابقة نفسها لم تعرف أين أستطيع العثور عليه.

قالت موافقة: «نعم! في لحظة يكون الشخص هنا. وفي اللحظة التالية يكون كما لو أنه لم يوجد أبداً!»، نظرت إليّ. كم لديها من لوم أعدته لي من أجل هذه اللحظة؟ أو لعلها كانت، على العكس من ذلك، على وشك إقناعي بأنني أخطأت وبأنني قد خنت نفسي؟

لكنها سألتني: «ما أخبار والدك؟». وعندما أخبرتها بوفاته قالت: «إنني

أصلي من أجله». وأحسست في تلك اللحظة نفسها بعينيها تعانقاني وتقبلاني قبلة رقيقة.

أحسست لمسة الزمن على نحو مفاجئ، الزمن الذي على الجانب الآخر من الجدار الرقيق. كانت جالسة معي في غرفة الانتظار في المستشفى، ثم خرجنا، وكان الثلج يتساقط.

سألتها سريعاً عن ابنتها وعن عملها.

قالت إنني ما زلت مثلما كنت، ما زلت مهتماً بعملها أكثر من اهتمامي بها. لكنها لم تكن تفعل شيئاً في تلك اللحظة. لقد اكتشفت متعة الكسل. كانت تقرأ الورق للأصدقاء أحياناً، أو كانت تصنع على نحو أخرق تمثالاً من أحلامها. لا يزال أحد تلك التماثيل يحمل ملامح تشبهني.

سرنا في تلك الشوارع الضيقة حيث كنا نسير كثيراً. وكانت تحدثني أثناء سيرنا مثلما كانت تحدثني من قبل. لقد تعرفت في الصيف على خبيرة أعشاب وحصلت منها على وصفات كثيرة من الأعشاب. وكانت، طيلة أيام كثيرة، تجمع الأعشاب وتجففها، ثم، ما عساها تكون لتستطيع أن تفعل شيئاً عندما لا أكون على تواصل معها، ولو مرة واحدة؟ إن جاءني ألم أو إن أحسست بثقل روحي، فلعلي أتصل بها: يمكنها أن تصنع لي خلطة أعشاب، من الواضح أنني ما كنت مهتماً بأي شيء آخر!

توقفنا عند طرف الحديقة. ما زال عليَّ أن أعثر على متحدث الجنازة: «لم تكفّي عن الوجود بالنسبة لي، أبداً».

كان يمكنها أن تسأل، كلم تكن تسألني من قبل، عن فائدة هذا بالنسبة لها. وكان يمكنها أن تشكو الحزن الذي سببته لها، وكيف آلمتها. لكنها لم ترد تعذيبي في تلك اللحظة. لم تقل إلا: «هذا جيد!». ثم أضافت: «لعل روحينا تلتقيان ذات مكان. سوف نلتقي في حياة مقبلة. هذا إلا إن وجدت لنفسك عذراً في اللحظة الأخيرة». تعانقنا عناقاً قصيراً وتبادلنا قبلة وداع ثم سارت مبتعدة بخَطْوِها المتعجّل.

لم أستطع أن أتحرك. لم أقل لها حتى إني لم أقصد إيلامها أبداً، ولم أسألها إن كانت تدرك أنني لم أفعل شيئاً ضدها وأن الأمر ما كان إلا أنني لم أستطع أن أعود إليها في حالة بين بين، أن أكون قليلاً وأن لا أكون قليلاً، فأنا لا أستطيع إلا أن أكون حقاً أو لا أكون حقاً، مثلما هي!

توقفتْ عند الزاوية. نظرت خلفها. وعندما رأتني واقفاً حيث تركتني رفعت لي يدها مثل جناح طائر صغير من غير ريش ولمست بها جبهتي من بعيد.

أخيراً تحركت من مكاني.

عند الممر الذاهب إلى ضفة جدول سيرتوفكا رأيت عدداً من الأشخاص منشغلين بعملهم في ستراتهم البرتقالية المألوفة. وبتلك الحركات البطيئة، التي تبدو متعبة في الظاهر، الحركات التي أعرفها جيداً، كانوا يكنسون أوراق الأشجار الذاوية ويجمعونها في كومات.

وهناك وقفنا ذات مرة نتبادل القبل في عناق طويل.

شيء جميل! شيء جميل!

خطر لي أن أعود إلى ارتداء سترتي البرتقالية بعض الوقت لأنني كنت أتوق إلى التنظيف. يتوق الإنسان إلى التنظيف لكنه، بدلاً من ذلك، يبدأ بتنظيف ما حوله. وعندما يصل إلى تنظيف نفسه يكون قد أضاع وقته في تنظيف العالم من حوله.

في منتصف ذلك الممر المكنوس رقدت ورقة كستناء بنية ذات فصوص. لعلهم أهملوها، أو لعلها سقطت الآن مبحرة في طريقها إلى الأسفل. التقطتها ورحت أدقق في عروقها المتعرجة بعض الوقت. ارتعشت الورقة بين أصابعي كأنها حية.

ما زلت ممتلئاً بذلك اللقاء غير المتوقع.

يبحث الناس عن صور للفردوس فلا يعثرون إلا على أشياء من هذا العالم!

لكن الفردوس لا يمكن تثبيته في صورة لأن الفردوس هو حالة اللقاء.

اللقاء مع الله، ومع البشر أيضاً! لكن المهم طبعاً هو أن يتم اللقاء في مكان نظيف.

الفردوس، قبل كل شيء آخر، حالة تشعر الروح فيها بالنظافة.

جلست على مقعد وأخرجت صحيفة المساء من جيبي. رحت أستعرض العناوين الكبيرة التي كانت تردد أكاذيب عمرها مئة سنة، وكذلك العناوين الأصغر حجماً التي تتناول الأمس. لا حاجة للقول إنني لم أجد ذكراً لأبي.

فرقت صفحات الجريدة برفق. وبحركات دقيقة أحسست بأنها جاءتني من تلقاء نفسها طويتها فصنعت منها طائرة متقنة.

سرت حتى النهر. باعدت بين ساقيّ ثم وجهت مقدمة آلتي الورقية الطائرة على نحو مائل صوب السماء. ارتفعت الطائرة بفعل تيار الهواء الصاعد من صفحة الماء، أو لعلها ارتفعت لأنني صنعتها على نحو جيد تماماً بفضل تعليمات والدي. أمضت الطائرة وقتاً غير قصير قبل أن تترك مسارها الصاعد. أما أنا فتبعتها بعينيّ ورأيت زرقة السماء وبضعة نوارس، ومن خلفها غيمة ذهّبتها الشمس. عند ذلك بدأت طائرتي تنحدر وتدور هابطة حتى استقرت على الماء. شاهدتها تعوم فتبتعد بحركة بطيئة لا عودة فيها، تعوم إلى البعيد.

تذكر أن الرجل لا يبكي أبداً! هكذا جاءني صوت والدي من الصمت الذي حولي على غير انتظار.

قلت: لست أبكي، ومن مكان عميق في داخلي جاء صوت ضحكٍ يشبه ضحكةً كانت تجعلني سعيداً في طفولتي.

1986 – 1983

الفهرس

إيفان كليما

حب وقمامة

كان ذكر الروائي التشيكي إيفان كليما يتكرر في مقالات الروائي ربيع جابر. وهذا لفت انتباهي إلى ترجمة عمل من أعماله إلى العربية.

وبعد أن انتهى الحارث النبهان من الترجمة، قال لي: سأنتظر بفارغ الصبر صدور هذه الرواية لأقدّمها لأكبر عدد من أصدقائي.

من جهتي، عندما أقرأ رواية، أضع إشارات على مقاطع منها أراها جميلة. ومنها أختار ما أضعه على الصفحة الأخيرة من الغلاف. وعندما عدت إلى هذه الفقرات وجدتها كثيرة. فرحت أحاول أن أختصر لأختار ما يناسب الحجم المطلوب. لكن هذا كان صعباً، وعجزت عن الاختيار.

لقد قرأت هذه الرواية بمتعة كبيرة، وفي أحيان كثيرة، أعدت قراءة بعض المقاطع مرتين أو ثلاثاً لمزيد من متعة القراءة. أحسّ أن كلمات إيفان كليما كانت تهزّني وتمنحني متعة نادرة.

لم يسبق أن تُرجم أي من أعمال إيفان كليما إلى العربية. وعندما طلبنا موافقته، عبّر عن سعادته بذلك. نحن أيضاً يسعدنا أن تكون دار التنوير واسطة تعرُّف القرّاء العرب إلى هذا الكاتب عبر هذه الرواية العميقة والقوية والرائعة.

الناشر

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

الجناح - مقابل السلطان ابراهيم - سنتر حيدر التجاري
الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 00961 1 843 340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.altanweer.com

ISBN 978-9953-582-02-5